محمد حربي

الثورة الجزائرية

سنوات المخاض

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

موفم للنشر

© موفم للنشر 1994

محمد حربي

الثورة الجزائرية
سنوات المخاض

ترجمة
نجيب عياد
صالح المثلوثي

سلسلة صاد

تحت إشراف علي الكنز

مقدمة الطبعة الجزائرية

لهذا الكتاب تاريخ . فقد نشر أوّل مرة في بلجيكا سنة 1984 . وأعيد نشره سنة 1986 ، وقد تم ضبط صيغته العربية بفضل مجهود جامعيين تونسيين ، وقيام دار نشر سويسرية يديرها بشير بومعزة بتمويل ترجمته الى العربية .

وكان من المقرر أن يطبع الكتاب في قبرص بمبادرة من الفلسطيني هاني الهندي غير أن هذا الأخير عدل عن المشروع وتخلى عن التزامه دون أن يقدم أي تفسير لذلك .

وبفضل جهود خالد بن سعيد ، نشر الكتاب في المغرب الأقصى بدار الخطابي للنشر . وكان ذلك بعد مرور ثلاث سنوات على ترجمته .

وقد يكون من الخطأ أن نرى في هذا الكتاب بحثا وافيا مستوفى الجوانب في موضوع الحركة الوطنية ، فللسلسلة التي ينتمي إليها وظيفة محددة هي : إحياء الحدث واعادة الاعتبار إليه كحدث يزيح الغبار عن تاريخ ظل محظورا لمدة طويلة .

لقد حاولت انطلاقا من ثورة أول نوفمبر ، تصحيح نظرة الفاعلين (الأحزاب والشخصيات السياسية ، والآراء السائدة العامة) الى الحدث ، ثم اقتفاء أثر الأحداث التاريخية للاحاطة بأسس النزاع الفرنسي الجزائري من مختلف زواياه .

لقد أملت طبيعة السلسلة اختيارات صعبة ، ذلك أنه كان من الممكن دراسة الفكر السياسي والاجتماعي بطريقتين اثنيتن : تتمثل الطريقة الأولى في دراسة المفكرين باعتبارهم مفكرين واختيارهم تبعا لما يمثلونه في المجتمع ولما لهم من أثر اجتماعي دون إغفال الظرف الذي كانوا يعيشونه ويعملون فيه . فقد يتغير الرجال بتغير الأحوال والظروف ، ومن مزايا هذا النهج أنه لا ينبذ الفروق الفردية ولا يطرحها جانبا . ويتمثل المسعى الثاني في معالجة المدارس الفكرية المختلفة بين الإسلاميين والشعبويين والشيوعيين الخ ...) وقد آثرت هذا المسعى وأنا على دراية بما يكتنفه من محاذير أنه المسعى المتمثل في الوقوف عند القاسم المشترك بين جميع المفكرين والفاعلين . غير أن هذا

الا ... أقل حظا من الحرية مما يمكن اعتقاده ابتداء . فهو محدود بعدد الأوراق والصفحات الذي يحدده الناشر للمؤلف .

ان القارىء ليعلم أن أي عمل في هذا المجال رَهْنٌ بما يتوفر من المصادر (الوثائق المحفوظة ، والشهادات الخ ...) وقد أدلى ثلاثة شهود بشهاداتهم منذ صدور هذا الكتاب .

«روني فوجور» مدير الأمن في الجزائر خلال سنة 1954 ، وبن يوسف بن خدة الأمين الأول لحزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، وفتحي ذيب مسؤول دائرة المغرب العربي في جهاز المخابرات المصرية .

إن كتب هؤلاء الشهود الثلاثة لتضيف وثائق جديدة الى ملف التحضير لثورة الفاتح من نوفمبر ، وتسمح لنا بتحسين معلوماتنا وتمحيص تحاليلنا .

فالشاهد الأول وهو «جان فوجور» يبيّن لنا مصالح المخابرات الفرنسية وهي قائمة بنشاط حثيث ، ويجعلنا نتابع عملها خطوة خطوة فيما كانت تقوم به من تسلّل وتوغّل في أوساط الحركة الوطنية . وعلى الرغم مما تنطوي عليه شهادته من أخطاء عديدة ترتبط بالنقد المحدود لمصادر الشرطة ، الا أنه يشرح لنا بموضوعية نادرة ذلك الجوّ أو المناخ السياسي الفني بالأحداث المثيرة . فالسلطات الاستعمارية التي كانت على وعي ودراية بتصاعد ضروب الكفاح في أقطار الشمال الافريقي وبالتغيرات الحاصلة في مصر ، كانت تعيش حالة انتظار وترقب لانفجار ثورة ، وتسعى جاهدة للكيد لها وإبطال مفعولها . وكانت تتوافر لها أدلة على ما كان يجري من تحضيرات لاعلان الثورة ، كما تبين ذلك عدة تقارير ولا سيما التقرير المؤرخ في 23 أكتوبر 1954 لكن ماذا عساها أن تفعل يا ترى ؟ أتراها تقضي على الحركة في المهد وهي قيد التحضير ؟ هذا ما لم يكن يوافق عليه «روني فوجور» اقتناعا منه أن إلقاء القبض على جميع الناس ، وهذا ما لم يكن مؤكداً ، قد لا يغني في الأمر شيئا . أم تراها تعمد الى توفير الظروف الملائمة لنصب شرك كبير للمسؤولين بما في ذلك مساعدة المقدمين على الثورة في صنع القنابل التقليدية مع اتخاذ جميع الاحتياطات لجعل هذه القنابل غير ذات فعالية ؟ هذا ما قرره روني فوجور . بيد أن التاريخ لا يسلك دائما ما ترسمه له المناورات من سبل ومسالك ، فقد استبق مؤسسو جبهة التحرير الوطني عدوهم ، وكسبوا الجولة وما كادت السلطات الاستعمارية تتحرك حتى فاتها الأوان .

لقد أفاض «روني فوجور» في الشرح ودخل بنا في متاهة سير دواليب الدولة بكل ما يكتنف هذا السير من بيروقراطية وقواسر . وركّز القول على ما أسماه خسائر الثورة والعوامل الدافعة إليها .

أما بن يوسف بن خدّة فقد برّر المسعى الذي سلكه المركزيون ازاء مشكلة إعلان الثورة . وحاول جاهداً ، اقناعنا بمدى سداد مواقف أتباعه وصوابها فيما حدث من تصدّع وانشقاق في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، شارحاً لنا الظروف السياسية (رفض الحركات الوطنية في تونس والمغرب الأقصى فكرة إنشاء جبهة موحّدة ، والمخاوف من أن ينقلب العنف – كما حدث في شهر مايو 1945 – ضدّ الحركة الوطنية والشعب الجزائري الخ ...) التي كانت وراء التحفظات من المبادرة بفتح جبهة مسلحة في القريب العاجل .

لكن هذه التحفظات كانت في الواقع ذات طبيعة أخرى مغايرة . ذلك أن المعروف في كافة المجتمعات هو أن الطبقات المندمجة والطبقات المهمّشة لا تكون لها مواقف متشابهة إزاء المخاطرة والمغامرة . هذا هو السبب الذي جعل الحركات الوطنية في أقطاع المغرب العربي التي كانت تسعى الى احتواء جميع فئات المجتمع وطبقاته لم تتحول الى سلوك سبيل العمل المسلح دونما الوقوع في مشاكل مأساوية وفي أزمات .

ان ذاكرة بن يوسف بن خدّة لتبقى ، من وجهة الإعلام ، ذاكرة اصطفائية انتقائية . فهو يغضّ الطرف عن الوقائع التي تبين أن مصالي وبوضياف كان كل منهما يجعل في مقدمة اهتماماته ، ودون أن يدرى كل منهما بما يفعله الآخر ، تكوين اطارات عسكرية وتدريبها ... فما الداعي مثلاً – إلى اخفاء ما قام به مصالي سنة 1951 – وكان مقيما في باريس حينئذ – من ايفاد موسى بو الكروع الى مدينة الجزائر لكي يطلب من السيد بن خدة اختيار اطارات لإرسالهم على جناح السرعة الى القاهرة قصد التكون عسكريا ؟ لماذا نرفع من شأن الجمع داخل اللجنة الثورية للاتحاد والعمل بين المركزيين والناشطين من المناضلين مع ما تم كشفه لنا من الأدوار التي قام بها حسين الأحول وعبد الحميد سيد علي ، ونقلل من العواقب السياسية الناجمة عن القطيعة بين التيارين والوخيمة على مصير الثورة ؟ ولماذا لا يفصح عن أن اللجنة المركزية أو رعاتها على الأقل قد أصدروا عقب يونيو 1954 نشرة بعنوان «المناضل» ليعارضوا بها نشرة «الوطن» .

وثالث الشهادات هي شهادة فتحي ذيب التي تطلعنا على العلاقات التي كانت قائمة بين الدولة المصرية والوطنيين الجزائريين . وقد قدم لنا الكاتب – اعتسافا – ثورة 23 يوليو كما لو كانت هي الحدث المؤسّس لكل ما جرى في ساحة المغرب العربي من أحداث ، كما أنه ينظر إلى تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية من خلال المرآة المشوّهة لصورة التاريخ المصري . ومن ثم يتجلى لنا بصورة أوضح لماذا وكيف أثرت مصر من بين القادة الجزائريين هذا الشخص أو ذاك دون غيره من القادة الآخرين .

إن الشهادات الثلاث المذكورة لتستدعي منا ملاحظة لابدّ من الإشارة إليها . وهي أن تاريخ الثورة الجزائرية ما يزال ميداناً بوراً ، وأن تفسيرات الفاعلين والمؤثرين فيها ما تزال عبئاً ثقيلاً على جهود المؤرخين الرامين الى اقرار الحقيقة ، واستجلاء غوامضها . وما من شك - لذلك - في أن التاريخ ، بما يطرحه من تساؤلات ، وما يطرح عليه من استفسارات يبيّن لنا أن طبيعته ذاتها تقتضي بأن يراجع ما كتب فيه على الدوام لمزيد من التمحيص والتدقيق .

الحدث

الإطار التاريخي

تتميز الفترة الممتدة بين 1945 و 1954 بالصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي من أجل السيطرة على العالم . وقد شهدت هذه الحقبة أزمات حادة ، كأزمة براغ (1948) ، وحرب كوريا (1950) ، كادت تؤدي الى القطيعة ، وسيطر شبح الحرب الكونية على العقول من جديد .

في هذا الوضع المتّسم بالتوتر المتواصل والحرب الباردة وجدت الدول الحديثة العهد بالإستقلال نفسها أمام خيارين ، أحلاهما مرّ ، طرحتها الدول العظمى : الإنضمام الى المعسكر الغربي أو الإنضواء تحت راية المعسكر الشيوعي . غير أن بعض الدول كالهند وأندونيسيا ومصر ويوغسلافيا خاصة ، رفضت هذا الخيار وفضلت «عدم الإنحياز» و«الحياد» ، معتبرة أن التطوّر الإقتصادي ومكافحة الإستعمار يجب أن تحتل الصدراة في اهتمامات الدول العظمى .

وبالتوقيع على اتفاقية الهدنة في كوريا يوم 27 جويلية/تموز 1953 شهدت فترة التوتر والحرب الباردة نهايتها . وكان ذلك سببا في عودة المشاكل الإستعمارية الى تصدر الأحداث بعد أن وقع إهمالها وتجاهلها أو استعمالها لأغراض تسلطيّة بحتة .

كانت فرنسا الدولة الوحيدة من بين الدول الأوروبية العظمى التي لم تدرك مدى التغييرات الحاصلة في المستعمرات . وعلى الرّغم من أن نيّة الإصلاح قد

برزت فيها خلال الحرب العالمية الثانية . فإن المشاريع المقدّمة لم تكن في مستوى المتطلبات . ذلك أن «فرنسا الحرّة» كانت متخوّفة أساسا من أن تحلّ الدول العظمى الأخرى محلّها الشيء الذي منعها من تقييم الطاقة الإنفجارية لحركات التحرير الوطنية تقييما صحيحا . وهكذا جاء مؤتمر برازافيل (جانفي/كانون الثاني 1944) بعيداً كلّ البعد عن مطامح الشعوب المُستَعْمَرَة التي لم يُدعَ ممثلوها لحضور هذا المؤتمر .

وبعد تحرير فرنسا من الإحتلال الألماني لم تحدث التغييرات المنتظرة . فالإنقسامات العديدة داخل المجتمع الفرنسي أدّت إلى قيام حكم يرتكز على تحالفات هشّة . وبالتالي غير قادر على «اختيار نهج واضح والمضي فيه» فضلا عن أنه كان « أسيرا لمن كان يحسب أنهم سنده ومساعدوه فحسب» (بيار سورلان) . فتشبث فرنسا بفكرة الإمبراطورية جعلها تعالج المشاكل الفورية ، تاركة لولاتها الذين كانوا تحت سيطرة المعمرين مهمّة تحديد سياستها في المستعمرات . وهكذا وجد المسؤولون الفرنسيون أنفسهم يواجهون أزمات متلاحقة لا يستطيعون التحكم فيها ، فجاء ردّ فعلهم محافظاً ، مع كونهم خارجين من صفوف المقاومة ضد الإحتلال الألماني ، وزكوا مبادرات ولاتهم فكانت مجازر قسنطينة في 8 ماي/أيار 1945 والشروع في إعادة احتلال الهند الصينية بداية من سنة 1946 والقمع الوحشي لثورة شعب مدغشقر سنة 1947 .

وفي الخمسينات وبينما كانت الحرب الهند الصينية على أشدّها بدأت شعوب شمال إفريقيا تتحرك تحت تأثير الإستفاقة التي كان يشهدها العالم العربي . تجندت كل من تونس والمغرب لمقاومة تطور الحماية نحو السلطة المزدوجة . «ان الحضور الفرنسي جنوبي البحر الأبيض المتوسط لا يمكن أن يكون محلّ نقاش . فنحن لسنا هناك كأجانب ولا كمعمّرين بل كشركاء دائمين ، تماما كما كان الرومان في العصور القديمة»[1] . فكاتب هذه الكلمات أندري سيغفريد (كتب ذلك سنة 1954) يترجم بوضوح ما كان يخالج فكر أغلبية الطبقة الفرنسية انذاك .

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

في سنة 1951 انفجرت الأزمة التونسية وفي 15 جانفي/كانون الثاني 1952 قامت حكومة شنيق ، التي يؤيدها الحزب الدستوري الجديد ، بتقديم القضية التونسية إلى مجلس الأمن وبدأت المجموعات الأولى للمقاومة المسلحة (كانت الصحافة الفرنسية تنعتهم «الفلاقة» ، أي قطاع الطرق بالعامية التونسية) تظهر على مسرح الأحداث .

أما الأزمة المغربية التي كانت كامنة منذ سنة 1947[2] فقد برزت للعيان بعد قمع إضراب 8 ديسمبر/كانون الأول 1952 الذي شنّه الشغالون احتجاجا على مقتل الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد ثم بعد خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف في 20 أوت/آب 1953 .

وبينما كان الموقف الفرنسي من المستعمرات يطغى على الساحة السياسية في شمال إفريقيا ويثير ردود فعل كبيرة في الشرق الأوسط ، كان الإهتمام مركزاً في فرنسا على مسألة إعادة التسلح الألماني . أما مشروع الجماعة الأوروبية للدفاع (CDE) فقد كان يقسّم الرأي العام الفرنسي بين مؤيدين للولايات المتحدة الأمريكية وأنصار للإتحاد السوفياتي وقوميين فرنسيين . وفي هذه الأثناء كانت السياسة الإستعمارية الفرنسية تنحدر نحو الهاوية . وهذا ما سيتأكد في 7 ماي/أيار 1953 حين ستنزل بالجيش الفرنسي كارثة لم يسبق لها مثيل في ديان بيان فو . وفي هذا الوضع العصيب فإن الطبقة السياسية الفرنسية هبت مسرعة وسعت إلى «تحويل إفلاسها إلى تصفية قضائية» فاستقدمت منديس فرانس إلى الحكم «لكنها احتفظت لنفسها بإمكانية تحميل ذلك الرجل الذي سيخرجها من المأزق مسؤولية قبر المستعمرات»[3] .

وتحت ضغط الكارثة ، واجه منديس فرانس الموقف بحزم . فوضعية الجيش الفرنسي في الهند الصينية كانت تتطلّب اتخاذ قرارات سريعة ، ذلك أنه من غرّة جانفي/كانون الثاني 1954 إلى 20 جويلية/تموز من نفس السنة ، وهو تاريخ إمضاء معاهدة وقف القتال خسر الجيش الفرنسي ما لا يقل عن 100 920 رجلاً ما بين قتلى وجرحى وأسرى . أما الإحتياطي فكاد يكون

مفقوداً ولم تستطع وزارة الدفاع خلال خمسة أشهر إلا ارسال 879 رجلاً الى الهند الصينية[4]. كل هذه العوامل جعلت منديس فرانس يمضي اتفاقيات جنيف التي كرّست الهزيمة السياسية والعسكرية لدولة عظمى أمام شعب صغير.

وفي تونس تكثّفت حرب العصابات وأصبح جنوب البلاد بأكمله في حالة تمرد وكانت هيئة أركان الجيش الفرنسي واعية بذلك، وهذا ما يؤكده الجنرال بلان، حيث يقول: «إن محاولة القضاء على مثل هذا الإرهاب ولو بقوى عسكرية وافرة العدد، بدون إيجاد حلّ للمشكل السياسي القائم، يؤدي بفرنسا الى اعادة تجربة باو داي، أي الى حرب لا مخرج منها كما وقع في الشرق الأقصى»[5].

وانطلاقا من قناعته بضرورة اصلاح المجتمع الفرنسي ومما تحتمه الأوضاع العسكرية قام منديس فرانس، يؤازره في ذلك الجنرال جوان، بمبادرة تمثلت في التنقل إلى قرطاج، حيث يقيم الباي، والإدلاء أمامه بتصريحه المشهور الذي يفتح الباب للإستقلال الداخلي. وفي نفس الوقت قام بتعزيز الحضور العسكري الفرنسي الذي تعدّى من 18.370 جنديا في جويلية/تموز 1954 الى 43.112 في جانفي/كانون الثاني 1955. وكان غرضه من ذلك التصدي الى التجاوزات المتوقعة من طرف المناهضين للإستقلال الداخلي واقامة حزام واق حول الجزائر. إلا أن جميع المسؤولين السياسيين ومن ورائهم الصحافة الكبرى لم يفتأوا يردّدون أن الوضع «هادىء» بالجزائر. لكن المتتبع للأحداث يلاحظ أنه خلال كامل صائفة 1954 كان سكان الحدود الشرقية الجزائرية عرضة للتفتيشات والمضايقات والإيقافات. وكان اختطاف عون إداري في بوحجار في أكتوبر/تشرين الأول 1954 دليلاً على هشاشة هذا الهدوء.

الأزمة الجزائرية

إن الحضور الفرنسي في الجزائر لم يكن أبداً مقبولاً عن طواعية إلاّ أن القضاء على المقاومة المسلحة من ناحية والجمود الغالب على السكان والإطارات المحلية

والنزعة المحافظة من ناحية أخرى وقفت عائقا في وجه مقاومة الهيمنة الأجنبية . ومع مطلع القرن العشرين ، وبصفة خاصة خلال الحرب العالمية الأولى ، دخلت التيارات الفكرية الجديدة المجموعة الوطنية المسلمة .

ونتيجة لذلك فإن الحياة السياسية لم تعد حكراً على المجموعة الإستعمارية وعلى الفروع المحلية للأحزاب والنقابات الفرنسية بل تعدتها إلى الجزائريين أيضا . وفي الثلاثينات بدأت الحركة الوطنية تتجسم ودخلت الجماهير الى الميدان وتواصل هذا التطور خلال الحرب العالمية الثانية حيث احتدت مناهضة الجزائريين للسيطرة الإستعمارية . وانبثقت عن التطور الإجتماعي والسياسي الذي سوف نعود إليه باسهاب ، أربع حركات سياسية كبرى .

المنظمات السياسية وبرامجها

•الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (1946 - 1956)

أنشئت هذه الحركة سنة 1946 من طرف فرحات عباس وكانت في الأصل مفتوحة للجزائريين والأوروبيين على السواء وكانت تهدف إلى إقامة دولة مرتبطة بفرنسا .

ومن خصائص هذه الحركة أن الأعيان يحتلون الصدارة فيها وقد كان هؤلاء منضوين قبل ذلك تحت لواء الحركة الإندماجية . ومن أجل ذلك فإن الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بالرغم من حسن نوايا إطاراته الشابة كمحمد قرموش وتوفيق بوعتور وحسناوي لم يتمكن من التحول إلى حزب يتجاوب مع طموحات الجماهير . [6] ومع ذلك فقد لقيت هذه الحركة اهتماماً لدى الفئات المثقفة في سنة 1946 ويرجع ذلك ولا شك إلى صبغتها النخبوية وخوفها من الجماهير .

وانطلاقا من هنا فإن الإتحاد الديمقراطي كان يناضل على جبهتين : ضد المستعمرين الرجعيين وضد حركة التحرير الشعبية . ويرجع القسم الكبير من التجاوب التي حظيت به الحركة في المدن (قسنطينة وتلمسان وغيرها) إلى مؤازرة العلماء لها .

أما قادتها فكانوا من رجال البرلمان المحنّكين وكانوا يعتقدون أنهم يمثلون أفضل طرف للتخاطب مع الفرنسيين . وبما أن القمع المسلط على الجزائريين منذ 1946 لم يمسهم فقد كانوا يظهرون بمظهر القوة الفاصلة بين المجموعتين الأوروبية والمسلمة وكعنصر تعاون محتمل . وكانت السلط الإستعمارية في سطيف وبرج بوعريريج وتوقرت ومنطقتي السورشنيس والأوراس تثني على اعتدال مسيّري الإتحاد الديمقراطي . ويقول محافظ الشرطة في برج بوعريريج بهذا الصدد : «طال الزمان أو قصر يجب أن نشركهم في ادارة شؤون البلاد» .

إلا أن الحركة عرفت أزمة مصداقية خلال الخمسينات وفقدت تبعا لذلك قدرا كبيراً من تأثيرها .

• الحزب الشيوعي الجزائري (1936 – 1955)

أنشىء الحزب الشيوعي الجزائري رسميا سنة 1936 على أنقاض الجامعة الجزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي ، فهو لذلك ، وبالمفهوم العصري ، أقدم حزب جزائري . وكان يضم الأوروبيين والمسلمين على حدّ السواء . ولم يستطع الحزب الشيوعي تطوير ما يحويه نظرياً من استعدادات وإمكانيات وذلك لأنه لم يدرج استقلال البلاد ضمن برنامجه وقد حكمت عليه هذه الوضعية أن يكون حزبا للوسط ، بل أكثر من ذلك ، لقد وجد نفسه في الفترات التاريخية الهامة جنبا الى جنب مع القوى المؤيدة للبرجوازية*. ففي سنة 1936 مثلاً ساند مشروع بلوم – فيوليت الرامي إلى منح صفة المواطن الفرنسي إلى النخبة الجزائرية . وفي سنة 1945 نادى بقمع الحركة الوطنية الشعبية . وبالرغم من هذه الأخطاء ونظراً إلى المساعدة التي كان يلقاها من نقابات الكنفديرالية العامة للشغل (CGT) وإلى الإشعاع الذي تتمتع به جريدة Alger Républicain (الجزائر – الجمهورية) وهي الصحيفة الوحيدة المعادية للإستعمار ، فقد كان للحزب الشيوعي صدى حقيقيا يفوق أحيانا وفي بعض المراكز صدى منافسيه من الأحزاب الوطنية .

• جمعية العلماء الإصلاحيين (1931 – 1956)

على غرار الإتحاد الديمقراطي والحزب الشيوعي ، كانت حركة العلماء تفضّل

الوسـائل السلمية وتبحث عن حلّ للقضية الجزائرية لا يُحدث قطيعة مع الإطار القانوني القائم في ظل الوجود الفرنسي . وقد أنشئت الحركة سنة 1931 بمبادرة من الشيخ عبد الحميد بن باديس وفي الخمسينات كان يتزعمها خلفه الشيخ بشير الإبراهيمي ، وبعد هجرته بمحض إرادته الى الشرق أصبح مصير الحركة بيد الشيخ العربي التبسي .

• حركة انتصار الحريات الديمقراطية

تحتل هذه الحركة مكانة مميزة بين المنظمات السياسية التي تقوم بتأطير الجزائريين . وقد أنشىء هذا الحزب سنة 1946 بمبادرة من مصالي الحاج . فهو امتداد لنضال نجم شمال إفريقيا (1926 - 1937) وحزب الشعب الجزائري (1937 - 1939) وكلاهما وقع حله ومنعه من طرف السلطات الفرنسية . لقد استطاعت حركة انتصار الحريات الديمقراطية أن تجسم الرغبة الملحة في الإستقلال التي التزمت بها أولاً الهجرة الجزائرية في فرنسا ثم البورجوازية الصغيرة في المدن الكبيرة ومن بعدها البروليتاريا الرثة في المدن والعامة في الأرياف . وبذلك فان هذه المنظمة هي حركة الشباب الذي لا يتردد في استعمال القوة إذا لزم الأمر .

وهذه التيارات الكبرى ليست هي الوحيدة التي تتركب منها حركة التحرير الوطني . فهناك مجموعات أخرى تعبر أيضا عن مطامح الشعب الجزائري في الحرية والتقدّم ، منها ما ليس له من الأهميّة إلاّ تلك التي أرادتها له الأحزاب التي كوّنته والتي تدور في فلكها[7] ومنها التي يتجاوز إشعاعها حدود الأحزاب التي تشرف عليها ، نذكر على سبيبا المثال الكشافة الإسلامية الجزائرية «التي كانت ، على حد تعبير محفوظ قدّاش ، مدرسة الوطنية الجزائرية» ، والهيئة القومية للعاطلين عن العمل ونقابات الكنفديرالية العامة للشغل (CGT) وجمعية الطلبة المسلمين بشمال افريقيا (AEMNA) والعديد من الجمعيات الثقافية والرياضية .

سعت كل هذه المنظمات إلى تغيير الواقع الإستعماري للجزائر ، بعضها عن

طريق الحوار مع فرنسا والبعض الآخر بواسطة استراتيجية ترمي إلى القطيعة معها . ولكن واحدة منها لم تصل إلى نتيجة تـذكر . والواقع أنـه لو نظرنـا إلى الأمور مع اعتبار البعد الزمني لاتضح لنا أن أي هدف من الأهـداف مهما جـاء متواضعاً كان يتطلّب لتحقيقه توخي استراتيجية جذرية .

إنذار ماي/أيار 1945

بدون أن نعود بعيدا إلى الوراء ، يمكن أن نقول إن الأزمـة الجزائريـة بـدأت تأخذ صبغة جدّية خلال الحرب العالمية الثانية ، يوم بدأ الزعمـاء الجزائريون ، المؤيدون سابقاً لفكرة الإندماج ، يطالبون بإقامة دولة جزائرية . فقد شهدت الحركـة الـوطنيـة بـدايـة من ذلـك الـوقت تطـوراً لا عهـد لهـا بـه . فتمكن جناحاها ، الراديكالي بقيادة مصالي والمعتـدل بقيـادة فرحـات عبـاس والبشير الإبراهيمي من تحقيق وحدتها داخل حركة **«أحباء البيان والحرية»** (AML) وقد جاءت هذه الوحدة التي طالما انتظرها الرأي العام كرد فعل على قانون 7 مارس/آذار 1944 الذي يمنح الجنسيـة الفرنسيـة لبضعـة آلاف من الجزائريين . وفعـلا فـإن هـذه التـدابير التي ليست سـوى صيغـة جـديـدة لمشروع بلـوم - فيوليت لعام 1936 قد ظهرت للجميع تافهة ومتـأخرة عن ميعـادهـا . ومع نهـايـة الحرب أخـذ أتبـاع مصـالي يجـذرون مـواقفهم تجـاه فرنسـا بـالرغم من احترازات حلفـائهم . لكن الوسـائل التي كانوا يقترحـونهـا لبلـوغ الإستقـلال لم تكن واضحة . كان الكثير منهم يفكرون في انتفاضة عامة . وقد بدأت التعبئة الشعبية لهذا الغرض بتنظيم مظاهرات في غرّة ماي/أيار 1945 آلت الى ثورة 8 من نفس الشهر يوم إمضـاء معـاهـدة الهـدنـة التي كرست هزيمـة ألمـانيـا أمـام الحلفاء . وقـد استغل المعمرون الـذين كانوا يتحينون الفرصـة لتصفيـة الحركـة الوطنية مرة وإلى الأبد هذه الأحداث للقيام بمجازر في مناطق سطيف وقـالمـة مـا بين 8 و 13 مـاي/أيـار . وفي منطقـة Heliopolis وقع حرق الجزائريين في أفران الجير . كان القمع الذي قام به الجنرال دوڤـال رهيبـا لا رحمـة فيـه وقـد كانت حصيلته «مـا بين 27 و 29 قتيلا» حسب مزاعم الأوسـاط الرسميـة ، أمـا «العسكريون فقد اعترفوا في السر أن عدد الضحايـا يتراوح بين 6000 و8000»

حسبما يؤكده المؤرخ شارل أندري جوليان[8] . وتذكر الأوساط الوطنية أخيراً ، أن العدد الصحيح هو 45000 ضحية . ومهما يكن من أمر فان هذه التقديرات لا تؤيدها حجج دامغة .

وعلاوة على هذه المجازر فقد أوقفت السلطات 4560 شخصا صدر في شأنهم 1307 حكما منها 99 بالإعدام و64 آخرين بالأشغال الشاقة مدى الحياة . وكثير من هؤلاء سوف لن يغادروا السجن إلا في نهاية حرب الجزائر . إن أحداث 8 ماي/أيار قد أعادت إلى الأذهان الصدمة التي خلفها الإحتلال الأول وهيأت الجوّ لنوفمبر/تشرين الثاني 1954 . «إن ميثولوجيا المقاومة الأولى التي تداولتها الأجيال عبر الأشعار والأغاني التي كان يرددها الشيوخ و«المدّاحون» قد عادت من جديد إلى الحياة بملامستها للأحداث المعاشة»[9] .

المأزق السياسي

الآن وقد مرت أزمة ماي/أيار 1945 ، ماذا سيكون موقف الإدارة الفرنسية من المطالب الوطنية الجزائرية ؟

لقد انكب البرلمان الفرنسي ، غداة الحرب ، على القضيّة . وفي 20 سبتمبر/أيلول 1947 ، وبعد نقاش طويل ، رفضت الجمعية الوطنية المصادقة على قانون الدولة الجزائرية المرتبطة بفرنسا الذي كان يطالب به الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA) وصوّتت على مشروع جديد يقضي بإيجاد مجلس جزائري يتمتع أساسا بصلاحيات مالية ويشتمل على قسمين ، قسم جزائري وقسم أوروبي لكل واحد منهما 60 نائبا ، ويحتفظ الحاكم العام للجزائر بحق المراقبة على المجلس الأمر الذي يكرّس تفوّق الأوروبيين . إلاّ أن هناك أربعة تراتيب تحتوي ضمنيا على امكانيات تقدمية وهي : إلغاء البلديات المختلطة ، استقلال الشعائر الدينية الإسلامية ، تدريس اللغة العربية في جميع مراحل التعليم وحق التصويت للمرأة الجزائرية . لكن تطبيقها يبقى مرتبطا بموافقة ثلثي أعضاء المجلس . إن هذا «القانون الممنوح» سوف يلقى معارضة من الأوروبيين ومن كل ممثلي الشعب الجزائري المعتدلين منهم والراديكاليين .

ا ، حـاول الحـاكم العـام ، الإشتراكي إيف شـاتينيو ، إدخـالـه حيز التطبيق ولـ ه لم يلبث أن عـزل من منصبـه تحت ضغـط الأوروبيين الـذين طـالبـوا ـ ا . أما خلفـه ، الإشتراكي مثلـه ، مـارسيل إدمون نـايجلان فقـد استهـدف الحر ه الوطنية مستعملا كل ما لديه من وسـائل قانونية وغير قانونية لتحطيمها والقضـاء عليهـا ، لكنـه عـزّز بـذلـك ، من حيث لا يـدري ، الحركـة الأكثر ـ ر بة وبقي اسمه مرتبطا ، في تاريخ الجزائر ، بالتزوير الإنتخابي .

وهكذا ظلّ هذا القانون حبراً على ورق طيلة سبع سنوات وقد نتج عن هذه الوضعية قـدح في مصـداقيـة زعمـاء الحركـة الوطنيـة من نـاحيـة ، واتجـاه نحو البحث عن أشكال ثورية للتصدي للاستعمار من جهـة أخرى . وفي الخمسينـات بدأت كل القوى الوطنية وخاصة منهـا حركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة وهي الأكثر تمثيلا للطبقات الشعبية تشهد بوادر أزمة داخليـة كان لهـا انعكاس على العلاقات بين الجماعات القيادية وقواعدها الإجتماعية .

أصبحت الجمـاهير تواجـه الوضـع المتحجر بعـدم الاكتراث بمصـالـح الأحـزاب السيـاسيّـة . وفي نفس الوقت صـارت المظـاهرات حـادة ودمـويـة ، وتكررت إضرابـات عمـال المنـاجم والعمال الفـلاحيين . وإذا كانت الطبقـات المرتبطـة مباشرة بالاستعمار تستطيع التفاوض معه للمحافظة على مصـالحهـا ومكانتهـا في إطار النظام الاستعماري فان جماهير المدن والأريـاف لا ترى في النظـام القـائم إلا ما يجلب الثورة واليأس .

لقد استطاعت حركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة أن تحصل على تـأييـد القـوى التي تعيش على هـامش النظـام الاستعماري وذلـك بتبنيهـا مطلب الاستقلال . ولم يكن هـذا الشعـار ذا محتوى وطني فحسب بل كان لـه مضمون اجتماعي لـدى الجمـاهير الشعبيـة يتمثل في طموحهـا الى مكانـة لائقـة في المجتمع الجديد القادم . ولم تكن هذه الجمـاهير تعرف نوع المجتمع الـذي تطـالب بـه ولا كان لهـا تصور واضح للإستراتجيـة التي يجب اتبـاعهـا للوصول إلى الاستقـلال ، ولكنها كانت تعرف جيداً ما لا تريده وما لا يمكن أن ترضى به بأيـة حـال : المماطلة والخصومات من أجل أهداف تافهة .

لقد حكم على الحركة الوطنية بالجمود فلم تعد قادرة على تحقيق حاجيات المجتمع . كان الجميع يعتقد أن الوحدة هي الكفيلة بالخروج من المأزق ولكن وحدة الأحزاب من أجل الاستقلال أضحت مستحيلة لأن هذا الهدف لم يكن يهم إلا حركة انتصار الحريات الديمقراطية .

ولئن أمكن إيجاد قاسم مشترك أدنى لتحقيق الوحدة حول مسألة النضال من أجل الحريات ، فان الأمر لم يدم أكثر من سنة . وهكذا فإن الجبهة الجزائرية التي بعثت في أوت/آب 1951 لم تلبث أن تلاشت وسط لا مبالاة الجماهير بعد أن شلتها الخلافات بين دعاة تعبئة الشعب وأنصار الحوار مع فرنسا وظلّت الأحزاب السياسية متعلقة بالطرق الشرعية ولم تعد تقدّم لمنخرطيها إلا وصفات واهية . وسارت الأمور على غير هدى .

فالحزب الشيوعي قد وظّف كل طاقاته للتشهير بإعادة تسليح ألمانيا . وأما الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري فكان ينتظر المعجزات من حكومة منداس فرانس . وكان ذلك في الواقع غلطا ووهما لأن زيارة وزير الداخلية في تلك الحكومة ، فرانسوا ميتران ، من 16 إلى 22 أكتوبر/تشرين الأول 1954 لم تأت بأي حل للمشاكل المطروحة إذ لم تكن فرنسا تنوي تطبيق قانون الجزائر بل معالجة الأزمة الاجتماعية بزيادة الإعانة المالية .

أما حزب الشعب الجزائري فإنه منذ عودته إلى الشرعية تحت اسم حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، وبالرغم من نشاطه وحيويته ظل عمله مبتوراً لعجزه عن التفكير بصفة جدّية في السبل المؤدية للثورة . وقد أدت الخلافات داخله حول قضايا الاستراتيجية السياسية إلى انشقاقه في جويلية/تموز 1954 . وإثر الانشقاق وجد زعيم الحزب ، مصالي الحاج ، نفسه في صف الأقلية داخل اللجنة المركزية لكن أغلبية المناضلين كانت تقف وراءه أما البقية فقد تبعوا حسين الأحول أبرز جماعة اللجنة المركزية . كان المناضلون ممزقين وكان المستقبل يلوح غامضا ومع ذلك ففي هذا الجوّ بدأت العمليات المسلحة الأولى على كامل التراب الجزائري في الليلة الفاصلة بين 31 أكتوبر/تشرين الأول

و1 نوفمبر/تشرين الثاني 1954 بين الساعة صفر والساعة الثالثة صباحاً . وقد تبنى هذه العمليات كل من جبهة التحرير الوطني (FLN) وجيش التحرير الوطني (ALN) .

الإنفجار

في غرة نوفمبر/تشرين الثاني 1954 ، وهو اليوم الأول من حياة الثورة الجزائرية ، لم يجد الرأي العام مصدراً يرجع إليه للتعرف على ما حدث إلا البيان الذي أذاعته السلطات الاستعمارية . كانت تلك بحق حيلة من حيل التاريخ ليهزأ من صحافة لم تعرف طيلة أحقاب طويلة كيف تصغي إلى الجزائريين وتسمع إلى شكاويهم .

وقد جاء في بيان الحاكم العام ما يلي :

«في الليلة المنصرمة ، وفي نقاط مختلفة من التراب الجزائري وبصفة خاصة شرقي محافظة قسنطينة وفي منطقة الأوراس ، قامت مجموعات صغيرة من الإرهابيين بارتكاب ثلاثين عملية تخريبية متفاوتة الخطورة . وقد نتج عن ذلك مقتل ضابط وجنديين في خنشلة وباتنة وحارسين ليليين في منطقة القبائل كما أطلقت عدة عيارات نارية على الجندرمة (الدّرك) وأضرمت بعض الحرائق باستعمال عبوات ناسفة بدائية لم تنجر عنها غالبا أضرار . غير أنه سجلت خسائر هامة نسبياً في تعاضدية بوفاريق في القبائل . وقد اتخذت في الحال اجراءات وقائية بأمر من الحاكم العام الذي طالب بأن توضع على ذمته امدادات اضافية وتحصّل عليها في الحال . هذا وإن السكان ، الذين نطمئنهم بهذه المناسبة ونعدهم بأن الحاكم العام سوف يقوم بكل ما في وسعه لتوفير الأمن وقمع هذه الأعمال الإجرامية ، قد تحلوا بالهدوء والرصانة» .

فعلاوة على كون الإدارة الاستعمارية قد حاولت التنقيص من خطورة الوضع في الأوراس حيث كانت قبائل بأكملها كتوابة وبن بوسليمان في حالة تمرد فقد قدّمت صورة مشوهة لبرنامج عمل جبهة التحرير الوطني ، خلافا

لإذاعة القاهرة التي أعطت صورة مثالية للأحداث استناداً إلى المعلومات التي أمدّها بها محمد بوضياف ، وأبرزت التطابق بين الأعمال المبرمجة والعمليات المنفذة بدون اعتبار العمليات الفاشلة . ومن هنا ستنشأ تلك الفكرة الخاطئة التي ستغمّر طويلاً حول دور مصر ، عبر بن بلا الموجود في القاهرة ، في تسيير الأحداث بالجزائر .

جغرافية العمليات العسكرية

تتميز جبهة التحرير عن الحركات المسلّحة التي سبقتها بميزة هامة تتمثل في حضور تنظيمها على الصعيد الوطني وفي اشتمالها على مجموعات مقاتلة في الأرياف وشبكات تخريب في المدن وخاصة في الجزائر ووهران وفيما يلي توزيع المناطق والقيادات .

المنطقة	التحديد الجغرافي	القائد	المساعد
المنطقة الأولى	الأوراس - الخامسة	مصطفى بن بولعيد	البشير الشيحاني
المنطقة الثانية	قسنطينة	مراد ديدوش	يوسف زيغود
المنطقة الثالثة	القبائل	بلقاسم كريم	واعمران
المنطقة الرابعة	الجزائر العاصمة	رابح بيطاط	السويداني
المنطقة الخامسة	وهران	العربي بن مهيدي	بن عبد المالك أو بوصوف (حسب رغبة بن مهيدي)

والملاحظ أن العمليات قد شملت كامل التراب الوطني باستثناء الجنوب (ما عدا بسكرة) .

تفصيل العمليات التي وقعت فعلا :

المنطقة الأولى (الأوراس)

• **بسكرة** : هاجمت مجموعة يقودها حسين برحايل محافظة الشرطة والبلدية المختلطة ومركز الكهرباء كما حاولت اضرام النار في محطّة الأرتال وفي معمل النجارة «غوردون» ونتج عنها أربعة جرحى .

•**خنشلـة** : كان تحطيم مـولّـد الكهربـاء بـالمـدينـة بمثـابـة إشـارة انطـلاق العمليات . وقد تمكنت المجموعات التي يقودها عبـاس لغرور من احتلال مركز الشرطـة ومن تجريـد الأعـوان من سـلاحهم كما أطلقت النـار على مقر سكنى المتصرف ولكنها لم تنجح في التسرب إلى الثكنة وكان ذلـك هـدفهـا الرئيسي . وأدت هذه العملية إلى مقتل القائمقام دارنو قائد حـاميـة المـدينـة وجرح أحـد الصبايحية جرحا بليغا أودى بحياته .

•**باتنة** : انطلقت العملية متأخرة عن موعدها ، بعد بـدء الانـذار ، ولهـذا السبب لم تتمكن المجموعـات التي يقودهـا بوشمال وعبيـدي الحـاج لخضر وابراهيم بوستة من بلوغ أهدافها وهي ثكنـة الصبـايحيـة ومخزن البـارود وثكنـة الحرس المتجوّل . وأثناء انـسحابهم أطلق أفراد المجموعة النار فقتلوا شخصين هما الجنـدي بيار أوديات والضابط أوجين كوهي .

•**فم – الطوب** : تم احتلال البلدة وعزل تكوت .

•**مضـائق تغـانمين** : تمكنت مجموعـة يقـودهـا البشير الشيحـاني من ايقـاف حافلة ركاب . وأمام وقاحة قائد مشونش ، الحاج بن صـادق ، الـذي كان من بين الركاب ، ومحاولته استعمال مسدسه قام أحد رجال حماية المجموعـة بـاطلاق الرصاص عليـه من رشـاشـه فـأصـاب اثنين من مرافقيـه هـما المـدرس في منرو وزوجته وكانا يعتزمان الالتحـاق بمركز عملها بـأريس بعـد أن وقعت تسميتها لأول مرة بـالجـزائر . وقـد تـوفي منرو في عين المكان وجرحت زوجتـه جرحـا بليغا .

•**عين مليلـة** : لم تنفـذ العمليـات لتخلي ستـة من أفراد المجمـوعـة المكلفـة بذلك .

المنطقة الثانية : شمال قسنطينة

•**كوندي – ممندو** : إطلاق النار على مركز الجندرمة (الدرك) بدون نيـة احتلاله .

•**الخروب** : اطلاق النار على حارس مستودع الوقود .

•**سان شارل** : تجريد حرس البلدة من سلاحهم .

•**الحرّوش** : تجريد أحد الحراس من سلاحه ؛ نسبت هذه العملية إلى جبهة التحرير ولكنها في الواقع من أعمال أحد السكارى وهو المسمى الباهي . فقد وجد الحارس نائما فسطا عليه .

المنطقة الثالثة : القبائل

•تخريب وسائل الاتصالات في كامل المنطقة .

•اضرام النار في مخازن الخفاف والتبغ .

•مهاجمة ثكنات الجندرمة في كل من عزازقة ، تزقرت ، ذراع الميزان وغيرها . هجومات سريعة في برج منايل ، معسكر المريشال ، ربيقال وقد أسفرت هذه العمليات عن مقتل اثنين من حراس الغابات ، واحد في تيزي رنيف والآخر في تيزي نتلاثا .

المنطقة الرابعة : الجزائر

•**الجزائر المدينة** : قامت ثلاث مجموعات تحت إشراف زبير بوعجاج ويقودها كل من محمد مرزوقي وعبد الرحمان كاصي وعثمان بلوزداد بوضع قنابل في إذاعة الجزائر ومعمل الغاز وفي مخازن موري للبترول ، بينما لم تنفذ مجموعتان أخريان مهمتها وهما مجموعة بسكر التي أولكت إليها مهمة تفجير مركز التلفون ومجموعة نبطي التي أنيط بعدتها إضرام النار في مخازن الخفّاف . أما الأولى فقد عدلت عن القيام بالمهمة لما سمعت الإنفجارات الأولى وأما الثانية فلم تكلف نفسها حتى عناء الإنتقال إلى المكان المحدد لها .

•**بليدة** : الهجوم على ثكنة بيزو بقيادة المسؤول عن المنطقة الرابعة ، رابح بيطاط ، خسرت المجموعة ثلاثة من أفرادها وجرح البعض واضطرت للانسحاب الى منطقة شريعة بالجبال .

•**بوفاريك :** أفضى تخريب الجسور الثلاثة الموجودة على الطريق الرابطة بين الجزائر العاصمة وبليدة والحادث قبل الأوان الى وضع الجيش الفرنسي في المنطقة في حالة استنفار وهكذا لم تتمكن مجموعة عمار أوعمران وبوجمعة السويداني من تحقيق هدفها في الإستيلاء على مخزن السلاح التابع للجيش ولكنهم مع ذلك نجحوا في الإستحواذ على أسلحة مركز الحراسة (6 بنادق و 4 رشاشات) بفضل تواطؤ الضابط الجزائري سعيد بن طبال : كما نجحوا في اضرام النار في مخزن تعاضدية الحوامض .

•**بابا علي :** وقع تحطيم مخازن معمل الورق «سلُّوناف» .

المنطقة الخامسة : وهران

•**وهران :** لم يتمكن قائد مجموعة وهران ، الحاج بن علا ، الذي حدد له كهدف مهاجمة ثكنة المكان من القيام بمهمته لسببين اثنين : أولا لافتقاره للسلاح ، وثانيا لتخلي مساعده عنه وهو الجندي الجزائري مابت الذي كان سيتولى معاضدته من داخل الثكنة .

•**الظهرا :** هاجمت مجموعات رمضان بن عبد المالك ضيعتين بين ويليس وبوسكي كما قامت بمهاجمة كاسيني . وخلال هذه العملية تم قتل أوربي ، لورون فرانسوا ، حين كان يتأهب لاعطاء الانذار . وتم أيضا بالقرب من مقر البلدية المختلطة صرع حارس وتجريده من سلاحه .

•**منطقة سيدي بلعباس :** هاجم أحمد زهانة (شهر حميدة) مقر إدارة الغابة وقتل الحارس .

•**ريو سلادو :** حاولت مجموعة يقودها وداح بن عودة إخراج قطار وهران عين تموشنت من سكته . وقد فقدت المجموعة أحد رجالها ، براحو قدة ، الذي توفي يوم 10 نوفمبر/تشرين الثاني بالمستشفى متأثرا بجراحه .

إن دراسة هذه الأحداث تستدعي بعض الملاحظات :

1 - على الرغم من أنها كانت تستجيب لمطامح الشعب الجزائري العميقة فإن

جبهة التحرير لا تبدو من خلال ما تقدم كحركة واسعة الإنتشـار . فثوار غرة نوفبر/تشرين الثاني لم يحاولوا خوض معارك حاسمة مع العدوّ مثلما كان الشـأن سنة 1871 . على أن السعي إلى تعبئة الجماهير كان موجوداً في منطقة الأوراس طالما كانت مشاركة بعض القبائل مثل دوار إشمول وزلاطو مشـاركـة فعليـة . لكن المجاهدين في هذه الحـالـة لا يبرزون كمجموعـة من الأفراد منضوين تحت لواء منظمـة مـا بقـدر مـا يبرزون كممثلين لقبـائلهم . وهـذا الوضـع وإن كان سيشكل في المستقبل عقبة في طريق إيجاد قيـادة مركزيـة في الأوراس إلا أنـه يخدم مصلحة المناطق الأخرى وذلـك لأن توجيـه القسم الأوفر من الإمكانـات العسكريـة الفرنسيـة إلى الأوراس سيسمح للآخرين بـالقيـام ، بكل طمأنينـة ، بعمل مركّز وفعّال .

2 – كان ضعف التنسيق وفشل عمليات تخريب وسائل الاتصال بصفة عامـة عائقا أمام نجاح العمليات العسكرية التي تواصلت ، خلافا للتقديرات ، طيلـة ثلاث سـاعات ، أي ما بين منتصف الليل والساعة الثالثة صبـاحـا ، من ذلـك أنه في باتنة مثلا استطاع الحـاكم المحلي أن يتخـذ الإجراءات اللازمـة لمنع وقوع العمليات في مدينته بعد أن علم بما حدث في بسكرة .

3 – كان الإستيـلاء على الأسلحـة في الثكنـات أحـد الأهـداف الرئيسيـة للعمليات ولكنه لم يتحقق . ولذلك فإن قضية السلاح ستصبح الشغل الشـاغل لزعماء جبهة التحرير وستقوي عندهم الطابع العملي .

4 – في منـاطـق الجـزائر وقسنطينـة ووهران ظهرت نقـائص تتمثـل في ضعف التنظيم والتجربة . وفعلا فإن هذه الجهات هي التي كانت تفتقر إلى السلاح أكثر من غيرها . أما منطقـة الجزائر ، حيث نجح المركزيون قبيل الإنتفـاضـة في حل مجموعات بليدة وبوفاريك فإن مواجهة الوضع ستتم بالاستعانـة بـالمنطقـة الثـالثـة (القبائل) . وأما قسنطينة فستعمل جاهـدة على تعزيز التنظيمـات الريفيـة وعلى شلّ حركة النزعـات «المركزيـة» و «المصـاليـة» في المـدن . وأخيراً ستركز منطقـة وهران كل جهودها لبناء قاعدة خلفية صلبة في الناظور بالمغرب الأقصى .

منـذ اليوم الأول ظهر الفصل بين العمل السيـاسي من نـاحيـة والعمـل العسكري من ناحية أخرى وتجلى ذلك في عدة أشياء أولها أن بيـانـات كل من جبهة التحرير وجيش التحرير لم توزّع فعلاً إلاّ في القبائل أي في المكان الذي طبعت فيه . وثانيها ملازمة جبهة التحرير الصمت حول ظروف مقتل المدرس مونرو الشيء الـذي استغلـه الإستعماريون لتشويـه سمعـة المقـاومـة منـذ اليـوم الأول .

وبقطع النظر عن هذه الملاحظات فإنـه يبـدو لنـا أنـه ليس من الوارد تقييم عمليات غرة نوفمبر / تشرين الثاني باعتبار مقياس النجـاعـة الفوريـة كما يفعل العـديـد من المؤرخين . ولو فعلنـا ذلـك لحصرنـا ملحمـة المقـاومـة في الإطـار الضيق الذي حدده بعضهم لها ، أي إطـار الإنتفـاضـة التي يغلب عليهـا طـابع المغامرة ، ولتجاهلنا أمراً أساسياً وهو أنه «لو لم توفر علاقـات الهيمنـة التي كانت قـائمـة قبل انـدلاع الثورة وضعـاً متوتراً إلى حـد جعل القطيعـة ممكنـة في كل حين ، لما تولدت عن العمل الإرهابي وضعية ثورية»[11] .

ردود الـفـعـل

ردود الفعل الفرنسية

إن انفجـار غرة نوفمبر/تشرين الثـاني كان متوقعـاً وقـد حـدث في الفترة التي كان فيهـا منـداس فرانس ، ذلـك الرجل الـذي يقـال عنـه أنـه يمتـاز بوضوح الرؤية في مسألة الإستعمار ، يمسـك بـدفـة الأمور . ورغم هـذا فـإن الحـدث لم يكن له صدى كبيراً ، ذلك أنه باستثناء بعض القطاعات اليسارية فإن البقيـة لم تكن تعتبر الجزائر مشكلة استعمارية .

وعلى العكس من ذلك فإن الجزائريين في معظمهم رأوا فيه امتداداً لتاريخهم وقيـدوه في إطـار الكفـاح ضـدّ الإستعمار . والفرق بين النظرتين ، نظرة المستعمرين ونظرة المستعمَرين ، ليس فرقـاً لغـويـاً فحسب ، بـل فرق في موضوع النقاش .

ولتوضيح الأمور فقد ركّزنا ردود الفعل حول ثلاثة محاور :

1 – أصول الإنتفاضة

لمن تعزي مسؤولية الأحداث ؟ إن البحث عن علّة الأحداث داخل الذات هي ظاهرة نادرة في الحياة السياسية . لذلك فإن فكرة المؤامرة المحاكة في الخارج – أو الأيدي الأجنبية – هي التي يعتمدها المعلّقون . وهذا ما ستقوم به الصحافة الكبرى سابقة بذلك رجال السياسة الذين سرعان ما تبنوا تعليلاتها . فهذا روبير بوني يؤكد في صحيفة «L'Aurore» وهي الجريدة التي ساهمت أكثر من غيرها في نفث السموم العنصرية في فرنسا ضد الجزائريين «أن الذين نفذوا العمليات يتلقون الأسلحة والأوامر من الخارج» (5 نوفمبر) أما ج . م . فارو فقد كان أكثر وضوحا في جريدة «Le Figaro» «إن الجامعة العربية وأولائك الذين يعيشون في المنفى في القاهرة ليسوا وحدهم الذين يمارسون ضدنا سياسة الأرض المحروقة . إن خيوط المؤامرة لا تمر كلها بالقاهرة (...) ففرنسا لن تحارب طويلا ضد الأشباح اذ لا بد أن ترفع الأقنعة في يوم ما» (2 نوفمبر) . فالإشارة واضحة هنا إلى دور البلدان الشيوعية كما تتجلى ارادة المعلّق في تقديم غرة نوفمبر كحلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب . أما جريدة «Le Monde» فقد اختارت أن تقدم أطروحة المؤامرة بأكثر لياقة هذا ما كتبه محررها بيير البان ميشال : «قد يقول المرء أن العمليات ليس لها «الطابع» المصالي ، حيث لم يتبعها على ما يبدو تحركات جماهيرية وتمردات وانتفاضات ولم تسجل أية هياجانات مشبوهة . لذلك لا يسعنا إلا أن نصدق بأننا أمام منظمة خارجة عن الأحزاب الوطنية ولا تمت إلى الجماهير بصلة . وكما هو معلوم فإن اذاعة «صوت العرب» لم تعد تميز بين بلدان الحماية والجزائر الفرنسية» (3 نوفمبر) .

والواقع أن فكرة المؤامرة الخارجية لا تعبر عن ردود فعل صحافة حرة بقدر ما تعبر عن أفكار السلطات الفرنسية التي فاجأتها الأحداث ولم تكن قادرة على تجاوز الظاهر والنفوذ الى الجوهر . وفي هذا الاطار يندرج الخطاب الذي ألقاه الحاكم العام روجي ليونار براديو الجزائر في 5 نوفمبر : «إنني أؤكد بأن هذه الأحداث تترجم عن نوايا مبيتة ، في الوقت الذي كانت تنعم فيه الجزائر

بـالنظـام والهـدوء ، في الوقت الـذي لم يكن هنـاك على الإطلاق موجب لمثل هذا العدوان ولا موجب لامتداد الاضطرابات الدموية التي تعاني منها البلـدان المجاورة لمقاطعاتنا الثلاثة . ولمعرفة أصول هـذه المؤامرة فـا علينـا إلا أن نستمع إلى النداءات الحماسية التي تطلقها بعض الإذاعات الأجنبية وأن نعرف العلاقات المباشرة التي تربط مدبري هذه المؤامرة بـالمجموعـات الإرهـابيـة التي نفـذتهـا في الجزائر»[12] .

وفي 12 نـوفمبر/تشرين الثـاني أكـد منـداس فرانس رئيس الحكـومـة أمـام الجمعية الوطنية الإتهامات الصريحة الموجهـة ضـد مصر وطلب منهـا الكف عن مساعدة الثوار الجزائريين مقابل إعانة هامـة وملوحـا في الأخير بـإمكان اتخـاذ اجراءات ردعية ضدها «(...) إن فرنسا ، على المستوى التقني تواصل مساعدتها لمصر ، ففي الصائفة الفارطـة تحولت مجموعـة من رجـال الأعمـال الفرنسيين لكي تدرس على عين المكان إمكانيـة توظيف رؤوس الأموال الفرنسيـة لتشييـد سـد أسوان . إن الوقت قد حان لكي تتحمل الحكومة المصرية مـسؤولياتها»[13] .

أمـا في المعسكر المعـادي للاستعمار فـإن فكرة الإستفـزاز هي التي غلبت على بعضهم . فقـد استهوت كلا من جريـدتي «Franc Tireur» و «France-Observateur» حيث كتب كلـود بـوري يقـول : «لا يجب أن نستبعـد إمكانيـة قيـام بعض الإستفزازيين بهذه الأعمال مستغلين في ذلك غضب العنـاصر الوطنيـة المتطرفـة وذلـك قصـد الحيلـولـة دون كل تطـور ايجـابي وإثـارة ردود فعـل قمعيـة من السلطـات» . لكن مـا هي الغـايـة من الإستفـزاز ؟ «إجبـار رئيس الحكـومـة منداس فراسن على التنكر لمبادئه أو الإستقالة وذلك بدفعـه الى اتخـاذ اجراءات لا رجعة فيها بالمغرب» . ويذهب الحزب الشيوعي الفرنسي إلى أبعد من ذلـك حيث يندد معتمداً على تعاليم لينين «باللجوء الى الأعمـال الفرديـة التي لا تخـدم سوى مصـالح الإستعماريين إن لم تكن صـادرة عنهم فعـلاً» . وقـد ظلت هـذه الفقرة في تعليق الحزب الشيوعي «مخفيـة» الى مـا بعـد انتهـاء حرب الجـزائر . وبعد ذلك رأت الأوساط الحزبيـة ضرورة توضيح موقفهـا فـأعطى ايلي مينيو تفسيراً غير مقنـع مبرراً ذلـك المـوقف بمقتـل المـدرس مـونرو[14] . ولم تخـامر

أذهانهم قط أن هذا الحادث قد وقع خطأ . وقدّم هنري علاّق تحليلا آخر للموقف الشيوعي اذ هو يعزوه الى «مساوىء» السرية التامة التي أحاطت بإعداد الإنتفاضة[15] . والواقع أن كل هذه التأويلات تتجاهل الحقيقة . فالحزب الشيوعي ، شأنه في ذلك شأن العديد من الزعماء الجزائريين الذين سيصبحون فيما بعد مسيرين في جبهة التحرير ، لم يكن يرى في غرة نوفمبر سوى مغامرة لا مستقبل لها وقد اتخذ تبعا لذلك موقفا يمكن أن يستفيد منه فيما بعد . إلا أن الأحداث قد كذبت تكهناته وحساباته . فلم يعد هو الذي يحكم على الظروف التاريخية بل أن الظروف هي التي تولت تفنيد إدعاءاته في امتلاك الحقيقة .

2 – منذ الأيام الأولى لاندلاع الثورة تشبثت الطبقة الحاكمة في فرنسا بأسطورة الجزائر الفرنسية وانطلاقا من هذا الموقف فإن الوطنيين الجزائريين كانوا يُقدّمون للرأي العام «كقطاع طرق» و «مارقين على القانون» ، أما الصحافة الكبرى فلم تعط بعداً سياسيا للأحداث . ولم يكن أحد يرى فيما يجري التعبير الصريح عن مطامح سياسية . وكان الخطاب السياسي في الأوساط الرسمية الفرنسية حاد اللهجة . ولعلّ أبلغ دليل على هذا تصريح رئيس الحكومة منداس فرانس «ألا لا ينتظرنّ منا أحد أي تفاهم مع المتمردين ولا أية تسوية (...) إن المقاطعات الجزائرية (...) فرنسية منذ عهد بعيد . فالسكان الجزائريون قد قدّموا ما يكفي من شواهد الولاء والإخلاص والوفاء لفرنسا . وهذا يجعلها لا تفكر لحظة في التفريط في وحدتها الترابية . فبين فرنسا والجزائر لا وجود لانفصال ممكن . ومحال أن تتنازل فرنسا ولا أي برلمان ولا أية حكومة عن هذا المبدأ الأساسي[16] . ونجد نفس التصريحات في خطاب وزير الداخلية فرانسوا ميتران إذ يقول : «إن الجزائر هي فرنسا»[17] . وكلاهما يعتقد جازما أن جذور المشكل اقتصادية واجتماعية لا غير . والجدير بالملاحظة أن هذا الموقف كانت تتبناه أغلبية الإشتراكيين . أما المعتدلون والحزب الراديكالي والجمهوريون والديغوليون فمشاكل الجزائر هي بالنسبة لهم صلاحيات الأمن العام . وفي البرلمان كان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي

يختلف تماماً عن مواقف المجموعات البرلمانية الأخرى بلهجته المعادية للاستعمار ، وكان نوابه هم الوحيدون الـذين يرون «أن الأحـداث نـاتجـة أسـاسـا عن رفض الحكومة للمطالب الوطنية للأغلبية الساحقة من سكان الجزائر»[18] . ومع ذلك فـإن هـذا المـوقف يبقى دون مـواقف الجـامعـة الشيـوعيـة الإبـاحيـة ومختلف التيارات الترتسكية التي كان تقييمها للأزمـة لا يتنـاقض والحلول التي طرحتهـا لحلها .

منذ الرابع من نوفمبر صدرت جريدة «Le Libertaire» (الإباحي) بعنوان كبير جاء فيه : «إفريقيـا الشماليـة : شعب واحـد ينـاضل ضـد الإمبريـاليـة» . وفي عددها المؤرخ في 11 نوفمبر كتبت تقول ، وكأنها تكهنت بما سيحدث ، «يمكننـا أن نؤكـد أن حربـا جـديـدة كحرب الهنـد الصينيـة قـد بـدأت» . وهي نفس الملاحظة التي أبداها الحزب الشيوعي الأممي[19] كما جاء في بيان لمكتبه السياسي «لنتذكر الهند الصينية ! لقد وعدونا إذاك أيضا بعملية تطهير بسيطـة ثم كانت تلـك الحرب القـذرة التي تواصلت ثمـاني سنوات (...) فلا يجب أن ننتظر ثمـاني سنوات لنعترف للشعب الجزائري بحقـه في الإستقلال . نقول لا للحرب القـذرة في الجزائر»[20] .

إن الثقـة في قـدرة الشعب الجزائري وحـده على وضع حـدّ للاستعمار لم تكن تخامر إلا أقلية من التيارات السياسية الفرنسية التي لم يكن لها تـأثير كبير على الرأي العـام . «كانت فرنسـا كما يقـول أحـد محرري مجلـة «Révolution prolétarienne» (الثورة البروليتارية) بطبعها المحافظ تضع نفسها موضعـا يـدعو إلى الشفقة ، فهي تشبه ذلك الدراج الـذي فقـد التحكم في دراجتـه في منحـدر سريع»[21] .

3 – ما الحلّ ؟

لقـد ورثت حكـومـة منـداس فرانس المشكل الجـزائري في أسـوأ الظروف . فالوضع كان فعلاً دقيقاً جداً . فمنداس فرانس بتصفيته لحرب الفيتنام وبإيجاده تسـوية للقضية التونسـيـة كان يثير غضب مجموعـة الضغـط الاستعماريـة التي كان

يمثلها بالجمعية الوطنية خاصة الجنرال أومران وكيليسي والتي تعيب عليه تشجيعه للحركة الوطنية في شمال افريقيا[22] .

ومن جهة أخرى كانت الحركة الجمهورية الشعبية (MRP) تحقد عليه لتصفيته للمجموعة الأوربية للدفاع (CED) . أما الشيوعيون واليسار والديغوليون فكانوا يعادونه لأنه كان من أنصار إعادة تسليح ألمانيا ، يضاف إلى هذا احتراز القطاعات الإقتصادية التقليدية من سياسة التحديث التي كان ينوي انتهاجها . وبصفة عامة فإن المسائل الإقتصادية والاجتماعية والسياسة الخارجية كانت تأتي قبل القضية الجزائرية في اهتمامات كل الأحزاب ، وإن اختلفت الأسباب وتباينت الدوافع . وكانت هذه الأولويات تخدم مصالح أنصار القوة في الجزائر .

وحتى الحزب الشيوعي فإنه ، وان تحالف مع اليمين لسدّ الطريق في وجه منظمة الدفاع الأوربي المشترك ، لم يكن مستعداً لمجازفة تكتيكية في سبيل إنجاح سياسته المناهضة للإستعمار . فقد توخى خطين سياسيين متباينين سواء في البيانات التي يصدرها أو في كتابات زعمائه وخطبهم . فهو من ناحية يتحدث عن حق الجزائر في الإستقلال ومن ناحية أخرى يربط هذا الحق باعتبارات حول خطر الإمبرياليات الأخرى وضرورة المحافظة على المصالح الفرنسية في الجزائر[23] .

لم يكن إذاً للقضية الجزائرية حلفاء لهم كلمة مسموعة في فرنسا . وهذا ما دفع حكومة منداس فرانس إلى إعطاء الأولوية للقمع مع الحرص على منع المجموعات الخاصة من تجاوزها كما وقع في سنة 1945 .

وهكذا وُجهت التعزيزات بسرعة إلى الجزائر بالإضافة الى القوات الموجودة على عين المكان والتي يبلغ عددها 56.500 رجلا . وفي فيفري/شباط 1955 بلغ المجموع 83.400 باستثناء أفراد «القوم» (وهم من المرتزقة الجزائريين) .

غداة غرة نوفمبر لم تقم السلطات الاستعمارية إلا بإيقاف مولاي مرباح ،

الأمين العام للحركة المصالية . فقد تـأخر تنفيـذ المخطـط المسمى بـ «البرتقـالـة المرة» والقاضي بإيقاف كل العناصر المسجلين كمشبوهين لدى الشرطـة في حـالـة وقوع إضطرابات خطيرة . ورغم هـذا فمنـذ الخـامس من نوفمبر تم حل **حركـة انتصار الحريات الديمقراطيـة** والحـال أن السلطـات كانت تعلم حق اليقين أن لا ناقـة لهـا ولا جمل في انـدلاع الإنتفـاضـة . ولا شـك أن المعلومـات التي استقتهـا الادارة كانت تقريبيـة . فمنـذ أفريـل 1954 كان مـدير ادارة الأمن فوجور يعلم أن شيئاً مـا بصـدد الإعـداد وكانت التقـارير التي تصلـه تشير إلى وجود مجموعـات من شمال افريقيـا تتـدرب بمصر . أمـا مصلحـة الإستعـلامـات فكانت تؤكـد «بـأن كل شيء يـدبر بـالقـاهرة وأن الرئيس هو بن بـلا العضـو السـابق في **المنظمـة الخـاصـة**» (تقرير 23 أكتوبر/تشرين الأول 1954)[24] . لكن وزير الداخلية فرانسوا ميتران كان يعتقد أن **حركة انتصار الحريـات الـديمقراطيـة** متـواطئـة مـع الإنتفـاضـة من حيث وفرت لهـا «العنـاصر المتطرفـة»[25] . وقـد صـادف هـذا الرأي هـوىً في نفس الحـاكم العـام روجي ليونار .

كانت السلطـات تصرح على رؤوس الملأ بـأنهـا تسيطر على الوضـع . وفي 10 نوفمبر أعرب كاتب الدولة للدفاع جاك شوفالي عن تفـاؤلـه . لكن بعـد يومين فقط أي يوم 12 نوفمبر أصدر الحاكم العام قراراً يمنحه حق اللجوء الى التسخير . وفي 18 نوفمبر حذفت القطارات الليليـة . وفي شهر ديسمبر/كانون الأول بـدأت موجة القمع تشمل الزعماء المصاليين والمركزيين . وشيئـا فشيئـا بـدأت **حركـة انتصار الحريات الديمقراطية** تفقد إطـاراتهـا[26] . وهكـذا ، وفي حين كان المسؤولون الفرنسيون يتحدثون عن أعمال عنف فردية ، كانت فرنسـا في الواقع تعيد احتلال الجزائر وسط لا مبـالاة تكاد تكون تـامـة للرأي العـام الفرنسي . وتعممت ممارسـة التعـذيب ، الشيء الـذي حـدا بوزير الـداخليـة الفرنسي إلى ادمـاج الشرطـة الجزائريـة في جهـاز الأمن الفرنسي حتى لا تتجـاوزه الأمور . وأخذت السلطات تفكر بصفة جدية في قصف جبـال الأوراس وتتهيـأ لإعلان حالة الطوارئ وفتح المحتشدات .

ردود الفعل في الجزائر :

إن النزعة القومية في الجزائر المستقلة ترمي إلى تشويه صورة الجزائر كما كانت قبل جويلية/تموز 1962 لدى الأجيال الجديدة . فالمقارنة بين حالة الشعب الجزائري في العهد الإستعماري وبين الميز العنصري في جنوب افريقيا ووضعية الشعب الفلسطيني كثيراً ما ترد على لسان المسؤولين . وفي الحقيقة فإن الإعتماد على القياس والمقارنة في مثل هذه الحال لا ينبني على منهجية صحيحة . فالأوربيون والجزائريون لم يكونوا يشكلون معسكرين منغلقين يواجه أحدهما الآخر بل إن فرص اللقاء والتواطؤ بينهم كانت كثيرة . وإن كان الإطار الاستعماري يحدّ من هذه العلاقات ويبدل فحواها أحيانا .

فبالنسبة لعدد كبير من فرنسيي الجزائر واليهود المستوطنين بها منذ عهد بعيد وللإسبان والمالطيين والإيطاليين الحاملين للجنسية الفرنسية ، كانت كلمة «فرنسا» تعني عالماً آخر . وهي بالنسبة لهم جميعا ضمان للتمتع بامتيازات خاصة فحسب ولكن بلدهم يبقى الجزائر .

•الأوروبيون :

كان أنصار الجزائر الفرنسية من بين الأوروبيين يتمتعون بقاعدة اجتماعية عريضة وكان المتطرفون منهم يشكلون فصيلة متصلبة معارضة لكل تغيير معارضة شديدة . وقد لاحظ ج . هنري دوزون بأنهم «لا يمثلون عددا وافراً ولكنهم يثيرون حولهم ضجة كبيرة»[27] . إلا أن هذا التأكيد لا يتماشى مع الواقع . فإذا كان هذا التيار لم ينم بسرعة رغم تجاوبه مع ما يخالج نفوس أبناء الطبقات الوسطى من الأوروبيين فذلك راجع إلى أن أفكارهم قد تبنتها الحكومة الفرنسية التي كان برنامجها يتمثل فيما يلي «القمع أولا ثم الإصلاحات بعد ذلك» .

وفي مرحلة ثانية وعندما ستتضاءل قوة الضغط التي تشكلها «الأقدام السود» وسيصبح تأطير القوى المعادية للنظام القائم ضرورة ملحة ، فإن المتطرفين سيبرزون كأكبر الفئات تمثيلا . لكن الأوضاع مازالت بعيدة كل البعد عن

ذلك في نوفمبر 1954 إذ أن ما يقوم به روني مايير ومجموعته البرلمانية المتواضعة - ثلاثون نائبا - وتعبئة جامعة رؤساء البلديات الأوروبيين بالجزائر والتأثير الذي كان لعضو مجلس الشيوخ بورجو على جهاز الأمن كان كافيا في ذلك الوقت .

كان زعماء المعمرين بصفة عامة يعزون الإنتفاضة الى **حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية** أما جريدة «Journal d'Alger» التي كان يشرف عليها بلاشيت عضو مجلس الشيوخ وصديق كاتب الدولة جاك شوفالي فقد ركزت على مسؤولية «مصالي الحاج ذلك الدكتاتور العجوز الذي يريد انهاء عهده في بركة من الدماء حتى يحافظ على سمعته بين المناضلين» (5 نوفمبر) .

وكان المعمرون يطالبون بالإبقاء على الوضع القائم بالجزائر وبحظر الحزب الشيوعي وبإيقاف المسؤولين عن الأحداث أي زعماء الحركة الوطنية كلهم وتسليط عقاب صارم على كل من يقبض عليه حاملا للسلاح ورفض كل مشروع عفو عام . ويذهب البعض منهم الى حد التلويح بسحب الثقة من الحكومة إن هي لم تحقق هذه المطالب . وكانت ترتفع هنا وهناك أصوات تنادي بتكوين مليشيات ، لكن بدون جدوى . أما السلطات الإستعمارية فقد قامت بتكوين قوات اضافية محلية من «القوم المتطوعين» في عدة مراكز من الأوراس وذلك خلافا للقوانين . وهكذا فان غلاة الإستعماريين هم الذين كانوا يتصدرون الأحداث . غير أن الأمانة التاريخية تفرض ألا نحصر موقف الرأي العام الأوروبي في ردود فعل المتطرفين . فهناك تصريحات كانت تعبر عن الحيرة تجاه المستقبل وعن الحرص على العدالة وحتى عن رغبة صادقة في وضع حدّ للوضع الإستعماري .

ولعلّ أوضح تعبير عن الشعور بالحيرة تجاه المستقبل ما صرح به الدكتور سلاكرو أثناء مداولات المجلس الجزائري في شهر نوفمبر : «إن المغامرة الكبرى قد بدأت وكلنا نعلم ذلك (...) وإنني أقولها من أعلى هذا المنبر «إنني خائف !»

فثلاثة أجيال من عائلتي يرقدون تحت أرض الجزائر ولا أريد بأية حال أن أتخلى عنهم . أقولها صراحة لمن يريد أن يسمع كلامي ، إنني أفضل «الموت» على أن أغادر هذه البلاد» . ولكن هذا الموقف لا يقود صاحبه إلى التفكير في القضية وأخذ طموحات الشعب الجزائري بعين الإعتبار . في هذا الإتجاه سوف تقوم الكنيسة المسيحية بخطوة متواضعة حيث ستؤكد «أن شرطا أساسيا من شروط السلم الحقيقية يكمن في تحقيق العدالة الاجتماعية» .

أما التقدميون الأوروبيون فقد كانوا يعملون على تقريب المجموعتين ، الأوروبية والجزائرية ، لكن بدون تبني أهداف الوطنيين الجزائريين . وكان هؤلاء التقدميون الذين غالبا ما نجدهم في صفوف الجمعيات الكاثوليكية يركزون خاصة على التنديد بالقمع . ولكن هذه القوة الأدبية والإيديولوجية لم تكن متجذرة في الجماهير الواسعة وبالتالي فلم يكن بإمكانها التأثير على مجرى الأحداث إلاّ في صورة تثير الرأي العام الفرنسي للقضية الجزائرية وهو ما لم يكن وارداً إذاك . وبالإضافة الى هذا فقد كان خصومهم يتهمونهم بكونهم حصان طروادة وكان ذلك سببا في شل نشاطهم وفي غياب أي صدى لما كانوا يدعون اليه من قيام كيان جزائري مستقل عن المجموعات العرقية .

•الجزائريون :

عندما وقع الإنشقاق في صفوف **حركة انتصار الحريات الديمقراطية** في صائفة 1954 لم يكن الرأي العام الجزائري يتصوّر اندلاع الأحداث التي سوف تكون الجزائر مسرحا لها . فقد كان الشعب يعيش حالة من القلق والبلبلة من جراء هذه الإنقسامات ولم يكن المستقبل يلوح له واضحا . وبالتالي فلم يكن مهيئا لتأييد أي عمل ضدّ فرنسا إذ كان ينقصه لذلك البرنامج الواضح . أما من كانوا يعتبرون أنفسهم من النخبة فإنهم كانوا يؤكدون بأن الشعب الجزائري لم يكن يملك لا الإستعداد ولا الحرية اللازمة للقيام باختيار منهج ما . ومع ذلك فهذا ما سيفعله الشعب ، لكن ليس بالسرعة التي يدعيها التاريخ الرسمي . وفعلا فان انضمام الجماهير الى الكفاح المسلح لا يظهر كحركة جماعية تلقائية إلا من خلال كتابة مغلوطة ومبسطة للتاريخ .

إن الجزائريين لم يشعروا إلا في سنة 1955 بأنهم دخلوا في خضم المعركة . فالحركة الوطنية قد تطورت بتطور الكفاح المسلح . ومن الخطإ أن نعتبر جزائري 1954 كجزائري 1957 أو 1961 ومن باب المغالطة أن لا نبرز كل جوانب الواقع الجزائري المعقد والذي يختلط فيه عنصر التضحية والملحمة بقلة الحماس للكفاح . فحسب ما يورده إيف كوريير كان «أول رد للسكان المسلمين عدم الإكتراث»[28] . وفي هذا القول تعميم لا يأخذ بعين الإعتبار الفروق بين مختلف المناطق . ففي جبال الأوراس مثلا كان انضمام السكان جماعيا وكان المجاهدون «كالحوت وسط الماء» .

أما في أوساط المهاجرين الجزائريين في فرنسا فقد قوبلت عمليات غرة نوفمبر بارتياح واعتبرت كبداية للثورة والتحق العديد من مناضلي **حركة انتصار الحريات الديمقراطية** ، ومنهم العقيد عميروش ، بأرض الوطن . ومع هذا فان الجزائريين كانوا عموماً مترددين ومتخوفين من المغامرة . وهذا ليس بالغريب فقد كان أبناء الجزائر يتأرجحون بين الرغبة في وضع حد للاستعمار تحت راية جديدة وبين الخوف من أن تقود هذه النزعة التجديدية التي ينادونها بكل جوارحهم إلى عمل فاشل كما وقع في سنة 1945 . ثم أن الطابع السري للحركة التي انطلقت في غرة نوفمبر كان يثير أكثر من نقطة استفهام ويطرح كم من سؤال . من ذلك أن عملية جمع التبرعات لفائدة المقاومة لم تعط نتائجها إلا حينما تولى المصاليون القيام بها سواء في الجزائر في أوساط عمال النقل أو في فرنسا .

ولم تكن مراكز المقاومة في أغلب أنحاء البلاد تلقى العون اللازم والحماية الضرورية من قبل السكان . وكان انعدام الأمن هو حظ المقاومين اليومي . ولعل أبرز تعبير عن هذه الوضعية ما نجده في لغة ذلك الوقت . فلم يكن الناس يتحدثون الا على «المناطق الخطيرة» وعن «الخونة» وعن «المخربين» وكانت بعض التقارير العسكرية التي أعدتها قيادة منطقة وهران تفيد أن مجموعات من الفلاحين تقوم بمطاردة المقاومين وإيقافهم[29] .

غير أنه سرعان ما حصل تطور في الأذهان . ففي ديسمبر/كانون الأول

1954 رفض عمال ميناء وهران افراغ شحنة من الأسلحة الموجهة للجزائر ، وفي منطقة القبائل لاحظ حاكم تيزي وزو حصول تحول كبير «لم تكد تمر ثلاثة أشهر على بداية الحوادث لنلاحظ تغييرا في كلام الناس . فهم الآن يتعاطفون مع المقاومين (...) أما عن أطفال المدارس فحدّث ولا حرج . فالجيل الثاني منهم صار يتأثر بعبارات الحقد التي يسمعها حوله . ويبرز ذلك في شكل صور لمصالي يرسمونها على كراريسهم (أنظر تقريري المؤرخ في 4 جانفي/كانون الثاني 1955) أو في شكل سؤال يطرحه تلميذ على معلمه ليعرف أين يوجد علم الجزائر بين الاعلام الموجودة في قاموس لاروس .» (فيفري/شباط 1955)[30] .

•الأحزاب الوطنية

إن أزمة **حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية** قد أدت الى تجميد مسألة الوحدة بين الأحزاب . كان كل شق يعتقد أن الحركة المصالية قد ضعفت ويحاول أن يستفيد من ذلك . **فالحزب الشيوعي** مثلا كان ينوي اعادة فرض سيطرته بصفة مطلقة على النقابات وتعزيز حضوره في الأوساط الطلابية حيث كان يحقق تقدما مطردا[31] .

وكان **الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء** مبتهجين للمشاكل التي يتخبط فيها حزب «العامة» أي الحزب المصالي وكانا يحلمان بضم الفئات الوسطى الى حركتيهما .

أما في فرنسا ، فإن الحزب الشيوعي الفرنسي قد عاد الى الحلم الذي طالما راوده في فرض هيمنته على الجالية الجزائرية ، ولتحقيق غرضه هذا اتصل بمحمد يزيد عن طريق ر . تيفنان لسبره حول إمكانية تكوين منظمة سياسية . لئن كانت حسابات الحزب الشيوعي خاطئة في الإعتماد على محمد يزيد فإن هذا الأخير كان يعلم حق العلم مدى الإشعاع الذي كان له في أوساط الهجرة . فطاقة التعبئة التي أصبح يملكها المصاليون بعد مغادرة خصومهم «المركزيين» للحزب قد تضاعفت وصار الشارع لهم وحدهم في الجزائر كما في فرنسا .

ففي بـاريس مثـلا وبمنـاسبـة عيـد الشغـل في غرة مـاي/أيـار 1954 تجـاوز المصاليون لجنة التنظيم التابعة للكنفيدرالية العامة للشغل (CGT) وبالرغم منها تدخلوا لبسط القضية الجزائرية .

وفي المدن الجزائرية قام المصاليون بمنع توزيع جريـدة «La Nation Algerienne» (الأمة الجزائرية) الناطقة بلسان المركزيين كما قاموا بتحركات عديدة لإرغـامهم على إرجـاع أموال الحـزب التي بقيت بـذمتهم . ومجمـل القـول أن الإنشقـاق في صلب **حركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة** لم يضـع حـداً للصراع بين مختلف الفئات ، بل بالعكس ستتخذ هذه الصراعات أشكالا جـديـدة في اطـار الوضع الجديد[32] .

كيف واجهت الأحزاب الجزائرية الانتفاضة ؟ باستثناء المصاليين الذين كانوا يعتزمون احتواء الحركة ، فوجئت التنظيمات الأخرى بانـدلاع الأحـداث وكان موقفها منها موقفاً محـافظـاً . ولا غرو فـإن هـذه التنظيمـات كانت تشعر بـأن نفوذها في خطر وبالتالي لا يمكنها أن تزكي مبادرة اتخـذت خـارجهـا وبـدون مـوافقتهـا . واذا أردنـا أن نفهم مـوقف زعمـاء جبهـة التحرير من الأحـزاب الجزائريـة القـديمـة ومن قـادتهـا يجب أن نضع نصب أعيننـا موقف هـؤلاء من الثورة ، لا فقط من خلال تصريحاتهم . فما يشد الإنتباه في هذه المرحلة الأولى هو اجمـاع كل الأحـزاب على التشكيـك في نجـاح الثـورة . فمن الشيـوعيين الى المركـزيين مروراً بـالاتحـاد الـديمقراطي للبيـان الجـزائري والعلمـاء ، كانت العبـارات المستعملـة لنعت الثـورة هي «استفـزاز» ، «مغـامرة» ، «عمليـة انتحارية» . ولم يكن أي مسؤول من مسيري هذه الأحزاب يعتقـد في مستقبل الثورة . كلهم كانوا ينتظرون انهيارها ويعتبرونه حتميا لا مفر منـه . ذلـك أن جميعهم قد عاش أحداث 8 ماي/أيار 1945 وبقيت ذكراهـا مـاثلـة في أذهـانهم وكانوا يخـافون وقـوعهـا مرة أخرى . لـذا فهم يرفضـون بحـذر الأمر الـواقـع ، مجندين طاقاتهم للتنديد بالقمع المسلط على الأهـالي . ومع أن مجوداتهم لم تكن عديمة الجدوى إلا أنها لم تأت بالنتائج المرجوة . وهكذا فـإنهم قـد استغلوا حتى النهاية الإمكانيات القليلة التي توفرها الشرعيـة لمنع تقتيل السكان في الخفـاء .

ثم جاء دورهم لتشملهم موجة القمع فأوقف المركزيون في ديسمبر/كانون الأول 1954 ، ووقع حظر الحزب الشيوعي في سبتمبر/أيلول 1955 . وفي أواخر سنة 1955 قرر الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وقف التعامل مع السلط بعد أن شارك في انتخابات جهوية بمعية الحزب الشيوعي . أما العلماء فإنهم لم يغادروا الساحة إلا في سنة 1956 .

•الإداريـــون :

إذا استثنينا برقيات الولاء والتأييد التقليدية والتي كانت تحرر في مكاتب الولاية العامة بالجزائر ، يمكن القول بأن الجزائريين المتحالفين مع الإستعمار لم يكونوا يتقدون حماساً للدفاع عن «المآثر الفرنسية» . ففي منطقة الأوراس كان الموقف الغالب لهذه الفئة هو الترقب والإنتظار . أما في البرلمان الفرنسي وفي المجلس الجزائري فإن النواب «المفبركين» كانوا يعبرون عن تعلقهم بالارتباط مع فرنسا وينددون بكل انفصال عنها . وقد حاولوا الاستفادة من الأحداث للحصول على تحسينات في الوضع الاجتماعي ، من ذلك أن الدكتور بن جلول مثلا كان يقرن العودة إلى الهدوء بإلغاء الحيف والتفاوت فيما كان عمار نارون يرى ضرورة تدخل الدولة كحكم بين المجموعتين الأوروبية والمسلمة . لكن بعد بضعة أشهر حصلت تحولات جذرية في مواقف البعض وفي هذا الإطار يندرج التصريح الذي أدلى به نائب قسنطينة ، مصطفى بن محمد ، وهو يلخص نظرة كانت شائعة في الأوساط الجزائرية التي كانت تأمل أن تصبح يوما فرنسية : «(...) إن القمع المسلط على الأهالي كان شديد الوطأة إلى درجة أنه أصبح من الصعب عليهم اعتبار أنفسهم فرنسيين . إن الأهالي لم يعودوا يستمعون إلينا . لقد فقدوا الأمل فيما كانوا يأملونه منذ عهد غير بعيد وتبنوا مطالب أخرى»[33] .

•الحزب الشيوعي الجزائري :

إن تقديم المواقف الحقيقية للحزب الشيوعي الجزائري ليس بالأمر الهين . ومما يزيد في تعقيد الأمور أن المؤرخين الرسميين للحزب ، في محاولة منهم لجعل المستقبل لا يتضرر من الماضي ، قد قدموا تأويلاً خاصاً لموقفه من الإنتفاضة . فجاءت تفاسيرهم مركزة حول ثلاثة محاور :

1 – في مرحلة أولى حاول قادة الحزب الشيوعي الجزائري إيهام العموم بأن الكفاح المسلح كان مدرجا في برنامجهم ، وهذا ما يؤكده مثلا خلفة بوعلام ، الأمين السابق للحزب ، لمحمد تقية «أتذكر أننا في احدى اجتماعات المكتب السياسي قد أكدنا على ضرورة اعداد الأرضية السياسية للكفاح المسلح»[34] . لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا لم يقع إعلام الرأي العام بهذا العنصر البالغ الأهمية إلا عشرين سنة بعد نهاية حرب التحرير ؟ وانطلاقا من أي تحليل للوضع السياسي توصل الحزب الشيوعي إلى هذا الموقف ؟ إننا لا نعلم أي شيء عن ذلك . فالبحث عن التبريرات هو الذي قاد مؤرخي وكتاب الحزب الشيوعي أكثر من أي شيء آخر[35] .

2 – من بين الطرق الأخرى التي يعمد إليها الحزب ابراز بعض مناضليه الذين لعبوا دوراً هامشيا مثل فروف والعمراني أو الذين اعتبروا مغامرين كوريس بلان والحال أن مواقفهم في نوفمبر 1954 كانت تتعارض تماماً مع مواقف قادتهم . وفي الحقيقة فإن الإشعاع الذي اكتسبه هؤلاء داخل الحزب يعود الى الدور الذي كان لهم بعد 1954 وليس العكس .

3 – أخيراً يلجأ الحزب إلى استعمال أساليب ملتوية تتمثل في الإستشهاد بنصوص منقوصة وخارجة عن اطارها وغير محددة زمنيا الأمر الذي يحدث بلبلة لدى غير المختصين وحتى لدى الباحثين الذين يكتفون بمصادر ثانوية[36] .

إن الحزب الشيوعي ، شأنه في ذلك شأن بقية الأحزاب الجزائرية ، يفسر الإنتفاضة «بسياسة القمع الإستعمارية وكبت الحريات والإستغلال» ويذكر «بأن لم يحل ولن يحل أبدا القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يطرحها اليوم تطور حركات التحرر الوطني في العالم المعاصر» . لكن في نفس الوقت وفي حين أن موقف فرنسا والسكان الأوروبيين في الجزائر هو الذي جعل الجزائريين يلجأون إلى الكفاح المسلّح ، كان الحزب الشيوعي يرى أن أفضل طريق لتجنب إراقة الدماء ولإقامة مناخ يسوده السلم والوئام يتمثل في

الإستجابة لمطالب الجزائريين وذلك بالبحث عن حلّ ديمقراطي يضمن مصالح كل المتساكنين بدون تمييز عرقي أو ديني ويأخذ بعين الإعتبار مصالح فرنسا[37].

لكن خلف هذه الواجهة التي يظهر فيها الحزب الشيوعي وكأنه حزب يجمع كل القوميات ويتخذ موقفا موحدا فإن هنالك في الحقيقة اختلافات كما يؤكد ذلك جاك جوركي : «كان أوّل رد فعل للمسيرين الفرنسيين للحزب الشيوعي سيئاً مثل موقفهم إزاء مجزرة قسنطينة . وفعلا ففي صبيحة 2 نوفمبر انعقد اجتماع لإطارات الحزب في منطقة الجزائر العاصمة بالمكتبة التابعة له (...) ولم يكن كل أعضاء الهيئة حاضرين إذ أن العربي البوهالي كان مختفيا من أجل تتبعات تستهدفه ، وكان أحمد عكاش غائباً أيضا . وكان من بين الحاضرين كابليرو وأندري موان وقدّم هذا الأخير تحليلا للوضع أمام جمع من الإطارات يبلغ الثلاثين شخصا (...) وأكد على احتمال أن تكون الحوادث «استفزازات» تسعى السلط من ورائها الى شن حملة قمع جديدة شبيهة بتلك التي وقعت سنة 1945 . ولهذا فهو يوصي بتوخي أقصى ما يمكن من الحذر»[38].

ومعنى هذا ، في اللغة الستالينية ، الحيطة . ثم إن فكرة الاستفزاز طرحت من جديد في اجتماع اللجنة المركزية المنعقد يوم 4 نوفمبر/تشرين الثاني 1954 ولم يقتنع بها ممثلو الأوراس ، فروف والعمراني . والواقع أن الحزب الشيوعي لم يكن يعتقد إذاك أن الإنتفاضة سيكتب لها النجاح وستمتد رقعتها وكان يتحدث عن الأعمال الفردية التي «هي تعبير عن عدم الثقة في الجماهير» ويقدم كبديل لها «العمل السياسي» . وشنت صحافته حملة كبيرة ضد القمع وذلك في حدود الشرعية رغم انتشارها المحدود . وفي أفريل/نيسان 1955 سوف يشارك الحزب مرة أخرى في الانتخابات المحلية ، لكن موقفهم من الكفاح المسلح بدأ يتغير . وكان ذلك في نفس الوقت الذي بدأ فيه المركزيون والإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري يراجعون موقفهم من النظام الإستعماري . وقد كتب هنري علاق في هذا الصدد يقول : «في نهاية ربيع 1955 بدأ زعماء الحزب الشيوعي يتأهبون للدخول في السرية . وكان لزاماً عليهم تبعا لذلك

وضع أجهزة الطباعة في مكان أمين حتى يضمنوا إعداد نشرياتهم»[39] . وهكـذا نرى حزب الطليعة يمشي خلف الجماهير .

•المركزيـون :

خلال الفترة التي تلت الإنشقاق داخل حركة انتصار الحريات الـديمقراطيـة كانت معنويات المركزيين في الحضيض . فبالأمس القريب كانوا زعماء مبجلين وأصبحوا بين عشية وضحاها محل احتقار الطبقـات الشعبيـة وسخطهـا . ولهـذا السبب كانوا يكنون لمصالي كراهية بالغة وكان هو يبادلهم نفس الشعور .

جاءت الانتفاضة بالنسبة للمركزيين في وقت غير ملائم . فقـد توجـه اثنـان من جماعتهم وهمـا حسين لحول ومحمد يزيـد الى القـاهرة على أمل إقنـاع آيت أحمـد وبن بـلا وخيضر بتـأخير الانتفـاضـة وانتظـار ظرف أفضـل للشروع في الكفـاح المسلـح . وكان اهتمامهم مركـزاً أولا وبـالـذات على تـدويـل القضيـة الجزائرية في أقرب الآجال وكان مصـالي يشـاطرهم هـذا الاهتمام . ولكنهم على عكس الزعيم الجزائري كانوا ينوون قبل تحقيق هـذا الهـدف عقـد مـؤتمر يجمـع الأحـزاب والشخصيـات الـوطنيـة . وكما كان يظن عبـد الرحمن كيـوان فـإنهم يعتقـدون أن الوقت قـد حـان لتجميع الطبقـات الـوسطى . غير أنهم في نفس الوقت لم يكونوا يرغبـون في قطـع الصلـة بـالمتطرفين الـذين كان تـوجههم إلى الطبقات الشعبية وعلاقتهم بها أمتن ، وذلك حتى لا يقع خلطهم بـالاصلاحيين من جماعـة الاتحـاد الـديمقراطي للبيـان الجزائري . ولقـد فـاجـأتهم الانتفـاضـة المسلحـة فـأفسـدت مشـاريعهم وهم الـذين كانـوا يعتقـدون أن بـوسعهم تقيم إمكانيات نجـاح الكفـاح مسبقـاً وبـدقـة . وأمـام تطور الأحـداث لم يكن لهم موقف موحّد بل جاءت ردود فعلهم مشتتة حسب وضعية كل واحد منهم .

ففي القـاهرة لحول ويزيـد نفسيهما أمـام الأمر الواقع . فـا كان منهما إلا أن دخلا في خدمة جبهة التحرير ، مؤجلين مسألة قيادة الثورة إلى مـا بعـد . ولم يكن أي منهما يعتقـد أن مؤسسي جبهـة التحرير سيقودون السفينـة الجزائريـة بسلامة .

وأما بفرنسا فإن بولحروف وبن محل كان في حيرة تامة من أمرهما وكانا كقائدين بلا جيوش . ويذكر أمير بن عيسى أنهما فكرا في توحيد الاتجاهات السياسية ، ولكن المحادثات التي أجرياها مع المصاليين لم تؤد الى نتيجة[40] ، فغلب التشاؤم على نظرتها للقضية الجزائرية . ومما زاد في تدهور معنوياتها تلك العزلة التي كانا يعيشانها نتيجة انعدام الصلة مع الجزائر والقاهرة . وكانا يعارضان بشدة فكرة الحزب الواحد إن لم تشارك في تكوينه كل القوى السياسية المتواجدة على الساحة . وقد بعثا نشرية بعنوان «العمل الجزائري» للتشهير بالقمع والمطالبة بفتح مفاوضات مع الممثلين الأكفاء للشعب الجزائري . وفي سنة 1955 إلتحقا بجبهة التحرير «لإعانتها على التسيس» .

وفي الجزائر كان المركزيون متحرجين من وجود لحول ويزيد في القاهرة وكانوا يخشون أن يعرضهم تحالفهم مع المتطرفين ، ما بين مارس/آذار وجوان/حزيران 1954 ، الى القمع . وكانوا يعتبرون غرة نوفمبر انقلابا داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية ويتهمون بن بلا بأنه وراء ذلك . ولعل أصدق تعبير عن موقفهم هو تلك النكتة التي يتناقلونها في الجزائر وبين المهاجرين في فرنسا والتي تقول أن مؤسسي جبهة التحرير «قد أشعلوا النار في الجزائر لكن القدر موجود في القاهرة . لذلك فإن الأكلة لن تكون جاهزة أبدا . وكان الحذر الشديد يغلب على تحركاتهم الشيء الذي زاد في حيرة أتباعهم القليلين ، الذين كانوا يعتبرون الدخول في المعركة أفضل طريقة لإنقاذ الحركة . أما الأهداف الفورية التي يدافع عنها الزعماء المركزيون فكانت متواضعة جداً وقد بينوها في رسالة مفتوحة الى وزير الداخلية الفرنسي فرانسوا ميتران ممضاة من طرف بن يوسف بن خدة وأحمد بودة ومصطفى فروخي . وفي هذه الرسالة يعتبر الموقعون أنه من «الضروري والأكيد اتباع سياسة تهدئة تقوم على وضع حد للقمع ووقف التتبعات الجارية . إن إطلاق سراح جميع المساجين السياسيين وسن عفو تشريعي عريض والاعتراف لكل الجزائريين بحقهم في ممارسة كل الحريات الديمقراطية التي يخولها الدستور الفرنسي هي الاجراءات الأولى التي يتعين اتخاذها»[41] . أما على المدى البعيد

فـإن المركزيين كانوا يفكرون في تكوين تجمع عريض يعمل من أجل الحصول على الاستقلال الداخلي فهم كانوا مقتنعين أن فرنسا لن تقبل أبدا التفـاوض مع جبهة التحريـر . وانطلاقـا مـن هـذه الرؤيـة للقضيـة الجزائريـة ستنشـأ تلـك الفكـرة التـي طالمـا استغلتهـا الصحافـة والقائلـة بتبـايـن المواقـف بيـن العسكريـين والسياسيـين .

•الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري :

في كتاب نشره سنة 1980 يقول فرحات عباس متحدثا عن انتفاضة نوفمبر / تشرين الثاني أن الحادثة لم تفاجئه وأن الشعب كان يرغب فيها[42] . ولتأكيـد صـدق قـولـه ، يـذكـر أنـه تلقى فـي ربيـع 1954 نشريـة «Le Patriote» (الوطني)[43] كما يذكر محادثـة جرت بينـه وبين خيضر بـالقـاهرة في شهر جويلية / تموز حول توحيد صفوف الجزائريين في حزب واحـد ... الخ . إن هذه الشهـادة تحوي عنـاصر صحيحـة وأخرى لا نصيب لهـا من الصحـة بل مستمدة من النزعة الإجماعية التي سنتهـا جبهـة التحرير والتي أصبح كل واحـد يسير على مقتضاها لتأويل التاريخ .

أ) أما العناصر الصحيحة فتتمثل في أن فرحات عباس كان يشعر بـأن تجميـد الـوضـع السيـاسي لا يمكن أن يـؤدي إلا الى العنف . وكان هـو يعـارض هـذا العنف قبل نوفمبر وبعده ، ولو أنـه اعترف ضمنيـاً أن موقفـه كان يتعـارض مع رغبات الشعب . فقـد كتب في 12 نوفمبر 1954 يقول : «إن موقفنـا واضح لا شبهة تعتريه (...) إننا مقتنعون أن العنف لن يحل أي مشكل»[44] .

ب) أما العنـاصر غير الصحيحـة فتكمن فيما يلي : إن الربـط بين المحـادثـة مع خيضر وانتفاضة غرة نوفمبر يمثل خلطاً بين معطيات لا علاقة مبـاشرة بينهـا . فخيضر كبقية زعماء حزب الشعب الجزائري كان يريد توحيد كل الوطنيين في حزب واحد لكن بشرط أن يكون الهدف هو الاستقلال والوسيلة هي الكفـاح المسلّح .. وكان عباس يعلم هذا حق العلم . ولهذا فإن ما قاله خيضر في جويلية لا جديد فيه والاستشهاد به مغالطة . فسـارج برومبرجي على حق حين يقول

بأن «البرجوازية المسلمة في المدن (...) قد تعودت وألفت النظام الاستعماري الى درجة أنها لم تعد تدرك هشاشته»[45] .

وهكذا فإن ممثليها لم يفاجأوا فحسب بالانتفاضة بل روعتهم في الأول ثم تطور موقفهم شيئاً فشيئاً الى حدّ اعتناق أطروحات أولائك الذين كانوا ينعتونهم بالمغامرين .

كان همّ زعماء الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الوحيد هو أن يلعبوا دور رجال المطافىء لإخماد الحريق واستغلال الوضع الذي خلقته جبهة التحرير للحصول على تنازلات من فرنسا . فموقف الاتحاد يتعارض في نقاط أساسية مع جبهة التحرير .

*يطالب هذا الحزب على المستوى السياسي بتكوين دولة مرتبطة بفرنسا لكنه مستعد في مرحلة انتقالية للاكتفاء بتطبيق قانون 1947 .

*يرفض الاتحاد الديمقراطي مطالب جبهة التحرير فيما يتعلق بأشكال التنظيم السياسي ولا يقر مبدأ الحزب الواحد .

*يعتبر الاتحاد أنه في صورة فتح مفاوضات مع فرنسا فإن الطرف الجزائري فيها لا يمكن أن يكون الا من ممثلين يختارهم الشعب في انتخابات حرة .

وإذا لم تثر هذه المواقف حقد زعماء جبهة التحرير ، باستثناء جماعة شمال قسنطينة[46] ، على فرحات عباس فذلك لأنه لم يكن منافسا خطيراً يحظى بتأييد الشعب . وهذا ما جعل الإتصالات بينه وبينهم سهلة خلافا لما كانت عليه مع المركزيين والمصاليين وستؤدي في النهاية الى التحاقه بجبهة التحرير بعد أن سبقته قاعدته الإجتماعية الى ذلك .

•جمعية العلماء الإصلاحيين :

إن العلماء بحكم احتكارهم اليوم للقطاع الثقافي والإيديولوجي[47] ينظرون إلى الماضي من خلال موقعهم الحاضر ويحاولون تقديم أنفسهم كالملهمين للثورة . وقد ساعد تهميش المؤرخين الناطقين بالفرنسية نتيجة تعريب التعليم العلماء على احتواء الذي لا ناقة لهم فيه ولا جمل .

فـالعلمـاء لم يتلقوا الإنتفـاضـة بفرح كبير ، ولعـل الشيـخ العربي التبسي الـذي اغتـالـه الإستعماريون سنـة 1956 هو الـوحيـد في صفـوفهم الـذي أدرك أن عهـد الشرعيـة ولّى ومضى وذلـك على الرغم من مـواقفـه التي يغلب عليهـا الحـذر ومن أفكاره المسبقة عن العناصر الراديكاليـة في حزب الشعب الجزائري . لكن فراسته السياسية لم تلق آذانا صاغية في وسط يتسم بـالخوف من العنف الثوري ويسيطر عليه الفكر المحافـظ . وهكـذا فقـد تمكن خصومـه من تهميشـه ومن جر الأغلبيـة وراءهم . فموقف هؤلاء يظهر من خلال مـا أجـاب بـه زعيمهم الشيـخ خير الـدين حين طلب منه الشيخ الحسين الميلي باسم جبهة التحرير إعانـة مـاديـة : «إننـا لا نريد أن نعتبر كأعداء ، لكننا حين تحالفنا في مـاي/أيـار 1945 مع حزب الشعب الجزائري في اطار منظمة أنصار البيان والحرية دفعنا ثمن تصرفـات هـذا الحزب . أمـا اليوم فـان الوضـع يختلف . إننـا لسنـا طرفـاً فيا وقـع . لقـد تحركتم وحـدكم فادفعوا الثمن وحدكم»[48] ، أما المؤرخ الجزائري أحمد نادر الذي يكن تقديرا كبيراً للعلماء ولا يمكن اتهامه بالتحيز ضدهم فقـد قـدم موقفهم كما يلي : «لم ينضم العلمـاء الى الثورة حال قيامها فلم يلتحقوا بها إلا بعد محاولات فاشلة وأمال مخيبة . (...) إن العلماء ينحدرون في أغلبهم من أصل بورجوازي وهم بطريقـة حيـاتهم الرغـدة والثقافـة التي يـدعونهـا بورجوازيون . فهل هنـاك من شبـه بينهم وبين أولائـك الفلاحين المعوزين الذين حملوا السلاح وصعـدوا إلى الجبل أو بينهم وبين أنصـاف البروليتـاريين الـذين ينشرون الرعب في المـدن ؟ وهـل بينهم وبين أولائـك العصاميين الذين تزعموا الحركة التحريرية من مقارنة ؟ وفي الواقع فـان الأمر لا يتعلق بتباين بين أشخـاص ينتمون الى طبقـات اجتماعيـة مختلفـة . إن مـا يفصل هؤلاء البورجوازيين المثقفين عن جبهـة التحرير وينفرهم منهـا هـو وجـود عـدة عنـاصر ينتمـون إلى الـوسـط الإجرامي في المـدن الكبرى داخلهـا . إن جبهـة التحرير ، وهي الـوريثـة الشرعيـة لحركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة التي احتضنت دائما أشخاصـا من مختلف المشـارب والأصنـاف (مخبري بوليس ، رجـال عصابات ، مجرمين قدامى ، انتهازيين ... الخ) ، قد استرجعت الهيـاكل القـديمـة لهذا الحزب واستوعبت الذين كانوا يشكلون اطاراته ومناضليه»[49] .

إن هــذه النظرة التي لا تخفي تحيزهــا الطبقي تعكس بكل صــدق موقف العلماء غداة الإنتفاضة لقد كانت خشيتهم من جبهـة التحرير كبيرة الى درجـة أن زعيمهم الشيـخ البشير الإبراهيمي الـذي كان بـالقـاهرة سـوف يحتمي بمصـالي لاتقاء شر هذه الحركة الناشئة والحال أنه لا يشعر نحوه بـأي تعـاطف . وكانت الفكرة التي تحركه هي تكوين «تجمع شعبي جزائري»[50] وقد جرت محـادثـات في هذا الشأن بينه وبين ابراهيم بيوض ممثل الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وأحمد مازرنة المسؤول عن العلاقات الخارجية للحركة المصاليـة . وكانت نقـاط الإلتقـاء بينهم تتلخص في رفضهم حـلّ منظماتهم لفـائـدة جبهـة التحرير وفي رغبتهم في العمــل المشترك وتكـوين جبهـة يحــافــظ فيهــا كل منهم على استقلاليته . أما على الصعيـد السيـاسي فـإن أهـداف العلمـاء كانت قريبـة من أهداف الإتحاد الديمقراطي فيما كانت أهداف المصـاليين شبيهـة بـأهـداف جبهـة التحرير .

•المصاليــون :

من المعلوم أنه عند اندلاع الإنتفاضة لم تكن الحدود بين الإتجاهـات المختلفـة داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية قد تباينت بصفة نهائيـة . فقـد كان كل واحـد من التيـارات الأسـاسيـة ، أي المصـاليون والمركـزيـون ، يحـاول أن يستميل المحايـدين . وفي هـذا الصـدد سـافر أحمـد مـازرنـة ومبـارك الفيلالي ، وكلاهما من أصدقاء مصالي ، الى القاهرة في 15 أكتوبر/تشرين الأول . وكانت المهمـة المـوكلـة اليهما هي اقنـاع كل من خيضر وبن بـلا وآيت أحمـد بـوجهـة نظرهما ودراسة امكانيـات تـدويل القضيـة الجزائريـة . وبعـد أيـام قليلـة من وصولها الى القاهرة خـاطبها خيضر هـاتفيـا لإعلامها بـانـدلاع الثورة . فكان رد مبارك الفيلالي : «إنه يوم أغر في تاريخ الجزائر» .

ولا ريب في أن المصاليين قد فوجئوا بـأحـداث نوفمبر ومع ذلـك فـإن أحـد إطاراتهم بمنطقة وهران قد تم اشعـاره قبل الأوان بـأن مجموعـة ممن كان يعتبرهم من مناضلي حزبه يتـأهبون للقيـام بـأعمـال تخريبيـة ولكن المسؤول الحزبي في الجهـة ، محمـد ممشـاوي ، لم يجـد الـوقت الكافي أو لم يعرف كيف يستغـل تلـك

المعلومـات . ورغم الظروف التي انـدلعت فيهـا الإنتفـاضـة فـإن المصـاليين لم يتنكروا لها . فهي ، على مستوى أول ، تنـدرج ضمن كفـاحهم ضـد المركزيين وعلى مستوى ثان فإنهم كانوا ، حسب تعبير مصالي نفسـه ، يريـدون «تغـذيـة الثورة» لكن مع الحرص على عدم التفريط في قيادة المقاومة لفائدة غيرهم .

وفي هذا الإطار ، أصدر المكتب السياسي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية (الاتجاه المصالي) بيانا قارن فيه أحداث الجزائر بما يقع في تونس والمغرب وأكد البيان شرعية هذه النضالات وطـالب بضرورة ايجـاد حل مطـابق لطموحـات «شعب شمال افريقيا» .

وفي 8 نـوفمبر تـوجـه مصـالي الحـاج وكان تحت رقـابـة البـوليس الى الشعب الفرنسي والى الطبقة العاملة الفرنسية مادّا لهم «يد الاخوة» ومطالبا بوضع حـد للنظـام الإستعماري . ولم يتطرق لا الى قـانـون الجـزائر ولا الى الإستقـلال الداخلي . والى جانب هذه المواقف كان القادة المصاليون يحاولون التفـاوض مع زعمـاء جبهـة التحرير في منطقـة القبـائـل وفي القـاهرة حـول قضيـة قيـادة المقاومة .

*في 16 نوفمبر وبدوار كوريات من منطقـة القبـائل قـام علي زمّوم بتقـديم الحاج علي أرزكي عضو المكتب السيـاسي للحركـة المصـاليـة الى كريم بلقـاسم . وأثناء اللقاء طرح أرزكي مسألة القيادة السياسية للمقـاومـة ودور مصـالي فيهـا وكان كريم يدرك مدى شعبية الزعيم العجوز في صفوف المقاومـة لـذلـك فـإنـه اختار المراوغة بدل الإجابة الصريحة ، مبينـا أنـه مسؤول عسكري لا سيـاسي . وطلب من مخاطبه إعانة مادية وقد استجاب الحـاج علي لـذلـك وكان أن تسلم قـائـد المنطقـة الثـالثـة في شهر ديسمبر/كانـون الأول مليـونين من الفرنكات الفرنسية (سكة التاريخ) وقع جمعها من المهاجرين الجزائريين في فرنسا .

*في القـاهرة حـاول مـازرنـة أن يستميـل خيضر وبن بـلا وآيت أحمـد إلى الحركة المصالية ولكنه لم يوفق الى ذلك . وبعد العـديـد من المنـاقشـات صـدر بلاغ مؤرخ في 11 جانفي / كانون الثاني يقول بأن «لجنة تمثل جبهـة التحرير

الوطني تكونت بالقاهرة» وكان يحمل توقيع ممثلي كل الإتجاهات في حركة انتصار الحريات الديمقراطية سابقاً ، أي خيضر ومازرنة ولحول . هل يعني ذلك توحيد الحركة ؟ أبداً لأن ما كان يبدو لمازرنة كخطوة نحو تكوين جبهة موحدة تراقب قوات المقاومة كان له مدلول آخر بالنسبة لخيضر ، ألا وهو التحاق المصاليين بجبهة التحرير . لكن هذه الحيلة لم تأت بنتيجة .

في أواخر شهر جانفي بدأت العلاقات بين جبهة التحرير والمصاليين تتدهور . فقد كان كريم بلقاسم يطالب بالتحاق مصالي بالجبهة بدون قيد ولا شرط بينما بدأ أتباعه يفكرون منذ شهر مارس/آذار في تكوين جيش خاص بهم . وكان ذلك بداية صراع سيمزق الحركة الوطنية الشعبية في الأعماق . وفي هذا المجال فإن فرحات عباس على حق حين يقول : «لو انضمت المنطقة الثالثة الى «الزعيم» (مصالي) لكسب الرهان»[51] .

وفعلا فإن المنطقة الثالثة هي التي رجحت الكفة ضد مصالي وزعامته . وانطلاقا من هذا ستتوسع الهوة في الصف الشعبي وسيتعمق الخلاف بين جبهة التحرير وبين الحركة المصالية التي ستصبح «الحركة الوطنية الجزائرية» (MNA) وسيتم ذلك وسط مناخ يتسم بالغموض ويسيطر عليه العنف .

•جبهة التحرير الوطني :

«إنها ، أخيرا ، الإنطلاقة !» . لقد تنفس زعماء جبهة التحرير الصعداء عند اندلاع العمليات الأولى للانتفاضة وذلك رغم فشل الهجومات على الثكنات ورغم تخلي بعض العناصر ، وفعلا فقد بدأت المغامرة الكبرى التي كان يتوق إليها الجميع . لكن الفرحة لم تكن خالية من الشوائب . كان قواد المناطق ينتظرون ردود فعل مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية وموقف الأهالي ، مؤملين في قرارة أنفسهم أن يكون حكمهم لفائدتهم . ولكن شيئا من ذلك لم يقع . ففي منطقة وهران قام جماعة من الفلاحين بإبلاغ السلط عن وجود مجموعة من المقاومين . وهكذا تبدلت قناعة البعض ممن كانوا يثقون في الشعب وأصبحوا يعتبرون أن الكلمة الأخيرة تبقى لمنطق القوة .

بقيت إذن عـدة مسـائـل مطروحـة من بينهـا خلـق المنـاخ النفسـاني الملائم والحصول على تأييد الشعب وايجاد السلاح وتعويض ما أحدثـه القمع المحكم من نـزيف في صفـوف الإطـارات . ففي الفترة الممتـدة من نـوفمبر/تشرين الثـاني 1954 الى مارس/آذار 1955 تم ايقاف ثمانية من أعضـاء لجنـة الثمانيـة وعشرين وثلاثة من لجنة الستة . ولم يكن لجيش التحرير قيـادة موحـدة . وفي منطقـة وهران وبعـد تشتيت مركز المقـاومـة في تورفو وايقـاف وداح بن عودة التحق بن مهيدي بالناظور في الأرض المغربية . أما بيطاط فقد ظل تـائهـا في غـابـة شريعة زمنا طويلا قبل أن يلتحق بالجزائر العاصمـة حيث وقع في كمين نصبـه له البوليس بمساعدة محمـد بـالحـاج المعروف تحت اسم جودان أو سليمـان . ولئن نجت منطقته فيرجع الفضل في ذلك الى قادة المنطقة الثالثة . أما مناطق شمال قسنطينة والأوراس - نمامشة فإنها فقدت قوادهـا . هـذا مع وجود بوضيـاف ، المنسق بين المناطق ، بالخارج واعتزامه عدم الرجوع الى الجزائر . وبسبب هـذه العراقيل فان لقاء القادة ورؤساء المناطق الذي كان من المفروض عقـده يوم 5 جانفي/كانون الثاني لم يتم .

أما في القاهرة فإن آيت أحمد وخيضر وبن بلا ويزيد قد قـاموا بعمل جبـار لدى وسائل الإعلام وتجاه السفارات . وبفضل نشـاطهم اكتسـب كفـاح الشعب الجزائري بعـدا دوليـا . وهكـذا بقي المستقبـل يحمـل في طيـاتـه كل الآمـال ، خصوصا وأن وضعية المنظمات الشرعيـة أصبحت على غـايـة من الـدقـة نتيجـة اندلاع الثورة المسلحة ، وكان زعماء جبهة التحرير شاعرين بذلك ومجمعين على الوصول الى هدفين اثنين :

*استغـلال القمـع للسيطـرة علـى حركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة ومنـع كـل مـن المصاليين والمركزيين مـن احتـواء المقاومـة بـأي شكـل مـن الأشكـال .

*اخضاع الحياة السياسية لحركتهم .

في نوفمبر 1954 وبعـده بمدة طويلـة كانت وحـدة الوطنيين الراديكاليين بين

يدي جبهة التحرير وكان بوسع زعمائها وضع حد للأحقاد التي تولدت عن الانشقاق داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية .

إنه لمن الصعب رفض الفكرة القائلة بأن وحدة الشعب الجزائري كان ممكنا تحقيقها بأشكال أخرى غير التي تمت . إن قناعة زعماء جبهة التحرير بأنهم وحدهم القادرون على القيام بالثورة كانت السبب في النتائج الوخيمة التي انجرت عن هذا الاحتكار السياسي بالنسبة للمجتمع الجزائري ومستقبله . فهذا الاختيار جعلهم يتصرفون كمجموعة استولت على مقاليد السلطة قبل الأوان . ومن هنا فان منطق القوة سيحل محل النقاش ، فلم تكن الوحدة قائمة على الاقناع والشعور بوحدة المصير بل ناتجة عن التهديد بالانشقاق والخديعة والعنف .

هوامش

(1) Andri Siegfied, in L'année politique 1956, P.U.F. 1955, p. IX

(2) يوم 7 أفريل 1947 بعد مشاكسة بين مغاربة وعساكر سينيغاليين أطلق هؤلاء النار على السكان وقتلوا عشرات الأشخاص . يوم 9 أبريل ، في طنجة ، أثنى السلطان سيدي محمد بن يوسف (محمد الخامس) على القومية العربية وعلى الجامعة العربية . وقد عزل المقيم العام لابون وعوض بالجنرال جوان .

(3) أنظر مقـــال : Mendès France: "Velleités d'indépendance" et tentatives de rafistolage par Pierre Chanlieu – in Socialisme ou Barbarie ; oct-déc. 1954 - n° 15-16, p. 10.

(4) أنظر : Jacques Chevalier : Nous, Algériens ; Calmann-Lévy. p. 113 et suiv.

(5) أنظر : Rapport d'inspection du général Blanc (17 août 1954) in Nous, Algériens, p. 120-121.

(6) يقول مأمور شرطة سطيف في أحد تقاريره : «إن الشبان المنتمين الى الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري يعتبرون معارضة حزبهم للادارة غير كافية وتنقصها الصراحة وأنه مخطىء في بحثه دائما عن التصالح رغم الاهانات» . نشر في : Enquête du demi-siécle, 1954 .

(7) نذكر مثلا جمعية النساء الجزائريات الموالية – لحركة انتصار الحريات الديمقراطية والاتحاد النسائي الموالية للحزب الشيوعي الجزائري وكذلك اتحاد الشبيبة الديمقراطية والشباب الموالية للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري .

(8) أنظر : Ch. A. Julien, L'Afrique du Nord en marche. Juilliard, 1972, 3e édition, p. 263.

(9) أنظر : Jean-Claude Vatin, l'Algérie politique - Histoire et société - 1983, p. 278.

(10) أنظر : J.F. Lyotard, "Le contenu social de la lutte algérienne" in Socialisme ou Barbarie ; vol. V, déc. 1959-Fév. 1960 n° 29.

(11) (الجريدة الرسمية) Journal Officiel

(12) أنظر : France Observateur, n° 234, 4 nov. 1954.

(13) أنظر : "La guerre d'Algérie" in la politique anticolonialiste dans l'histoire du P.C.F., Elie Mignot, de l'institut ilannée Thorez. n° 26, mars-avril 1972. Cahiers.

(14) أنظر : Henri Alleg, La guerre d'Algérie, T.I., p. 458 et 459, Temps Actuel, 1981.

(15) أنظر : JORF, débats parlementaires, 12 nov. 1954.

(16) نفس المصدر .

(17) أنظر : Déclaration du PCF, 8 nov.1954.

(18) كان الحزب الشيوعي الأممي الذي ينشطه بيير لمبار (P. Lambert) يساند مصالي الحاج ، أما الجناح الترتسكي الآخر الذي يترعمه بيير فرانك فيقف الى جانب جبهة التحرير الوطني . لكن الحركتين كانتا تطالبان باستقلال الجزائر .

(19) أنظر : La Vérité, n° 543, 12 nov. au 26 nov. 1954.

(20) أنظر : «Sindbad le Marin» in Révolution prolétarienne N° 389.

(21) أنظر : JORF, débats parlementaires, 12 nov. 1954.

(22) أنظر الخطاب الذي ألقاه جاك دوكلو يوم 5 نوفمبر 1954 والمنشور في جريدة «L'Humanité» بتاريخ 6 من نفس الشهر .

(23) أورده : Yves Courrière : dans les Fils de la Toussaint, op. cit. p. 357.

(24) أنظر : JORF, débats parlementaires, 12 nov. 1954.

(25) من بين القادة الذين قبض عليهم : أحمد كيوان وسعد دحلب من المركزيين وعبد العزيز ومشاوي ويوجرودي من المصاليين .

(26 أنظر : La guerre d'Algérie, Edition Temps Actuels, Tome I, p. 472.

(27) أنظر : Yves Courrière, Les Fils de la Toussaint, op. cit., p. 379.

(28) أنظر : J. Chevallier : in P.U., Mémoires de notre temps, Celurane-Lévy, 1967, p. 379.

(29) ذكره : Benjamin Stora dans l'affrontement entre le FLN et le MNA - Conférence au groupe d'Etude et de Recherches Maghrébines, p. 29.

(30) في الجزائر العاصمة خسرت حركة انتصار الحريات الديمقراطية قيادة اتحاد طلبة شمال افريقيا وكان يمثله داخله بلعيد عبد السلام الذي خسر الانتخابات أمام تجمع يضم الحزب الشيوعي والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والعلماء ، أما في باريس فقد خسرت الحركة الأغلبية التي كانت لها .

(31) سيكون الصراع بين جبهة التحرير والحركة الوطنية الجزائرية .

(32) أورده : C. et F. Jeanson in l'Algérie hors-la-loi, Seuil, 1955, p. 221 et 222.

(33) أنظر : M. Teguia, L'Algérie en guerre, Office des publications universitaires, p. 150.

(34) في حديث خاص مع الحاج علي سنة 1969 أكد لي أن رفض الحزب الشيوعي الجزائري سنة 1951 الوقوف الى جانب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والعلماء وحركة انتصار الحريات الديمقراطية ضد الانتخابات كان مبني على تخوفه من النضال المسلح .

(35) إن كتاب هنري علاق ، «حرب الجزائر» أحسن مثال على ذلك .

(36) أنظر : «Liberté» الحرية عدد 4 نوفمبر 1954 .

(37) أنظر : Jacques Jurquet, Mouvement communiste et nationalisme en Algérie : chronologie commentée. Doc. ronéoptypé, p. 107.

(38) هنري علاق : المصدر السابق . ج 1 ص 478 .

(39) من مقابلة مع أمير بن عيسى في ديسمبر 1954 .

(40) هنري علاق : الجزء الثالث ص ، 514 و 515 .

(41) Ferhat Abbas : Autopsie d'une guerre, l'Aurore - (1980) p. 45-46.

(42) لسان حال اللجنة الثورية للوحدة والعمل .

(43) La République algérienne, n° 46, 12 nov. 1954.

(44) Serge Bromberger : Les rebelles algériens (1957) p. 7.

(45) لقد أعطى زينود الأمر بتصفية 15 ممثلا في منطقة قسنطينة . إذ كان يجهل أن عباس قد سلم أموالا جمعها من المنطقة الى جبهة التحرير في الجزائر العاصمة .

(46) يعود ظهور العلماء على الساحة بشكل مكثف الى ما بعد 19 جوان/حزيران 1965 .

(47) من شهادة ابن الشيخ الحسين الميلي (سبتمبر/أيلول 1983) أمام المؤلف .

(48) Ahmed Nadir : Le mouvement réformiste algérien... (Thèse 3e cycle, Paris 1968) p. 161-162.

(49) البصائر . عدد 302 سنة 1955 .

(50) F. Abbas : op. cit. p. 67.

الأصول المباشرة لغرّة نوفمبر

لا نريد أن نقدّم هنا وصفا دقيقاً للأحداث التي تمخضت عنها جبهة التحرير الوطني بل فقط إبراز الطرق التي تمكن بواسطتها التيّار المتطرّف داخل حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية والذي أسس الجبهة من الظهور بصفة مستقلة .

لقد كان حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية حزبا مفتوحاً لكل الجزائريين المسلمين ويتمتع بكل الخصوصيات التي تجعل منه حركة مقاومة . ورغم اختياره الكفاح المسلّح كمنهج بعد أحداث ماي 1945 ، فإن قادته لم يتمكنوا من تجاوز مرحلة النضال السياسي وإعلان الثورة المسلحة . ومنذ 1946 كان الصراع قائما داخله بين العناصر التي تخشى عاقبة العنف على المنظمة وبين المتحمسين للعمل المباشر تحمسا يشبه العبادة . وكان هؤلاء ينقسمون إلى قسمين ، قسم يريد الاعتماد على التعبئة الشعبية وآخر يرى في تكوين جهاز عسكري السبيل الأكثر نجاعة .

ظهور الاتجاه المنادي بالعمل المباشر

إن جبهة التحرير قد اخترت داخل حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية . لكن هذه الحقيقة وقع اخفاؤها منذ 1956 تحت تأثير النزعة الاجماعية السائدة . فحزب الشعب الجزائري كان ، منذ ظهوره ، التنظيم الذي استقطب العناصر التي تحلم بالاطاحة بالاستعمار بقوة السلاح . وغداة مجازر ماي/أيار 1945 تبلور في صلبه تيار يناهض العمل الشرعي .

فقد تفاعلت عدة عناصر - رومنسية العمل السري ، النقاش في حلقة مفرغة ، انسداد الأفق السياسي - لتجعل المناضلين يعيشون في انتظار «اليوم المشهود» .

كانت نظرة المتطرفين للمجتمع نظرة عضوية ضيقة ولم تكن مسألة التحالفات تهمهم كثيراً كما كانوا يناهضون مبدأ المشاركة في الانتخابات ويرون فيها اعترافاً ضمنيا بالنظام الاستعماري القائم ومدعاة لتقسيم الشعب وسببا في تأخير الثورة . وكان شعارهم المفضل «لا للتعاون» وهذا يعني بالنسبة لهم مقاطعة المؤسسات الاستعمارية ، التشهير بالمنظمات والأشخاص المتعاملين مع المستعمر . فهذا الموقف يخفي ، تحت غطاء جديد ، مضمونا قديما مستمدا من التراث الإسلامي . فهو الصيغة الحديثة للحديث المأثور : «لا تستضيئوا بنار الكفار» . فرفض التعاون يعني تطبيق مبدأ الفصل المطلق بين المجموعتين الجزائرية والأوروبية ، وقد لاقى هذا الشعار شعبية ونجاحا كبيرين لدى الجماهير الواسعة .

ولم يكن هناك في نظر هؤلاء المتطرفين الذين كان أول زعيم لهم الدكتور الأمين دباغين من هدف سوى الكفاح من أجل الاستقلال . أما ما عدا ذلك من مطالب سياسية أو اجتماعية جزئية فلا يمكن أن ينجر عنها غير الانحراف في مسيرة النضال . وفوق هذا كله فإنها تبقى من اهتمامات الدولة الجزائرية المقبلة . وخلاصة القول فإن نقاوة الغاية تحكم نقاوة الوسيلة ، كما أن الاستراتيجية والتكتيك يقيمان انطلاقا من منظور عسكري بحت . وكل شكل من أشكال النضال لا يكون ثمنه التضحية بالنفس فهو لا يقدم قضية الاستقلال قيد أنملة ، ومن هنا جاءت لفظ «السياسيون» التي كان المتطرفون ينعتون بها كل من يحاول تعليل محدودية حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية بأسباب سياسية أو اجتماعية وكانوا يفسرون فشل الانتفاضات السابقة بمعطيات عسكرية أساسا . فالمسألة تنحصر في رأيهم في بعث جهاز ثوري لتكوين الاطارات وإيجاد الأسلحة والذخيرة الضرورية . ومن هذه الزاوية يصبح الكفاح المسلح من أجل الاستقلال عبارة عن مجموعة

من التضحيات لفائدة قضية مقدسة . إن هذه الرؤية «الدينية» للنضال ضد الاستعمار كانت تلقى تجاوبا في المناطق التي لم يحتك فيها الجزائريون بالأوروبيين .

فكل خصائص المقاومة التي واجه بها رجال الطرق الصوفية الاستعمار كالتعليمية والامتحان والمهدوية .. الخ ، نجدها من جديد عند المتطرفين .

وليس من باب المبالغة القول أن قدماء المناضلين في الحزب كانوا يعتبرون المتطرفين مجموعة من الحالمين يمكن أن يجر نشاطهم البلاد نحو مغامرة لا تحمد عقباها . لكن في سنة 1946 وبعد سبع سنوات من السرية أصبحت الرومنطيقية الثورية تحتل المقدمة وصار من الأفضل احتواؤها لا مواجهتها .

وفي المؤتمر الأول (فيفري/شباط 1947) استطاع الجيل الجديد من المناضلين فرض تكوين منظمة خاصة[1] ذات طابع عسكري ومقابل ذلك تنازلوا لخصومهم من الرعيل الأول المطالبين بالسماح لهم بالمشاركة في الانتخابات . ولئن حصل اتفاق بالإجماع بين المناضلين فيرجع الفضل في ذلك الى هذا التنازل لا الى المشاريع المطروحة والتي كان يشخصها كل من مصالي الحاج والدكتور الأمين دباغين . كان مصالي يعتبر أن البرنامج السياسي ومشاركة الجماهير بصفة مباشرة هما مفتاح الحل بالنسبة للقضية الوطنية . لذلك فإنه كان يرى أن الاستخفاف بمسألة مستوى وعي الجماهير وقضية التحالفات يمكن أن يؤدي الى المغامرة . ومع ذلك فقد قبل الحل الوسط مع المحافظة على دوره القيادي . لكن غيره من قادة الحركة أخذوا على عاتقهم العمل على احباط الانتفاضة . ولكنهم لن ينجحوا في ذلك لأن الاستعمار لم يساعد مسعاهم بغلقه جميع الأبواب في وجوههم .

وهكذا فإن الأحداث قد برهنت على صحة نظرة المتطرفين ولكنها لم تمكنهم من تجاوز ترددات القادة . ومن هنا فإن حركة انتصار الحريات الديمقراطية ستعيش من سنة 1947 الى سنة 1954 في حالة أزمة تتخللها من حين لآخر عمليات تصفية وطرد وذلك بسبب فقدان المنهج الواضح .

في مارس/آذار من سنة 1950 خدم الحظ مصلحة الجناح المعتدل في الحركة . كان على اثر عملية انتقامية ضد مناضل منشق حيث أدى تدخل البوليس الى اكتشاف المنظمة الخاصة وتقويضها . ولئن نجا عدد كبير من الاطارات من الحملة القمعية فإن قيادة الحزب التي فاجأها الحدث استغلت الفرصة لحل المنظمة السرية . ومن المفارقات الغريبة أن هذه الأخيرة تغادر الساحة السياسية في وقت كان جد ملائم لممارسة نشاطها . ففي شمال افريقيا بدأ النضال ضد الاستعمار يتجذر بينما تمت الاطاحة في مصر بالملك فاروق على أيدي جماعة من الضباط الأحرار المتعاطفين أكثر مع القضايا العربية . وبتشتت المنظمة الخاصة عرف قادتها المنافي والسجون والهروب الى الجبال وأصبحوا رهائن في يد قيادة الحزب التي لم تكن تتردد في تحميلهم كامل مسؤولية الفشل . وكان الشعور الطاغي عليهم هو الاحساس بأنه قد تم التلاعب بهم وغدرهم شأنهم في ذلك شأن أسلافهم الذين قاموا بحركة سنة 1945 والذين مازال البعض منهم معتصما بالجبال في منطقة القبائل .

هكذا إذن حفظ ملفّ المنظمة الخاصة ولكن الخلافات حول مستقبل الحركة ظلت قائمة وتواصلت في جو مشحون بالانخذال . كيف يمكن معاودة النضال ؟ ذلك هو السؤال المطروح . وللإجابة عنه اقترح كل من الدكتور مصطفاي شوقي وعبد الرزاق شنتوف العمل في نطاق الشرعية . لكن مقترحهما لم يجد آذانا صاغية فاضطرا الى التخلي عن القيادة . وبعد سنة من ذلك عاد المعتدلون ، بصيغ أخرى ، الى الأهداف التي حددها الدكتور مصطفاي متذرعين بنواقص برنامج حزب الشعب الجزائري . ومما سهّل مهمّتهم الصعوبات التي أثارها كل من الحزب الدستوري الجديد (تونس) وحزب الإستقلال (المغرب) لتوحيد الكفاح المسلح في شمال إفريقيا . لذلك ظن المعتدلون وعلى رأسهم عبد الرحمان كيوان أن زمن التجذر والراديكالية قد ولى ومضى ومن هنا فإنهم سيسعون الى السيطرة على جهاز الحزب معتمدين على عدة وسائل أهمها :

*تجديد اطارات الحزب وتهميش المناضلين الذين «يحنون» الى العمل المباشر والإضطرابات ؛

*تكوين منظمات جماهيرية تقوم مقام الحزب في صورة تعرضه لحملات القمع ؛

*المساهمة في تسيير البلديات حيث تتوفر الشروط لعقد تحالف مع ممثلي المعمّرين المستنيرين (جاك شوفالي ، بنكي - كريفو ، أوفارد ... الخ) ؛

*إعداد مؤتمر وطني يضمّ كافة القوى السياسية والاجتماعية وضبط برنامج للحركة الوطنية الجزائرية .

كان هذا الاتجاه يرمي إلى تحقيق هدفين اثنين : هيمنة النخبة البورجوازية الصغيرة على الطبقات الشعبية وإيجاد الظروف السياسية والاجتماعية الملائمة لحل وسط مع شق من المعمرين . وقد تبنى مؤتمر حركة انتصار الحريات الديمقراطية المنعقد في أفريل 1953 هذه الأطروحات ، لكن المعتدلين لن يحافظوا على انتصارهم طويلا . فمن ناحية كان لصدى الأزمتين التونسية والمغربية انعكاسات في صفوف الحزب حالت دون تمركز هذا الاتجاه . ومن ناحية أخرى فان تطبيق قرارات المؤتمر والخلافات حول تشكيل الهيئة المديرة طرحت من جديد على بساط النقاش مسألة الاستراتيجية السياسية . أي السبل يجب اتباعها ؟ سبيل الحل الوسط أم سبيل الثورة ؟ سبيل الوحدة مع الأحزاب القومية المعادية لكل انفصال عن فرنسا أم الاعتماد على الجماهير الشعبية ؟ تلك هي الأسئلة المطروحة . وقد اختار مصالي الطريق الثانية على الرغم من معارضة أغلبية أعضاء اللجنة المركزية لها . وفي سبتمبر/أيلول 1953 طالب بمنحه «السلطة المطلقة» لـ «تقويم الحزب» . ولما لم يتحصل على ذلك ، توجه مباشرة الى المناضلين القاعديين . وهكذا بدأ التمرد ضد اللجنة المركزية في أوساط الهجرة الجزائرية في فرنسا ثم امتد الى الجزائر ، وسرعان ما تمكن المصاليون من عزل أجهزة الحزب ثم الاستيلاء عليها وتنظيمها حسب هواهم . وفي خضم الصراع كانت كل الاتجاهات تنادي بالديمقراطية ولكن أحداً

لم يكن يكترث بها وأصبح المناضلون الذين كانوا بالأمس القريب اخوة في الكفاح ، يتناحرون ولا يترددون في استعمال السب والقذف ضد بعضهم بعضا . وفي جويلية كان الانقسام داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية أمراً مقتضيا .

لقد وضع مصالي حداً لربيع المعتدلين وجمع حوله الأغلبية الساحقة من المناضلين . وكان انتصاره قد تم تحت راية الراديكالية ، لكنه فتح ثغرة في الهيكل استغلها المتطرفون ليتجمعوا من جديد ويقدموا مشاريع أخرى ويدخلوا البلاد في طريق الكفاح المسلح . ومع ذلك ففي مارس/أذار 1954 وفي حين أفسحت اللجنة المركزية المنعزلة المجال لمصالي ، كان المتطرفون يظهرون كعناصر ثانوية تتنازع الاتجاهات الأخرى أصواتهم ، وكانت جموع المناضلين تتخذ مواقفها باعتبار برامج الزعماء المعروفين ، أي مصالي وحسين لحول ، لا انطلاقا من مشاريعهم .

لقد بينا كيف أنه بعد تشتيت المنظمة الخاصة ، وجد مسيروها أنفسهم رهائن زعماء حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية . ولكنهم لم يكونوا جميعا رهائن بنفس الدرجة . لذلك وجب الآن تسليط الأضواء على مختلف الوضعيات والمسيرات الفردية حتى نتعرف على نسق وأشكال تجمعهم ، مع العلم أن هذا التجمع استلزم خمسة أشهر ، أي من مارس الى أوت 1954 .

يمكن اعتماد مقياسين اثنين لتصنيف المتطرّفين :

«وضعهم تجاه السلطات الفرنسية :

«علاقتهم بجهاز الحزب .

تتكوّن المجموعة الأولى من الثوار ، خاصة في منطقة القبائل (كريم وأوعمران ... الخ) . وهؤلاء هم من ضحايا حملات القمع التي تعرض لها حزب الشعب الجزائري بعد مجازر منطقة قسنطينة (ماي/أيار 1945) وبعد الانتخابات البلدية في أكتوبر/تشرين الأول 1947 وانتخابات المجلس الجزائري في أفريل/نيسان 1948 .

وتعزي مشاكلهم مع قيادة الحزب إلى خوف هذه الأخيرة من التعرض الى القمع في صورة تجاوز الشرعية وخرق القوانين الاستعمارية . وكانوا كلهم يتذمرون من الوضعية المادية المزرية التي تركوا فيها والصعوبات والمخاطر التي تحدق بهم يوميا .

أما المجموعة الثانية فتتركب من الهاربين الذين فروا رغم معارضة زعمائهم . وهؤلاء هم أحمد بن بلا ، أحمد محساس ، يوسف زيغود ، بن مصطفى بن عودة ومحمد خيضر . ويمكن أن نضيف الى هذه المجموعة محمد خيضر النائب السابق بالمجلس الوطني الفرنسي (1946 – 1951) المورّط في قضيّة المنظمة الخاصة والذي فرّ الى القاهرة بعد رفع الحصانة البرلمانية عنه . وقد اضطرّ محمد خيضر مثل البقيّة الى تجاوز تعليمات القيادة وذلك بفضل اعانة مصالي وبتواطؤ عضوين من اللجنة المركزية هما محمد يزيد وعبد الله الفيلالي .

وهناك مجموعة ثالثة تتركب من الاطارات الذين استطاعوا أن يفروا من مخالب البوليس وهم «المحكوم عليهم غيابيا» . وكان البعض منهم مختفيا في فرنسا (محمد بوضياف ، مراد ديدوش ، محمد مروك ، عبد الرحمان كراس) والبعض الآخر في الجزائر (العربي بن مهيدي ، عبد الحفيظ بوصوف ، ورمضان بن عبد الملك في منطقة وهران ؛ رابح بيطاط ، بالحاج بوشعيب وسويداني بوجمعة في مقاطعة الجزائر ؛ لخضر بن طوبال ، العربي الميلي ، عبد السلام حبشي ، عمار بن عودة ومحمد مشاطي في قسنطينة) أو في القاهرة (حسين آيت أحمد) .

وهناك أخيراً المناضلون الذين قضوا مدّة سجنهم ولكنّهم أصبحوا محل ريبة القيادة المتمسكة بالشرعية . ونجد ضمن هؤلاء الحاج بن علا الذي سيصبح فيما بعد رئيس المجلس النيابي الجزائري وحميد زهانة الذي سيصدر ضدّه حكم بالإعدام وينفّذ فيه سنة 1956 .

إن هذه القائمة ، وإن كانت غير كاملة ، تسمح بابراز عنصر موضوعي ألا وهو تشتت القيادة القديمة للمنظمة الخاصة ويضاف الى ذلك عنصر ذاتي يتمثل في

أن كل هؤلاء المناضلين لا يقدمون نفس التحليل للأزمة . فهم يجمعون على ضرورة تكوين أداة عسكرية وعلى ضرورة الدخول في المعركة ولكن آراءهم تختلف اذا تعلق الأمر بحصر المسؤوليات في الإنقسامات والتناحر داخل الحركة .

كان الثوار في منطقة القبائل يضعون هذه المسؤولية على عاتق اللجنة المركزية . أما المناضلون المختفون في فرنسا كمحمد بوضياف المسؤول عن المنظمة ومساعده مراد ديدوش فكانوا يتهمون مصالي . وهناك أخيرا دعاة الحياد المطلق ونجدهم بين جماعة القاهرة والهاربين . ومن حيل التاريخ فإن الذين سيعملون على لم شتات المتطرفين هم العناصر المعادية لمصالي بسبب محاولته فرض سيطرة مطلقة على الحزب والمتسامحين مع اللجنة المركزية المتمسكة بالشرعية . فأي طريق سيتبعون من أجل ذلك ؟

من اللجنة الثورية للوحدة والعمل إلى لجنة «الاثنين والعشرين»

في 23 مارس/آذار ، أي خمسة أيام قبل أن تمنح اللجنة المركزية لمصالي السلطات اللازمة لدعوة المؤتمر ، بُعثت اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) . وكان هدفها الرسمي إصلاح ذات البين بين مختلف الإتجاهات قصد إعداد الإنتفاضة . لكننا نجد على رأسها الى جانب محمّد بوضياف ومصطفى بن بولعيد ، رمضان بشبوبة وبشير الدخلي وكلاهما من أنصار اللجنة المركزية . أما صحيفة اللجنة الثورية ، Le Patriote (الوطني) فكانت تهاجم مصالي وتحابي اللجنة المركزية . فكل هذه الظواهر تفند فكرة عدم انحيازها وتشكك في أهدافها . والواقع أن أعضاء اللجنة المركزية لم يكونوا غريبين عن انشاء اللجنة الثورية . فخوفهم أن يجر مصالي البلاد وراءه الى «المغامرة» جعلهم يقومون بكل المحاولات لمنعه من التحرك . ولكنّ بلوغ هذه الغاية كان يحتّم عليهم استعادة ثقة القاعدة التي كانت تستهويها الشعارات المصالية ، لذلك رأوا من المفيد التقرب من بعض المتطرفين والتحالف معهم لإبعاد تهمة الاصلاحية اللاصقة بهم . لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . لقد جاءت الأحداث

معاكسة لتصوراتهم وتولد عن ذلك وضع جديد أصبحت فيه قضية الكفاح المسلح مطروحة كبديل للنقاش . وبدل أن يشكل بوضياف وأصدقاؤه قوة إضافية فقط أصبحوا طرفا في الحوار مع التيارات الأخرى التي لم تعد قادرة على التحكم وحدها في أزمة حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية ولا على تجاوزها . وهكذا دخلت الإنتفاضة في باب الإحتمالات الممكن تحقيقها . لكن هذه الظاهرة لا زالت غير واضحة تمام الوضوح بالنسبة لجميع الأطراف . من ذلك أن بن بولعيد وبوضياف وجدا مشقة كبيرة في اقناع ثوار القبائل بالإنضمام إليهم لأن هؤلاء الثوار إتهموهم بالعمل لفائدة المركزيين . فأول لقاء لهما مع كريم وأوعمران في 8 ماي/أيار 1954 آل الى الفشل .

جرت العادة في الجزائر ، على المستوى السياسي والتاريخي ، على مبالغة الدور الذي لعبته اللجنة الثورية للوحدة والعمل . فهذا الدور يتضح ، بعد التمحيص ، غامضا . فمن ناحية عملت اللجنة الثورية على أن تكون مركزاً لتجمع الإطارات الراديكاليين ومن ناحية أخرى فإن علاقاتها مع المركزيين ساهمت في تضليل المصاليين في حكمهم عليها ، الأمر الذي سيكون له انعكاسات سلبية على توحيد القوى الثورية . لذلك فإنه يستحيل اليوم على المرء دراسة الصراعات التي دارت بين جبهة التحرير والمصاليين دون الرجوع الى الخلافات التي نشأت عن ظهور اللجنة الثورية للوحدة والعمل .

تحت ضغط أنصارهم مثل مشاطي ، بن طوبال وزيغود قام زعماء الجناح الراديكالي منذ شهر جوان/حزيران بالإنفصال عن حلفائهم المركزيين . ففي هذا التاريخ وبمبادرة كل من بن بولعيد وبوضياف وديدوش وبيطاط وبن مهيدي وُجّهت الدعوة لإثنين وعشرين من الإطارات لحضور اجتماع بالجزائر[2] لإستخلاص النتائج من تجربة المنظمة الخاصة وتبادل الآراء حول الأزمة والتحضير للانتفاضة .

كان اجتماع «الاثنين وعشرين» بالنسبة للحاضرين بمثابة بعث جديد للمنظمة

الماسة وكثأر لهم من كل الذين ساهموا داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية في القضاء عليها . وكان هؤلاء المناضلون مقتنعين منذ زمن طويل بأنهم يمثلون أمدر وطنية في كل شمال افريقيا وكانوا يتحملون بصعوبة رؤية تصاعد النضال في كل من تونس والمغرب في حين تبدو الجزائر راكدة لا تتحرك .

لقد دار الإجتماع في جو يطغى عليه الحماس من ناحية والحقد على كل زعماء حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية من جهة أخرى . وكان الخوف من ضياع فرصة لا تعوّض للخروج بالقضية الجزائرية من المأزق يسيطر بكل ثقله على المناقشات . فكل سؤال حول استعدادات الشعب وتحالفات الثورة المقبلة كان يبدو واهيا . وحتى النقاش نفسه كان يبدو للمتحمسين أكثر من غيرهم طويلا وكأنه يخفي في طياته تردّدات وحسابات مسبقة . وهذا ما لا حظه بوجمعة السويداني الذي ضاق ذرعا بما اعتبره ضربا من المماطلة فقام بطرح مسألة الإنتفاضة في قالب إنذار : «هل نحن حقاً ثوريون أم لا ؟ إذا كان الأمر كذلك ، اذا كنا صادقين مع أنفسنا ، فلماذا ننتظر إذن للقيام بهذه الثورة ؟» . وقد استطاع بفضل قوة إقناعه أن يحصل على موافقة الجميع . وعلى كل فلم يكن أحد يرغب في الظهور بمظهر المتردد «الفاتر» .

وقد تم تعيين القيادة باعتماد مبدأ الانتقاء والتزكية ذلك المبدأ المعمول به داخل حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية . لكن الآراء تختلف حول كيفية وقوع هذا الانتقاء . فمحمد المشاطي يذكر أن الإختيار كان محدوداً حيث أن الحاضرين لم ينتخبوا سوى شخصين من بين الذين دعوا للاجتماع وهما بن بولعيد وبوضياف وفوضوا لهما مهمة اختيار القيادة[1] . أما بوضياف فإنه يعطي رواية أخرى مفادها أن الحاضرين طولبوا بانتخاب شخص واحد فاختاروه هو فيما كان دور بن بولعيد ينحصر في فرز الأصوات فقط . وتبعا لذلك فإن بوضياف هو الذي تولّى اختيار بقية المسيرين . وفي الحقيقة فإن ما جرى ليس إلا إعادة لمسرحية وقع تصميمها مسبقا من طرف أولائك الذين سيؤسسون فيما بعد جبهة التحرير الوطني .

وهكذا فإن اجتماع «الاثنين والعشرين» قد جرى في ظروف لا ديمقراطية وقد انجرت عن ذلك خلافات لم يعلن عنها وبقيت طي الكتمان مدة طويلة . فحسب العقيد الزبيري تم الفرز بطريقة مشبوهة . فأصوات الحاضرين كانت في أغلبيتها لصالح بن بولعيد الذي تحصل على سبعة عشر صوتا مقابل أربعة أصوات لبوضياف[4] .

ومن هنا نفهم لماذا انفصل ممثلو مدينة قسنطينة عن المجموعة ناعتين تعيين «الخمسة» بالـ «مهزلة» . ويعلق المؤرخ الفرنسي إيف كوريار على هذه الحادثة ، مبينا رواية الشق المنتصر ، قائلا إن معارضة ممثلي قسنطينة لا مبرر لها سوى رفضهم المشاركة في الانتفاضة[5] . فلا يمكن استخلاص مثل هذه النتيجة إلا إذا حصرنا مناقشات «الإثنين والعشرين» في مسألة الكفاح المسلح فقط . لكننا نعلم أن هناك مواضيع أخرى قد طرحت على بساط البحث كمسألة القيادة مثلا ، وهذا ما يمكن ادراكه من شهادات الذين عرفوا بـ «مجموعة قسنطينة»[6] . فحسب أحدهم ، عبد الرحمان كراس ، إن ما يريده هؤلاء هو اقناع الحاضرين بقبول فكرة تكوين القيادة من «ممثلي كل المناطق المساندة للكفاح المسلح» ويرون كذلك أن «مسألة تقرير الإنتفاضة ، سواء على المستوى العسكري أو السياسي ، تهم جميع الملتزمين بها بدون استثناء . وبخصوص هاتين القضيتين ذاتي الأهمية البالغة لم يتم إعلامنا بشيء ... وبالإضافة الى هذا ونظرا للغموض الذي كان سائدا في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، وللتستر الذي كان يميز الإتجاه الثالث . فقد اقترحنا قبل الاقدام على أية خطوة أن نقوم بعمل توضيحي في اتجاه القاعدة . وكان ديدوش مراد يعارض ذلك معارضة شديدة دون أن يقدم أية حجة» . ويستطرد كراس قائلا : «بعد اجتماع انعقد بقسنطينة اتضح أنه لا وجود لخلافات جوهرية تفرقنا . واستطيع أن أؤكد أنه لولا تصلب ديدوش لأمكن الوصول الى حل يرضي الجميع بكل سهولة . وهذا ما حاولت أن أبينه لبوضياف (....) الذي ظن أنه قام بتنازل عندما أعلمني أن بيطاط قد تم اختياره ضمن القيادة» .

ولكن الخلاف بين «الخمسة» وبين مجموعة قسنطينة لم يكن إلاّ خلافا عابراً سرعان ما تم تجاوزه بعد غرّة نوفمبر .

أنصار العمل المسلح يستقلون عن الاتجاهات الأخرى

كان شهر جويلية/تموز 1954 منعرجا حاسماً في استقلال أنصار العمل المسلح عن المركزيين وعن المصاليين . وقد ساعدتهم على ذلك عوامل عدّة :

*فشل كل المحاولات التوفيقية ولا سيا تلك التي قام بها خيضر وبن بلا وقابلها مصالي بالتحجر التام ، مشترطا أن تقدم اللجنة المركزية نقداً ذاتيا ؛

*رغبة المصاليين في استغلال تفوقهم لاحتكار قيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية . وقد تطورت الأمور في اتجاه الانفصال بعد انعقاد المؤتمر المساند لمصالي بهورنو في بلجيكا بين 14 و 17 جويلية والذي قاطعه كل من أنصار بوضياف وأنصار اللجنة المركزية بينما سانده ثوار القبائل . وقد قرر المؤتمر طرد زعماء اللجنة المركزية من الحزب . نذكر منهم حسين لحول وبن يوسف بن خدة وعبد الرحمان كيوان ومحمد يزيد وصالح اللوانشي ، وأمام هذا الوضع لم يجد بوضياف وأصحابه بدأ من العدول عن فكرة الوحدة التي أصبحت مستحيلة ورفع شعار العمل الفوري . وبعد أن تيقنوا من مساندة أيت أحمد وخيضر وخاصة بن بلا الذي ضمن لهم الدعم المادي من مصر . خلال لقاء جمعهم في مدينة بارن بسويسرا ، قرر أنصار العمل المباشر أن يشقوا طريقهم وحدهم . وقد رفض ممثلوهم الموافقة على عقد مؤتمر مناهض لمصالي كانت اللجنة المركزية تعتزم عقده .

*نتيجة لهذا الرفض دخل الشقاق في صفوف اللجنة الثورية للوحدة والعمل حيث عمد المركزيون الى سحب ثقتهم منها والى الرجوع في الإلتزام الذي تعهد به حسين لحول نيابة عنهم بحل اللجنة المركزية في صورة فشل الجهود الرامية الى توحيد حركة انتصار الحريات الديمقراطية وإرسال أعضائها الى الخارج للعمل على تدويل القضية الجزائرية[7] .

وفي 15 جويلية صرح رمضان بوشبوبة - شهر سي موسى - امام المجلس القومي المجتمع بدعوة من اللجنة المركزية ، قائلا : «إن اللجنة الثورية للوحدة والعمل كانت تنشد توحيد النزعات ولكن المصاليين أرادوا غير ذلك . وعليه فلم يعد هناك وجود للجنة الثورية . وعلينا بدورنا أن ندعو الى مؤتمر» . والحقيقة أن الانشقاق وتبلور التيارين المركزي والمصالي كان لهما الفضل أكثر من عمل اللجنة الثورية في توضيح الموقف ورفع أخر العراقيل في طريق توحيد أنصار العمل المسلح . وقد أصبحت كل الإتجاهات ممتحنة وكان عليها أن تجيب بوضوح عن الأسئلة التالية ، هل ترغب حقا في الخروج من الشرعية والدخول في المعركة الجادة ؟ وهل هي مستعدة لوضع امكاناتها على ذمة الثوار المقبلين ؟

لقد بسّط التاريخ الرسمي لجبهة التحرير الإجابات التي أعطيت لهذه الأسئلة . ففي منشور مؤرخ في 22 أكتوبر جاء ما يلي بخصوص هذا الموضوع : «قبل الشروع في الكفاح اتصل الرؤساء العسكريون بالمركزيين والمصاليين وطلبوا منهم مساندة سياسية . ولكن كلا الإتجاهين رفضا . فتقرر إذاك انشاء جهاز سياسي : فكانت جبهة التحرير الوطني ، ومعنى هذا أن أنصار العمل المسلح بعد أن كانوا مرشحين لقيادة جيش التحرير ، وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها ونتيجة لتخاذل المركزيين والمصاليين على رأس حزب سياسي .

من المعروف أن آخر الإتصالات قام بها كل من بولعيد وكريم بلقاسم . فاتصل الأول بحسين لحول والثاني بمولاي مرباح . أما لحول فخلافا لكل ما قيل وأشيع فإنه لم يعارض فكرة الإنتفاضة ولكنه ألحّ على ضرورة توفير الشروط السياسية قبل الشروع في أي عمل . وأمام الإنذار الذي وجهه اليه أنصار العمل المسلح حاول لحول أن يكسب الوقت واقترح عليهم تسبقة بـ 500.000 فرنك فرنسي من مجموع الستة ملايين التي طلبوها منه .

أما مولاي مرباح فإنه أثار مع كريم مجموعة من الملاحظات ، أولها أنه لا

يرى فائدة في الإتصال بزعماء اللجنة الثورية لأنهم ، حسب زعمه ، ليسوا سوى مفوضين للجنة المركزية وهو مخطيء في ذلك طبعا . أما النقطة الثانية فتتمثل في دعـوة كريم الى قطـع كل عـلاقـــة معهم واقترح أخيرا أن يكـون أول جانفي/كانون الثاني 1955 هو يوم اندلاع الكفاح المسلح[8].

كيف يمكن إذا تفسير موقف أنصار العمل المباشر الذين اعتبروا أجوبة الاتجاهات الأخرى على الأسئلة المطروحة أجوبة سلبية وأولوها على أنها رفض للكفاح المسلح ؟ نستطيع بهذا الصدد تقديم التفسيرات التالية : أولا : لم تكن أجوبة مخاطبيهم مطابقة لما كانوا ينتظرونه ولم تساعد على وضع حدّ للخلافات داخل الحزب . ثانيا : فقد الزعماء تلك الهالة التي كانوا يحيطون بها أنفسهم كما فقدوا مصداقيتهم . أما أنصار العمل المسلح فبعد أن حرموا طويلاً من حقهم في مراقبة ما يجري داخل حزبهم ، كانوا يريدون تقرير مصير البلاد بأنفسهم وقد شعروا بأن ما اكتسبوه من نفوذ أثناء الأزمة يمكن أن يفلت من أيديهم اذا استقرت مختلف الإتجاهات من جديد ، فأرادوا أن يضمنوا المستقبل .

وهذا ما ساعد على توحيد أنصار العمل المسلح مهما اختلفت مشاربهم . فما هي الأهداف التي كانوا يطمحون إليها ؟ بعث أداة عسكرية وضبط تاريخ الإنتفاضة في أقرب أجل . وفي أواخر شهر أوت/آب وقعت تسوية كل الخلافات القائمة في صفوفهم . وكانوا جميعا مقتنعين بأن مسؤولية فشل حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية يتحملها الزعماء بما فيهم مصالي . وبوصفهم خارجين عن الشرعية ، فقضية تحويل منظمة سياسية إلى جهاز عسكري لم تكن مشكلة كما كان الشأن بالنسبة لخصومهم . لقد كانوا رجال عمل يترأسون طليعة تؤمن ايمانا راسخا باستقلال الجزائر . فهم ليسوا مفكرين ولا أصحاب تكتيك . وكانوا يواجهون جهاز الحزب بحماس المناضلين . ومع ذلك فإن أغلبية المناضلين لم تكن تقف وراءهم .

أما خصومهم فكانوا يتهمونهم «بجر الشعب الى المجزرة» نتيجة أنانيتهم وبأسهم . ولكن هذا الإتهام لا يرتكز عل أسس صحيحة من حيث لا يأخذ

بعين الاعتبار شعورهم بالمسؤولية ورغبتهم الملحة في التوفيق بين أقوالهم وأفعالهم . فهم ليسوا من الإنتهازيين أو من «الشطار» الذين تعج بهم صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية . ولا شك أن نظرتهم الإجتماعية قصيرة وأن مفاهيمهم السياسية مبسطة تفتقر الى التعمق وأن علاقتهم مع الحركة الجماهيرية غير واضحة ، ولكن تفانيهم وشجاعتهم يجعلانهم محل كل تقدير .

نحو الإنتفاضة

لقد كان الإتفاق الحاصل بين «لجنة الخمسة» وممثلي منطقة القبائل حاسما في انتصار أصحاب العمل المسلح على المصالية ، خلافا لما يدعيه بوضياف الذي يقلل من شأنه في حديثه عن اعداد الإنتفاضة[9] مبينا أن علاقتهم مع مصالي ظلت قائمة حتى شهر أوت 1954 . فالأحداث التي تلتْ غرة نوفمبر تؤكد ما كان لانضمام كريم وأوعمران من وزن في انتصار جبهة التحرير الوطني على بقية الاتجاهات داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية . لا سيا وأن «لجنة الخمسة» كانت تسعى لضمان مشاركة منطقة القبائل في الإنتفاضة ، كلفها ذلك ما كلفها . ولو كان الأمر بخلاف ذلك فلماذا تراجعت في قرارها الأول القاضي بضم القبائل الى منطقة الجزائر وجعل كريم يأتمر بأوامر ديدوش ؟[10]

وهكذا توسعت «لجنة الخمسة» في أوائل سبتمبر بدخول كريم وأصبحت هيئة أركان الإنتفاضة تتركب من ستة أعضاء أوكلت لهم مهمة حل المشاكل السياسية والتراتيب العملية المتعلقة بشن الكفاح المسلح .

مشاكل القيادة :

كان السؤال الأول المطروح هو : هل يجب القيام بالثورة تحت راية حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية أو اختيار اسم جديد ؟ اختارت «لجنة الستة» القطيعة مع الماضي ، ولئن كانت تأمل في استمالة كل مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، فقد كانت تريد وضع حدّ لوطنية الأحزاب والتفتح على كل القوى التي تشاركها هدفها في الإستقلال ، أي :

*اعـادة بنـاء دولـة جـزائريـة ذات سيـادة ، ديمقراطيـة واجتماعيـة ، في اطـار المبادىء الإسلاميـة ؛

*إحترام الحريات الأساسية بدون تمييز عرقي أو ديني .

أمـا الطرف الـوحيـد الممثـل للشعب الجـزائري فهـو جبهـة التحرير الـوطني ، وهـذا يعني أن تحولاً جوهريـا قـد حصل . ذلـك أن البرنـامج التقليـدي لحـزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الـديمقراطيـة كان يرفع شعـار المجلس التأسيسي الجزائري كمخاطب كفء وحيد مع فرنسا .

أما الأحزاب الجزائريـة فـإنهـا كانت مطـالبـة بحلّ نفسهـا وبـذلـك ألغيت كل معارضة وتحت شعار إفلاس الأحزاب ، عادت من جـديـد تلـك النظرة الضيقـة للمجتمع الجزائري التي تقدم الجمـاعـة على الفرد . ومن هـذا المنظـار لم يعـد هنـاك مجـال لطرح مشكلـة التحـالفـات واعتبرت التعـدديـة عقبـة في طريـق وحـدة الشعب الجزائري .

وعلى هـذا المستوى فـإن جبهـة التحرير تتميز عن المركـزيين الـذين كانـوا منـذ ديسمبر 1953 يعملـون على ايجـاد وحـدة وطنيـة مبنيـة على المسـاواة بين كل الأحزاب ، وتتميز كذلـك عن المصـاليين الـذين كانوا يريـدون من الوحـدة فرض هيمنتهم على الأحـزاب الأخرى بـالإعتماد على التعبئـة الشعبيـة . إن هـذا الـوضـع هـو نتيجـة فشـل الاستراتيجيـات القـديمـة التي تعتمـد أسـاسـا على سكان المـدن وتتجاهل الأريـاف وإسهـامهـا في النضـال القومي . أمـا البرنـامج فكان شـديـد الإختصـار وكانت نقطـة القـوة فيـه تكمن في رغبـة جبهـة التحرير الإنضمام الى تونس والمغرب المناضلتين دون ربـط هـذا التضـامن المغربي بـالإتفـاق المسبق بين قيـادات الأحزاب كما كان يقول المركزيون . وفيما يتعلـق بمسـألـة الإنتماء القـومي فـإن جبهـة التحرير تنظر اليهـا من منظـار الإيـديولوجيـا القوميـة التي ترجـع وجود الـدولـة الجـزائريـة الى مـا قبـل الفترة الإستعماريـة . وانطـلاقـا من هـذه الرؤيـة فـإن الأوروبيين ويهود الجزائر المتحصلين على الجنسـيـة الفرنسيـة بمقتضى قـانـون كريميـو لا يعتبرون جـزائريين بـالمعنى الكامـل وبإمكانهم إن شـاؤوا أن

ينضموا الى المجموعة الوطنية التي اختارت حسبما تؤكده جبهة التحرير «بناء دولة في اطار المبادىء الإسلامية» . فالتناقض هنا صارخ . فالإستعمار كان يعتبر الجزائريين كمواطنين من درجة ثانية ، فهل تنوي الجزائر المستقلة معاملة غير المسلمين نفس المعاملة ؟"

في سنة 1974 أقر محمد بوضياف بأن برنامج جبهة التحرير «كان كثير الغموض وهذا ما يفسر جزئيا التناقضات التي شهدتها معركة التحرير والأزمات التي مرت بها» .

السؤال الثاني المطروح : من سيقود الحركة ؟

ولا يتعلق الأمر هنا بطبيعة العلاقة بين جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني بقدر ما يتعلق بمن سيكون الممثل السياسي للحركة الجديدة . كان الدكتور الأمين دباغين المطرود من حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية في ديسمبر 1949 ، يحظى بتقدير كبير لدى «أنصار العمل المسلح» الذين كانوا يعتبرونه الأب الروحي لحركتهم والذي ذهب ضحية مناورات الجناح المعتدل . وقد اتصل به كل من بن بولعيد وكريم وبوضياف ليترأس الإنتفاضة . وفي حين ظن هو أنهم إنما يريدون الاستفادة من خبرته وتجربته كانوا يطالبونه فقط بموافقة غير مشروطة . فكل تحفظ من جانبه كان سيثير عند مخاطبيه تحفظهم المعهود من «السياسيين» . وهذا ما حصل فعلا عندما أكد لهم الدكتور دباغين أن منطقتي الأوراس والقبائل فقط مستعدتين لخوض الكفاح المسلح . ولكن ممثلي «لجنة الستة» الذين كانوا يثقون في زملائهم في المناطق الأخرى (وهران ، الجزائر وقسنطينة) لم يستسيغوا هذه الملاحظة . ومع ذلك فالدكتور الأمين دباغين لم يكن يعارض فكرة الإنتفاضة بل كان يتساءل فقط حول مدى نجاحها .

وخوفا من أن يجرهم هذا إلى العدول عن أهدافهم فإن «انصار العمل المسلح» قرروا الاستغناء عن خدمات الدكتور الأمين دباغين .

وهكذا قضي الأمر وبقيت «لجنة الستة» هي هيئة الأركان العليا الحقيقية

لجبهة التحرير وجيش التحرير في الجزائر . وهذان التنظيمان هما أسـاس الـدولـة الجزائرية المقبلة والتباساتها .

من يسير الـدولـة الجزائريـة ؟ الحـزب أم الجيش ؟ إن هـذه المسـألـة بـالنسبـة لمؤسسي الحركـة لا قيمـة لهـا الآن . فهم سياسيـون ينـاضلـون بـالسـلاح . لكن بـاعتمادهم السـلاح كشكل وحيـد للنضـال وبتحقيرهم لكل الأشكال الأخرى لم يـدركـوا أن المـآل الطبيعي لملحمتهم هـو إنشـاء دولـة يكـون الجيش عمـودهـا الفقري . أمـا جبهـة التحرير فليست سوى لسـان حـال جيش التحرير وحـامل لوائه السياسي وليس لها أي وجود في حد ذاتها .

لقـد تم تقسيم الجـزائر الى ست منـاطـق وأوكل مهمـة التنسيـق بينهـا الى محمـد بوضياف . وهذا الإختيار لا يفسر فقط بـالـدور الطلائعي الـذي لعبـه في تجميع «أنصـار العمل المسلح» بل يعزي أيضـا الى كـون بـوضيـاف مصـابـا بمرض السـل وبالتالي غير قـادر على الإضطلاع بقيـادة مبـاشرة . ويكفيـه أنـه بـذل مجهودات جبارة في فترة عصيبة لأداء المهمة التي في عهدته .

ولا يفـوتنـا أن نـلاحـظ أن جيش التحرير الـوطني كان منظما منـذ البـدايـة حسب مبدأ اللامركزيـة . أمـا اتخـاذ القرارات فلم يكن من مشمولات المنسق بل مسند الى «لجنة الستة» بصفة جماعية .

إن اختيـار الـلامركـزيـة يطرح إشكاليـة . فحسب محمـد بـوضيـاف كان ذلـك نتيجـة «استحـالـة تسيير المعركـة على أي تنظيم مركـزي» نظرا لاتسـاع رقعـة البـلاد . أمـا محسـاس فلـه نظرة مخـالفـة : «كان كل واحـد يشعر بضرورة ايجـاد تـوازن بين مختلف الأنشطـة ومختلف الأشخـاص والمحـافظـة عليـه وكانت القيـادة الجماعيـة هي الحـل الـذي يفرض نفسـه للحـد من نـزعـة المسيرين إلى الإنفراد بالسلطة والبيروقراطية»[11] . فمحسـاس يثير هنا ، دون أن يعلم ، نقطـة هـامـة : فالسلطة داخل جبهة التحرير كانت مقسمة منـذ البـدايـة بين أشخـاص يقـدمون أنفسهم كرؤسـاء جهاز سياسي . فـاختيـار هـذه الصيغـة القيـاديـة لم يملـه الحرص على النجاعة أو استخلاص دروس تجربة حركة انتصار الحريـات الـديمقراطيـة كما

يريد البعض ايهامنا به ، بل كل ما في الأمر هو أن السلطة ليست إلاّ انعكاسا لميزان القوى بين أعضاء القيادة .

إن السلطة المركزية بحكم ارتباطها بالقوى التي كوّنتها لا يمكن أن تستمر وتتواصل بدون هزات وأزمات حادة إلا متى حافظت على ثقة هذه القوى .

والحل المطروح ينحصر في خيارين لا ثالث لها : «الجمود أو اعادة تركيب القيادة حسب ما تمليه الأزمة . فهذه السلطة الجماعية لا تعني الديمقراطية بل بالعكس تنفيها . فالسلطة كانت مطلقة وفي الظاهر مركزية ، ذلك أن كل واحد من الذين يمارسونها مرتبط بالجهاز المركزي وفي نفس الوقت ممثل لمنطقة معينة . ومن هذه الزاوية يمكن القول بأن جبهة التحرير قد أعادت في ظروف جديدة أشكال سلطة قديمة .

الاعداد العملي للانتفاضة :

إن شراء الأسلحة والعتاد وجمع الأموال واختيار العمليات التي يجب القيام بها كلها مسائل حيوية لاندلاع الثورة . فكيف وقعت تسويتها ؟

•التمويل :

إن الدارس لهذا الموضوع تواجهه صعوبات عدة تتمثل أساساً في قلة المصادر . إلا أنه تتوفر لدينا بعض المعلومات التي لا تخلو من أهمية ، أولها أن تحالف بن بولعيد وبوضياف مع المركزيين في الفترة الممتدة بين مارس وجويلية 1954 قد سمح لمؤسسي جبهة التحرير بالتصرف في أموال اللجنة الثورية للوحدة والعمل[12] لتسديد نفقات أنشطتهم كالسفر للخارج والإتصالات وغير ذلك . ثم إن اللجنة المركزية قامت بدفع خمس مرتبات شهرية مسبقة لكل الحزبيين المتفرغين والمكلفين بمكافحة التيار المصالي . لكنه يصعب تحديد المبلغ الذي تحصلت عليه جبهة التحرير من هذه الموارد المختلفة ، غير أن الشيء الأكيد أن هذا المبلغ لا يقل عن المليون فرنك من عملة ذلك الوقت . وإلى جانب هذا هناك موارد أخرى أكثر أهمية . فقد رهن بن بولعيد قسما من ممتلكاته لفائدة جبهة التحرير وفعل ديدوش نفس الشيء بميراثه . واستطاع الحاج بن علا جمع مبلغ 1.500.000 فرنك من منطقة الضهرا كتبرعات .

أمـا في منطقـة قسنطينـة فـإن اشتراكات المنخرطين المجمـدة من مـارس الى جـويليـة في مستـوى قسمـة العروش قـد وقـع تـوزيعهـا على مختلف التيـارات حسب الأهميـة وهـذا يعتبر أمراً استثنـائيـا خـلال الأزمـة التي عـاشتهـا حركـة انتصار الحريـات الـديمقراطيـة أمـا في القبـائل فقـد احتفـظ كريم لنفسـه بمعـالم الاشتراكات الراجعـة للمصـاليين . فحسب أحمـد مـازرنـة سمح المكتب السيـاسي لكريم بـاستخلاص 10٪ من محصول الاشتراكات لشراء الأسلحـة . ومهما يكن من أمر فعنـدمـا دقت السـاعـة الحـاسمـة وجـاء وقت اقتنـاء الأسلحـة من الخـارج لم يتـوفر لـدى جبهـة التحرير سـوى 1.400.000 فرنـك [13] . فجبهـة التحرير لم يكن لديها عند ظهورها ما يفي بالحاجة .

•التسليـح :

في مجتمـع يعتبر فيـه عـدم دفـع الضرائب وعـدم امتـلاك سـلاح فردي ، رغم التحولات الإجتماعية ، من علامـات الاستعبـاد ، كان يمكن أن نفترض أن العثور على الأسلحـة لا يشكل في حـد ذاتـه صعـوبـة كبرى . إنـه لافتراض خـاطيء ! لقد ضيع حزب الشعب الجزائري الفرصة الوحيدة التي كان يمكنـه فيهـا ، وبـأقل التكاليف ، جمع كميـة من السـلاح ، فقصـد الحرب العـالميـة الثـانيـة . ففي سنـة 1947 ، وضع التنظيم السري مسـألـة التسليـح في جـدول الأعمـال . وكان معظم الأسلحـة القليلـة المتـوفرة سنـة 1954 آتيـا من مخـابيء التنظيم السري التي أفلتت من العمليـات البوليسيـة في كل من الأصنـام ، الأغواط ، القبـائـل ، في الجـزائر العاصمة ، في جبال الأوراس وفي كوندي – سمندو .

في سبتمبر (أيلول) 1954 ، ذهب زلزال الأصنـام بـالسـلاح وبـالرجـال المكلفين بحراستـه ، وفي الأغواط سلم السـلاح الى البـوليس بـواسطـة أحـد العمـلاء . أمـا مخزن القبائل فكان بين يدي المصـاليين . ولم يبق سوى مخـازن سمنـدو والأوراس والجزائر التي لا نزيـد عن 310 قطعـة سلاح من صنع ايطـالي . أكثر من ربعهـا غير صـالح للاستعمال . كان مخـزن الأوراس أغنـاهـا (300 قطعـة) ؛ وقـد سلمت هـذه المنقطـة بعض القطـع الى كل من القبـائـل ومنطقـة قسنطينـة ، بينمـا كان

المناضلون ينتظرون قدوم أسلحة من الخارج . فقد ربط بن بلة الصلة بين بوضياف وكل من عبد الكبير الفاسي وعز الدين عزوز . وكان على الأول ادخال الأسلحة عبر المغرب . لكن تبين في شهر أوت (آب) أنه يجب الاعتماد على الموارد الداخلية لا غير . أما الدولة المصرية ، التي كانت على علم بالنوايا الجزائرية ، فإنها كانت تنتظر أن تراهم على محك العمل . لقد كانت كتائب جيش التحرير الوطني لا تملك في غرة نوفمبر سوى 400 قطعة من السلاح . ولسد هذه الثغرة حاول الثوار تعزيز رصيدهم بصنع قنابل يدوية ، لكن الإطارات المختصة والكفأة لم تكن موجودة . وانتظم لهذا الغرض تربص دام أربعة وعشرين ساعة بخرايصية في دار قدور بن طويل أشرف عليه بن بولعيد وشارك فيه كل من بوصوف وبن عبد المالك وبن علا وبوعجاج والمزوقي وديدوش وبيطاط والسويداني وفي منطقة الجزائر تم اللجوء الى خبرة أشخاص خارجين عن الحركة كبلحاج الجيلالي وهو عضو قديم في قيادة المنظمة السرية وكان يتعامل مع البوليس . ولم يقع احترام الحد الأدنى من الشروط الأمنية وهذا ما يفسر النجاح النسبي للبوليس في الجزائر بعد عمليات غرة نوفمبر . أما فيما يتعلق بالملابس فإن مؤسسي جبهة التحرير قرروا لأسباب نفسانية أن يظهر رجال الكومندوس كجنود ينتمون لجيش نظامي . وكانت فواضل الجيش الأمريكي كافية لسد الحاجيات .

• نوع العمليات :

تم ضبط العمليات لا على مستوى الهيئة المركزية . بل على مستوى القيادات الجهوية . وكانت العمليات المبرمجة تتميز نوعيا عما يسمى بالإرهاب . فوحدات الكومندوس كونت لتشكل النواة الأولى لجيش التحرير . فاختيار الأهداف له هنا أكثر من معنى . فقد كان على المحاربين مهاجمة الثكنات للاستحواذ على الأسلحة ومهاجمة وسائل الإتصال والمواصلات والجهاز القمعي ومصالح المالكين والشركات الاستعمارية . ولم تكن عمليات التخريب تهم الا البنية التحتية وكانت صارمة من حيث عدم التعرض للمدنيين بأية حال من الأحوال . وكان على المجاهدين في حالة ايقافهم أن يطالبوا بمحاكمتهم طبقا للقانون الدولي الخاص بأسرى الحرب .

فالعمليات الأولى كانت تهدف إلى احداث هزة نفسية لدى المواطنين . أما المواجهات العسكرية كالتي ستقع فيا بعد في جبال الأوراس فقد أمر الثوار بتجنبها . فالمحافظة على فرق الكومندوس وسلامة المجاهدين كانت شغل القادة الشاغل .

قوة جبهة التحرير الوطني :

كان المناهضون للكفاح المسلح يركزون معارضتهم للانتفاضة على نقطتين : القوة المادية لفرنسا وضعف الإمكانات الجزائرية .

والواقع أننا اذا قمنا بمجرد استعراض للقوة المادية لجبهة التحرير ولتمركزها في البلاد ، تبين لنا أن حظوظها كانت ضعيفة جدا .

فجبهة التحرير كانت متواجدة بصفة خاصة في جبال الأوراس وفي القبائل . لكن في هذه المنطقة كان مصالي يتمتع بنفوذ كبير ولم يكن كريم سوى مفوض له في نظر المناضلين وكان هؤلاء يجهلون أن ارتباطه بقدماء اللجنة الثورية للوحدة والعمل يعني ضمنيا قطع علاقاته بمصالي . أما في منطقة التل فكان لجبهة التحرير عدد من المجموعات أهمها عددا يوجد في الحروش وسمندو وعين بزيان ، بينما كان تواجدها في المدن ضعيفا . أما في القبائل الصغرى وفي النامشة وورشنيس وهضاب الأطلس التلي وسهول السباسب والصحراء فلم يكن لها وجود سوى بعض الأفراد القلائل الذين يمثلونها .

غير أن هذا الاستعراض الوصفي لا يأخذ بعين الاعتبار عدة عناصر لها أهميتها في تقييم قوة جبهة التحرير :

أ – إن الاختلاف داخل حركة انتصار الحريات الديمقراطية لم يصبح بعد نهائيا . فقد كانت العلاقات بين مختلف الاتجاهات والانتقال من أحدها الى الآخر متواصل على مستوى القاعدة . ففي شهر أكتوبر/تشرين الأول التحقت مجموعة من أنصار العمل المسلح بالبليدة بجماعة اللجنة المركزية . أما في سكيكدة فإن العكس هو الذي حصل . وفي ريو سلادو التحق نفر من المصاليين بمؤسسي جبهة التحرير . هذا مع العلم بأن المناضلين والاطارات

الذين لا يلتحقون بأنصار العمل المسلح ليسوا بالضرورة معادين لهم . فهم يتساءلون حول احتقار أنصار العمل المسلح للعمل السياسي وعجلتهم . وهذا الموقف ، خلافا لما أكده بعضهم بعد انتصار الثورة ، لا يعني معارضة الانتفاضة والوقوف ضدها . فتجارب الثورات الأخرى بينت أن التحول من مرحلة تاريخية الى أخرى لا يتم بدون تمزق وحزازات[14] .

ب – إذا كان الغموض والضبابية من الأسباب التي تعرقل القوى المنظمة وتشجع المواقف الانتظارية فان الرصيد الثوري للقوى غير المنظمة يبقى بالمقارنة هائلا . يضاف الى ذلك أن الوضع في بلدان افريقيا الشمالية وفي العالم العربي كان يشجع على تجذير المواقف والاتجاهات .

ج – وبصفة أدق فان ميزان القوى في مجتمع مجمد يتغير تماما في خضم الصراع لا العكس . ولهذا السبب اتجه قادة جبهة التحرير نحو العمل المباشر بحدس صادق رغم كل النقائص التي كانت تشكو منها منظمتهم ورغم تفوق العدو كما وكيفا . هل كان ذلك مجرد ثقة عمياء في المستقبل ؟ قد يكون ، لكن موقفهم كان ينبني أساسا على رفضهم للواقع البائس الخالي من كل مبادرة جزائرية . وهذا ما عبّر عنه بوضياف بأسلوبه الخاص حينما قال ، مخاطبا حسين لحول ومحمد يزيد بعد استمالتهم لعدد من أنصاره ، «إن الثورة ستتم ولو بقردة منطقة الشيفة» .

إن السرعة التي تم بها اعداد الثورة تثير الإعجاب . ولكن نجاح مؤسسي جبهة التحرير لا يمكن أن يفهم بدون الرجوع الى التجارب الماضية . لقد كانت المنظمة الخاصة مخبراً تكوّن فيه الرجال ونمت فيه التقاليد النضالية . وكان الوضع العام يدعو الى العمل السريع . فنهاية الحرب في الهند الصينية وافتتاح المفاوضات التونسية الفرنسية من شأنها أن تؤدي الى عزلة الثوار الجزائريين . وفي هذه الظروف كان الإجتماعان المنعقدان يومي 10 و 25 أكتوبر كافيين لكي تضع «لجنة الستة» اللمسات الأخيرة للتحضيرات . وغادر المنسق محمد بوضياف فورا الجزائر متجها الى القاهرة ومعه برنامج العمليات

المسلحة وبيانين يعلمان الجزائريين والرأي العام العالمي بدخول كل من جبهة التحرير وجيش التحرير ميدان النضال .

هوامش

(1) أول مسؤول عن هذه المنظمة هو محمد بلوزداد ثم خلفه بسرعة آيت أحمد بمساعدة بالحاج جيلالي وبن بلا وبوضياف وماروك وولد حودة وركيبي . وفي جانفي 1949 انتقلت الرئاسة الى بن بلا .

(2) إن هنري علاق محق حين يؤكد أن الـ «22» هم في الواقع «21» فقط ذلك أن الثاني والعشرين ، ايليا دروريش ، دعي كلاحظ وضيفا للمجتمعين .

(3) أنظر رسالة مشاطي الى جريدة Révolution Africaine بتاريخ 16 سبتمبر 1968 .

(4) أكد لنا العقيد الزبيري أن بوضياف هو الذي أمده بهذه المعلومات .

(5) أنظر Yves Courrière, Les fils de la Toussaint, p. 186.

(6) كانت تتكون من : عبد السلام حبشي وسعيد بوعلي ورشيد ملاح وحمدة يوسف وعبد الرحمان فراس .

(7) امتثل لحول لقرارات اللجنة المركزية ، أما محمد يزيد فتقرب من «أنصار العمل المسلح» دون أن يقطع تماما مع أصدقائه .

(8) حول هذا الموضوع أنظر تصريحات كريم بلقاسم لـ Yves Courriére الواردة في كتابه Les fils de la Toussaint, p. 134. فخلافا لأقواله لم يقطع كريم الصلة بمصالي الا بعد غرة نوفمبر . ففي 23 أكتوبر 1954 حضر اجتماعا مع المصاليين .

(9) أنظر «الجريدة» ، عدد 15 : نوفمبر – ديسمبر 1974 (بالفرنسية) .

(10) من العراقيل التي حالت دون وحدة أنصار العمل المباشر كان رفضهم أن تتحول القبائل الى منطقة في مستوى غيرها من المناطق . إن النزعة البربرية ، أي مسألة الثقافة البربرية ، كان يخيف جميع أطر حركة انتصار الحريات الديمقراطية منذ 1949، تاريخ ظهور الاتجاه المضاد لموقف العروبة والإسلام داخل الحركة الوطنية .

(11) أنظر : A. Mahsas, Le mouvement révolutionnaire en Algérie. De la Première guerre mondiale à 1954. L'Harmathan, 1979, p. 316.

(12) يقول ايف كوريير ، اعتمادا على شهادة زبير بوعجاج أن لحول قد أمد اللجنة الثورية بمبلغ قدره 500.000 فرنك .

أنظر : Yves Courrière, Les Fils de la Toussaint, éd. Livre de Poche, p. 240.

(13) Boudiaf: "La Préparation du Premier Novembre", El Jarida, n° 15, novembre-décembre 1947.

(14) أنظر : "L'expérience russe" in La Révolution de 1917, Marc Ferro, Tome II, Aubier-Montaigne, 1976, p. 386 à 422.

أصول الصراع الفرنسي - الجزائري

إن الأسطورة الاستعمارية حجبت مدة طويلة معطيات الصراع الفرنسي - الجزائري . وكانت وظيفة تلك الأسطورة المتغلغلة في العقلية الجماعية تبرير الهيمنة الفرنسية بعنوان ادخال الحضارة لشعب يعيش في حالة الهمجية . ومن المعلوم أن الاستعمار لم يدخل البلاد على أساس تطوير الجزائريين ، بل من أجل استغلال الموارد الطبيعية والبشرية الجزائرية لصالح الرأسمال الفرنسي وممثليه في البلاد ، المعمرين .

ولبلوغ هذه الأهداف أدخل الاستعمار الهياكل الملائمة فنتج عن ذلك تفكك المجتمع التقليدي ؛ أصبح معه اعادة بنائه صعبة . ثم ان اخضاع المغلوبين لصالح الغالبين يبين بوضوح أن فرنسا لم تكن تعتزم معاملة الجزائريين كفرنسيين . كما أن رفض الجزائريين للأمر الواقع ومقاومتهم للاحتلال يقيان الدليل على رغبتهم في التمسك بشخصيتهم المميزة ، وهكذا أصبحت كل مقومات الصدام المرير والشاق متوفرة .

عالم ينهار

كانت الوطنية ، أي التعلق العاطفي بأرض الأجداد ، لا القومية المتمثلة في الارادة الواعية لتكوين أمة ، هي التي ألهمت ردود الفعل الأولى ضد الاحتلال الفرنسي . لقد انهارت الفئة العثمانية التي كانت تحتكر السلطة أمام الجيش الاستعماري . ولكن العنف الذي رافق الاحتلال والجرائم التي اقترفها الجيش

الغازي وافتكاك الأراضي من أصحابها ، كل ذلك أدى الى تعبئة الأهالي تحت راية المجوعات السائدة .

أبرزت السنوات الأولى لمقاومة الاحتلال قوة الوطنية الجزائرية ، ولا حاجة الى انكار الطابع الديني الغالب على هذه الوطنية ولا الى اسدال رداء القومية عليها لتقريرها والاعتراف بأهميتها . ألم يكن الإسلام هو الاطار الذي تجد فيه مؤسسات الدولة والمجتمع شرعيتها ومعناها ؟

دخلت اذا القبائل والطرق الصوفية الكفاح تحت قيادة الأمير عبد القادر في غربي البلاد ووسطها ، وبرئاسة أحمد باي في الشرق والعديد من القادة الآخرين في منطقة القبائل وعلى مشارف الصحراء . وكان هدفهم حماية «دار الإسلام» من عدوان بلاد «الصليب والناقوس والخنزير» .

وباستنهاضها للهمم والعزائم الصادقة أفرزت الحرب كفاءات كانت مغمورة ، فبرزت على الساحة قوى جديدة ورجال جدد . فهذه الظاهرة الحبلى بالامكانيات هي التي مكنت الأمير عبد القادر من توحيد ثلثي البلاد تحت زعامته ومن بناء نواة دولة تفوق في كل النواحي الدولة التي أسسها العثمانيون في القرن السادس عشر ، وكانت هذه الدولة تقدم نفسها على أنها دولة الاسلام والمساواة ، وكان عبد القادر قائدها وامامها وقد خضعت له القبائل وبايعته كأمير للمؤمنين . وقد تمت هذه البيعة تحت شجرة اقتداء بالسنة المحمدية وتذكيرا بنشأة الدولة الإسلامية على يد محمد : **﴿لقد رضي اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعَلِمَ ما في قلوبهم فأنزل السّكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا﴾** (سورة الفتح) .

وهكذا استطاع عبدالقادر أن يصمد في وجه فرنسا التي اعترفت به كقائد مدة 17 سنة (1830 – 1847) . ولكن جيشه انهزم أمام جيش يفوقه عددا وعدة . غير أن الهزيمة لا تعزي الى التفوق العسكري وحده بل الى انعدام اللحمة لدى الجزائريين كذلك . فمختلف العشائر التي كانت تتقاسم الجزائر كانت تعارض كل صبغة سياسية تهدف الى تجميع شتات القبائل وتوجيه كل

القوى في اتجاه واحد . أما الفئات التي كانت مرتبطة قديما بالطبقة الحاكمة العثمانية فقد كانت متخوفة من ظهور الزعامات الجديدة والقيادات الخارجة من صلب القبائل . لذلك كان رؤساء العائلات الكبيرة يخرجون هنا وهناك عن «الجهاد» ملازمين الحياد أحيانا وأحيانا متعاونين مع فرنسا ، متوهمين أنهم بذلك يستطيعون تعزيز نفوذهم والمحافظة على امتيازاتهم ولم تكن التحالفات في هذه الحالة تخضع لمنطق العرق والدين . وكانت فرنسا تداري أعيان المدن وشيوخ القبائل والأرياف في انتظار القضاء على عبد القادر وأحمد باي .

لقد دخل عبد القادر التاريخ كبطل توحيد البلاد . أما خصومه فاعتبرهم التاريخ الرسمي خونة وعملاء . إن هذه النظرة هي في الحقيقة تقييم لواقع جزائر القرن التاسع عشر بمقاييس بعيدة عنها كل البعد . ولعل الحاج أحمد الشريف زهار ، وهو شاهد عيان للاحتلال ، أقرب من الحقيقة حين يقول ، متحدثا عن ردود فعل بعض رؤساء القبائل «إنهم قوم (...) كانوا يظنون أن هذه الحرب لا تختلف عن تلك التي يخوضونها بينهم» .

تاريخيا ، كان موقف القادة الجزائريين يذكر بموقف أمراء بني عبد الواد التلمسانيين في القرن السادس عشر الذين كانوا لا يترددون في طلب الحماية الاسبانية مقابل ضريبة يؤدونها وذلك حتى يأمنوا شر العثمانيين من جهة وسلطان المغرب من جهة أخرى . وهذا يعني أن عمل الأمير عبد القادر ، الذي دخل اليوم الميثولوجيا التاريخية الجزائرية ، لا يعبر بأية حال عن المطامح الوحدوية للشعب بمجرد رفضه النظام الاستعماري ، بل عن مطامح قسم من طبقة الخاصة في المحافظة على الوحدة الترابية التي حققها العثمانيون .

في نظر المعاصرين لم يكن هناك وجود قانوني للشعب الجزائري . فالموجود هو مجموعة من القبائل والمدن الموحدة في اطار دولة وكذلك أمة اسلامية تتجاوز حدودها حدود الجزائر . فاذا تحدثنا عن شعب جزائري قبل سنة 1830 فإن ذلك لا يمكن أن يعني إلا الدولة .

إن الأعيان الذين لم يتبعوا عبد القادر ، سواء بدافع المصلحة أو بدافع

مركب الغرور سوف يدفعون غاليا ثمن تخاذلهم ، ففي مرحلة أولى سيسقطون في مرتبة دنيا ثم سيشملهم في مرحلة لاحقة التدهور والانحطاط العام الذي لحق كل الجزائريين . وازاء هذا الوضع المتردي سيقوم أولاد سيدي الشيخ برد الفعل سنة 1864 وجماعة المقراني سنة 1871 وسيؤدي ذلك الى مجزرة رهيبة ، أدركت كل الأطراف ما تنطوي عليه من مخاطر في المستقبل . فهذا الجنرال لباسي يؤكد : «إن الهاوية التي تفصل بين المعمرين وأهالي البلاد سيأتي يوم يقع ردمها بالجثث» . وهذا سي بن علي الشريف وهو من قبيلة كبيرة ماطلت خلال ثورة المقراني ، يعترف بأنه «مرتاع من مجرى الأحداث ومن الأحقاد المتراكمة والثأر الدفين»[1] .

ثمن الهزيمة

لقد عاش أهالي الجزائر انتصار الفرنسيين كمأساة ، اذ سلبوا عالمهم الذي عهدوه وأصابتهم صدمة كانت آثارها تجدد كل يوم بفعل التبعية التي سقطوا فيها .

المأساة

من بين الأثار المباشرة للحرب ذلك النزيف البشري الهائل نتيجة عمليات التقتيل الجماعي وتخريب الممتلكات والفتك بالمحاربين عن طريق الخنق بالغاز ودفنهم أحياء وتحويل مجموعات من السكان من مناطقهم الأصلية وهجرة الكثير الى ديار الاسلام . كانت الجزائر تبدو على وشك الانهيار، حتى أن بعضهم أصبح يتحدث عن الدمار والفوضى والعودة الى الجاهلية .

كان عدد السكان قبل سنة 1830 يقدر بثلاثة ملايين وفي سنة 1945 لم يبق منهم سوى مليونان . ولم تضعف طاقة المقاومة نتيجة المعارك الضارية فقط بل ساهمت في ذلك الآفات الطبيعية . وقد تضافر الانخفاض العام لمستوى المعيشة وغياب الاحتياطيات ليجعل من أدنى العوامل الطبيعية كوارث حقيقية ، فكانت المجاعات المتلاحقة ، 1867 – 1968 و78 – 1877 و1893 ، وتبعتها أوبئة الكوليرا والتيفوس .

وفي نهاية القرن اكتمل تفكك المجتمع الجزائري . لقد انهار هذا المجتمع تحت ضربات متتالية تمثلت في استحواذ المستعمرين على الأراضي وفي تشتت القبائل . وقد انحل المجتمع الجزائري نتيجة الحركة التي تدفع بالسكان الى مغادرة أريافهم نحو أراضي المعمرين ثم نحو المدن فإلى فرنسا والبلدان المجاورة . وكانت الجماهير الريفية تقبع في حالة من البؤس الرهيب ، لا تفكر إلا في البقاء على قيد الحياة ، ومجابهة المشاكل اليومية .

لقد تحملت هذه الجماهير كل أعباء التفقير العام الذي أصاب البلاد ، ولم يكن هناك من أحد يتكلم باسمها . كانت النخب القديمة ، من أعيان ومشايخ طرق ، مرتبطة بها ارتباطا وثيقا وهي التي تؤطرها طبيعيا ، وتضمن لها الحماية عادة . لكن هذه النخب مع الأسف قد أصبحت في خدمة المستعمر بدافع المصلحة الخاصة . أما النخب الجديدة فكانت القطيعة بينها وبين داخل البلاد أشد وأعمق . كان كل شيء يبعث هؤلاء ، وهم من خريجي المدارس الفرنسية ، على احتقار عالم البؤس والشعوذة الذي يمثله أهالي الأرياف . وكان المجتمع بأكمله يعيش حالة من التشتت والتشرذم . أما المجموعات الجديدة التي ظهرت فكانت مقسمة الى فئات غريبة عن بعضها . وكانت تتألم من الهيمنة الاستعمارية ولكن رؤيتها للمجتمع كانت مبسطة وأقل وضوحا من رؤية جيل الاحتلال .

لقد انفجرت نظرة الجزائريين للعالم المبنية على الدين تحت تأثير الصدمة ونتيجة العجز عن فهم طبيعة الاحتلال . وفي هذا الاطار يقول الشاعر عدة بن بشير متوجها الى الصحابة ومعاتبا اياهم على قعودهم عن نجدة المسلمين :

يوم أحرك الفرنصيص على السلطان لا طلة يا علي وجعفر
اتهانت بعد عزها حرة الأوطان حزني حزني على الجزائر[2]

كانت انتصارات الإسلام في القرن السابع تسيطر على العقول وتجعل الجزائريين يؤمنون بتفوق الرسالة المحمدية . ولئن أثارت نكبة الأندلس في وقتها تساؤلات فهي لم تؤد الى فهم أسباب تراجع الإسلام . وبعد قرون من الصراع المتواصل بين المسيحية والإسلام جاء احتلال الجزائر ليخلق أزمة معنوية وفكرية خطيرة .

فالمثقفون الجزائريون في ذلك العهد كانوا يفسرون انتصار «الكفار» بانتشار الفساد وضعف الايمان ويرون أن طريق الخلاص تكمن في احترام المراتبية الاجتماعية والعائلة والقيم الإسلامية . وكان هذا الموقف وراء ردود الفعل المعادية لفرنسا ووراء «التحجر الثقافي» ازاء الاحتلال .

إن التشبث بالقيم التقليدية يمكن تفسيره بالهزيمة وبتفكك المؤسسات الاجتماعية والثقافية فهو يعكس الحيرة تجاه المستقبل وانطواء الجزائر على نفسها بعد النكسة . ولكن هذا التفسير ليس كافيا وحده . فما لا شك فيه أن العنف الاستعماري يكوّن حاجزا نفسانيا في طريق التقدم وهذه ظاهرة لوحظت في بلدان أخرى . غير أن النظرة الموضوعية للأشياء لا يمكن أن تتجاهل الجمود الذي كان عليه المجتمع الجزائري منذ قرون وطغيان الفكر التقليدي على العقول . فلئن كان التعلق بالتقاليد يغذي حب الوطن وارادة طرد المستعمر الدخيل يوما ما من البلاد ، فان المفاهيم التي يرسخها في العقول وخاصة مفهوم البدعة لا تشجع على التجديد وتجعل دعاة التقدم مترددين .

وخلافاً لما جرى في كل من تونس ومصر ، لم يحاول الجزائريون طيلة أكثر من نصف قرن أن يمتلكوا أسرار الغالبين . وكانت العناصر القليلة التي دخلت المدارس الفرنسية تعتبر من الكفار ومن المارقين على الدين الذين وقعوا في «الفخ الذي نصبه الفرنسيون لدينهم ولبني جنسهم» وكان هؤلاء ، وهم ينحدرون من الفئات الاجتماعية الجديدة ، يجدون أنفسهم عرضة لمناوءة بني وطنهم وعداء المعمرين الذين يعتبرون أن تعميم التعليم سوف يرجع «الجزائر الى العرب» .

وفي هذا الاطار يصعب على المرء أن يجعل من الاستعمار السبب الوحيد لتأخر الجزائريين . فالواقع القومي له نصيبه من المسؤولية .

كيف يمكن أن ننعت فترة المقاومة السلبية ؟ فمن المؤرخين من نعت ذلك بالقومية . ولكن هذا المفهوم في رأينا غير مناسب لأن مناهضة الاحتلال كانت لها أساسا صبغة دينية وثقافية .

الجزائر : مستعمرة استغلال وتوطنين

خضعت الجزائر بحد السيف الى نظام خارج عن تقاليدها فتغير وجهها ولكنها ظلت بلادا فلاحية تتواجد فيها جنبا الى جنب بؤر عصرية ومناطق تقليدية . ولدراسة هذا الوضع سنركز على ظواهر ثلاثة : المجموعة السكانية الأجنبية ، - خصائص الرأسمال الأجنبي ، - التفاوت بين الأوروبيين والجزائريين .

المجموعة السكانية الأوروبية

كان الأوروبيون ، وهم المستفيدون أساسا من النظام الاستعماري ، يشكلون قاعدة هذا النظام في المدن . وقد تدفقت أفواج المهاجرين الأوروبيين على الجزائر منذ سنة 1830 . وكان السكان المسلمون يطلقون عليهم اسم «الروم» (جمع رومي ، وهو البيزنطي) . أو «النصارى» أي أتباع عيسى بن مريم أصيل الناصرة . وكانت هذه الكلمة الأخيرة تثير في أذهان المسلمين ذكرى الصراعات القديمة بين الإسلام والمسيحية .

ومن غرائب التاريخ أن الأوروبيين هم أول من أطلق عليهم اسم «الجزائريين» وقد ظل هذا الاسم يلازمهم طويلا ، أما أهالي البلاد الأصليين فكانوا يُعرّفون «بالعرب والمسلمين والأهالي (indigène) » مع ما في هذه التسميات من نزعة احتقارية أو أبوية .

ولم تكن المجموعة الأوروبية تتميز بانسجام كبير . فقد كان يوجد فيها الفرنسيون الأصليون والسويسريون والأوروبيون الشماليون . لكن أوفر عدد كان يأتي من بلدان البحر الأبيض المتوسط .

ومن بين هؤلاء نجد الاسبانيين بكثرة في وهران ونواحيها والايطاليين والمالطيين في شرقي البلاد . وكان الفرنسيون ينظرون اليهم بشيء من التعالي والاحتقار فيما يرى فيهم المسلمون ورثة أولائك الذين تطاولوا على الإسلام في القرون الماضية . وهؤلاء هم الذين يكونون طبقة «الأقدام السود» (Pieds noirs) ، ويعبر عنهم كذلك «بالصليبيين الجدد» .

أما اليهود ، وهم أقلية دينية محلية ، فقد اعتبروا سكانا أوروبيين حالما أصبحوا فرنسيين بحكم قانون كريميو (1870) ، وكانوا يشكلون مجموعة خاصة على حدة وذلك بحكم النظرة الدينية التي ينظر بها الجزائريون اليهم وبحكم الحملات العنيفة المعادية للسامية التي تعرضوا لها في أواخر القرن الماضي وفي الأربعينيات من طرف «السيقان السود» وأخيراً بحكم تعلقهم بدولة اسرائيل منذ نشأتها .

وشيئا فشيئا تحقق الالتحام بين الأوروبيين ، فكان غير الفرنسيين يعوضون هذا العائق بالتعبير عن تعلقهم الشديد بفرنسا ، وطنهم الجديد . لكن اختلاف المشارب ، رغم كل التغييرات ، كان يقف حائلا دون تحقق الانسجام الكامل ، لا سيا وأن تقسيم العمل كان يطابق غالبا التقسيم العرقي للمجتمع .

لقد غلبت عقلية الفاتحين الأولين على كل الأوروبيين . وهذه العقلية هي التي يعبر عنها الجنرال لموريسيار حين يقول : «يبدو لي أن الحرب ، حين يتعلق الأمر بشعوب متخلفة ، عمل تبشيري خاصة بالنسبة الى أناس لا يعرفون غير السلاح كلغة اقناع ، وانني أعتبر الاحتلال وسيلة كبرى لتوريد الأفكار (...) ففي الحدود الفاصلة بين المدنية والهمجية لابد من وجود رجال يحملون السيف»[3] . فبحكم وضعهم كأقلية ذات امتيازات توحد الأوروبيون بالرغم من الخلافات السياسية والاجتماعية التي تفضلهم . «لقد كانوا كلهم غارقين وسط جماهير المسلمين . ولأنهم كانوا يشعرون بضعفهم أمام هذا العدد الهائل ولأن الاهالي كان يشملونهم جميعا في عداء سياسي وديني ولأن أمنهم في الحاضر وسلامتهم في المستقبل متوقفة على اتحادهم ، وجدوا أنفسهم مضطرين للتقارب والتلاحم . فالخطر الذي يهددهم جميعا خلق بينهم تضامنا فعليا ضروريا»[4] .

كانت العنصرية الفضة متفشية ومسيطرة على العلاقات الانسانية . وكان الجزائريون محل احتقار وخوف في نفس الوقت .. فالأوروبيون يعلمون حق العلم على أي شيء تقوم سيطرتهم كما كانوا واعين وعيا كاملا بالوسائل التي استعملها أجدادهم لاخضاع الجزائريين . وكان الهاجس الذي يقض مضاجعهم

هو خوفهم من أن تدور الدائرة وتنقلب الآية . لذلك كان «الخوف من العربي» راسخا في أعماق العقلية الاستعمارية . وقد أبرز كل من فرانز فانون وألبير ممي في أعمالها الأسس الخفية التي تكمن وراء تحقير المستَعْمَر[5] .

في سنة 1954 كانت أغلبية الأوروبيين تسكن المدن . فـ 77٪ من مجموع 984.000 أوروبي يعيشون في الـ 46 منطقة بلدية ذات الطابع المدني . وفي دراسة عن «الجزائر خلال نصف قرن» وقع انجازها سنة 1952 لدى رؤساء البلديات نبهت السلطات المحلية الى الخطر الذي يمثله ضعف السكان الأوروبيين في الأرياف : «إن عدد السكان الأروبيين في تناقص مطّرد . ففي سنة 1901 كانت مراكز بريفوتفيل وشفرال وأموشاس تيزي مباشر تعد على التوالي : 472 ، 385 و118 أوروبيا ولم يعد بها اليوم سوى 125 ، 50 و56 . فلن نكون مبالغين اذا قلنا أن كل المعمرين سينقرضون خلال الثلاثين سنة القادمة»[6] .

نجد نفس الظاهرة في مركز كلرمان حيث بقيت حوادث ماي 1945 ماثلة في الأذهان : «بالنسبة للأوروبيين الذين يعيشون في هذا المركز والمتوزعين على ثلاثين عائلة التحق كثير منها بمدينة قالمة ، يبدو المستقبل مظلما . انهم يشعرون بالذوبان داخل الأهالي الأصليين المحيطين بهم ولا يخفون تشاؤمهم . ان كلرمان مركز يحتضر»[7] .

وأمام فشل الاستعمار الفلاحي ، لم يتردد بعض المسؤولين في الادارة الفرنسية في المطالبة باعادة توطين الأوروبيين في الأرياف . «إن الأوروبيين لا يؤمنون بالمستقبل (...) لذلك فإن عملية توطين جديدة تبدو ضرورية» (قلعة بوسبع) . «ان الحكومة تستطيع بواسطة الدعاية والمساعدات المالية ، أن تساهم في جلب عدد هام من الفرنسيين الذين يرغبون في مغادرة قراهم وأريافهم ويمكن ذلك تقديم قروض لكل العائلات التي تريد الهجرة . ان الزيادة في عدد السكان الأوروبيين يشكل عامل توازن من شأنه أن يساعد على تقهقر الأفكار الوطنية . فالأمر لا يتعلق بتوزيع الأراضي بقدر ما يتعلق بالاستقرار فيها

وتعميرها . ويمكن القيام بحملة دعائية لتحسيس كبار المعمرين حتى يتبرعوا بقسم من أراضيهم . ويجب كذلك الاستعانة بالبنوك لرصد الأموال مقابل ضمان الحكومة . ونحن مقتنعون أنه لو يتم القيام بعمل من هذا النوع فان الجزائر بأسرعها ستصبح فرنسية قبل عشر سنوات ، وستحل كل المشاكل المطروحة»[8] .

لكن سياسة التوطين لم تعط آخر الأمر النتائج المرجوة وظل الأوروبيون في أغلبيتهم الساحقة يسكنون التل (السواحل) وكان 40٪ منهم يقطنون بالجزائر ووهران . أما في داخل البلاد فكانوا يشكلون مجموعات متفرقة .

خصائص الرأسمال الاستعماري

لقد أحدث الاستعمار الفرنسي قطيعة في تطور المجتمع الجزائري .

فنظام الأراضي والمعاملات والمبادلات أصبحت تخضع لمبادىء الرأسمالية . ونتج عن تحطيم البنيات الاجتماعية التقليدية تحرير مجموعة هائلة من اليد العاملة المستعدة لبيع قوة عملها . ان ادخال قطاع عصري مرتبط ارتباطا وثيقا بالاقتصاد الفرنسي ومدعم بالوجود الأوربي قد ولّد وضعا متفجرا . وإذا كان هذا القطاع يتميز بسيطرة اقتصاد السوق فان الاطار الذي تطور فيه يختلف تماما عن الوضع في أوربا . فكل عوامل التغيير مستوردة ودخلية على البلاد .

إن الرأسمال الاستعماري كان في الظاهر فقط رأسمالاً ليبراليا يعتمد حرية السوق والتنافس . ففي الواقع كان العامل السياسي هو المسيطر فيه وكانت الدولة تلعب دورا أساسياً في سير النظام ودعمه والدفاع عنه . فالدولة هي التي تشرف على انتزاع الأراضي وتقسيمها وتوزيعها على الأوربيين وهي التي تمدهم بالقروض والمساعدات . وهي التي فرضت على الجزائريين حتى سنة 1928 نظاما اداريا زجريا (قانون الأهالي) للقضاء على كل معارضة منهم . وهي أخيرا التي قامت بارساء القاعدة الضرورية لبناء الاقتصاد الاستعماري

(طرقات ، سكك حديدية ، موانيء ... الخ) وباتخاذ كل الاجراءات التي تستجيب لمصالح الأوروبيين .

إن الدولة الاستعمارية لم تكن تقوم فقط ببناء عالم جديد ، لقد كانت تهدم مايحلو لها أن تهدم وتحافظ على ما يتماشى ومخططاتها . كانت الطاقات البشرية والتمويلات والتقنيات مسخرة لإحياء التل (السواحل) حيث بعثت المراكز الرأسمالية الأولى . وكان ازدهار هذه المشاريع يرتكز على استغلال المناجم والسوق الجزائرية لفائدة البنوك والرأسماليين الفرنسيين ، وعلى الفلاحة التصديرية (الخمور والغلال) التي كانت بيد المعمرين . أما المناطق النائية فكانت تشهد ركودا وتدهوراً . وفي سنة 1954 كانت الجزائر تعد 8.460.000 نسمة من بينهم 5.450.000 أي 73٪ يعيشون في الريف و1.850.000 في مراكز المعمرين و1.430.000 فقط يعيشون في المدن . إن الاقتصاديين المختصين يصفون وضعية الاقتصاد الجزائري في العهد الاستعماري بأنها ثنائية . وفي الواقع فإن هذا التعبير فيه شيء من المغالطة ذلك أن قطاعي الاقتصاد الجزائري غير مفصولين عن بعضهما . فالقطاع الرأسمالي وهو أوربي أساسا ينمو ويترعرع باستغلال القطاع التقليدي المتمثل في «جزائر الجزائريين» وذلك بواسطة الهيمنة السياسية وقانون السوق والعنف . أما الهياكل التقليدية فقد أفرغت من محتواها ولم يبق لها من معنى سوى المحافظة على العقلية القديمة التي تربط جزائر الأمس بجزائر اليوم .

ولتدعيم سيطرتها على الأهالي ، وهم كما رأينا أساسا من سكان الأرياف ، كانت الدولة تعتمد على الأعيان[9] ورجال الدين ومشايخ الطرق ، أي الأعمدة التي كان يرتكز عليها النظام القديم . وكان هذا التحالف «غير المتكافيء» يقوم على الولاءات وعلى تبادل الخدمات .

وفي مجتمع لا يلعب فيه رأس المال دورا اقتصاديا فحسب بل كذلك دورا اجتماعيا . كان الأعيان ومشايخ الطرق يهيمنون على المجتمع الريفي ويدعمون نفوذهم بتوفير الامكانيات المادية الكفيلة بجلب الأنصار والولاءات .

وكانوا مقابل ما يتمتعون به من امتيـازات يقومون بـاستخلاص الضرائب التي يحتفظون بجانب منها لفائدتهم ويسبغون الشرعيـة على النظـام القـائم ويلعبون دور الوسيط بينه وبين الأهالي .

وهكذا فإن قبول الأهالي الريفيين للوضع القائم لا يتوجـه الى فرنسـا أي الى «الكفـار» ، بل الى الوسطـاء الجزائريين ، بني جنسهم الـذين يشـاطرونهم نفس القيم .

لقد ساهم التواطؤ بين الدولة الاستعمارية وعائلات الأعيـان أيمـا مسـاهمـة في الابقاء على التقـاليـد الجزائريـة ، تلـك التقـاليـد التي سوف تقـدسهـا الشعوذة السيـاسيـة فيما بعـد تحت اسم «الأصـالـة» . فهـذه التقـاليـد التي ترفع من قيمـة علاقات الولاء والتبعية وقفت حائلا دون انتشار مبادىء الرأسمالية .

وكما كان الأمر في السابق فإن الارتباط بالدولة ، وهي مصدر الشهرة والنفوذ والثقل الاجتماعي ، يبقى محط آمال كل من يطمح الى الجاه والثروة .

وكما كان الشـأن في السـابـق فـإن نشـاط الأعيـان يكاد ينحصر في جبـايـة الضرائب . فحسب بيتر فون سيفرز الذي درس الموضوع بجـديـة ، كان التنظيم الاقتصادي للطبقة العليا الريفية في الجزائر حتى الحرب العالمية الأولى «جبائيـا غير منتج» .

فـداخيـل هـذه الطبقـة تحصـل من «الريـع والعمـولات والضرائب» ، أمـا استثمـاراتهـا فتتجـه الى «العقـارات الريفيـة والمـدينـة وكراء ضيعـات الـدولـة والمشاريع التجارية في الريف والمدينة»[10] .

وفيما يتعلـق بـأراضيهم (في سنـة 1954 كانت هنـاك 8499 ضيعـة ، معـدل مسـاحة الواحدة 200 هكتار) فإن أعيان الريف قد أدخلوا عليهـا شيئـا فشيئـا الآلات الحديثة ولكن تسييرهـا لم يكن يخضع تمـامـا للنمـط الرأسمالي . فـالعمال الفلاحون الذين يعملون عندهم لم يكونوا أجراء بـالمعنى الحـديث لا في طريقـة انتدابهم ولا في طريقة استخلاصهم أجرتهم . كانوا يعملون مجانـا مقـابل منحهم أرضا يزرعونها أو كميات من المؤونة السنوية .

ومجمل القول أن التحالف بين الاستعمار والقوى المحافظة المتركبة من بعض العائلات على المستوى المحلي والجهوي قد عاق تطور القوى الجديدة التي نشأت في ظلّ الاستعمار : البورجوازية والبروليتاريا وتلك الشريحة الوسطى التي يأتي منها «المثقفون المنتمون» حسب مفهوم غرامشي (محامون ، أطباء ، موظفون ، طلبة ، ضباط وضباط صف في الجيش الاستعماري) .

ومن مهازل التاريخ فإن النظام الاستعماري الذي يدّعي أنه جاء ليقود الجزائريين نحو التقدم قد اعتمد على قوى اجتماعية تقليدية لا تحظى بأي تمثيل قوي لا على المستوى السياسي (فهي لا تشكل حزبا قوميا) ولا على المستوى الجغرافي (نفوذها لا يتجاوز حدود جهتها) .

•التفاوت بين الأوربيين والجزائريين

هيمنة المعمرين السياسية

كانت الديمقراطية حكراً على المعمرين وحدهم . فالفلسفة السياسية للاستعمار ، كما قدمها سنة 1903 أستاذ القانون بكلية الجزائر ، ايميل لرْشي تقول : «إن وضع الفرنسيين اليوم بالجزائر شبيه بوضع الافرنج في غاليا القديمة : جنس غالب يفرض هيمنته على جنس مغلوب . هناك إذاً أسياد ورعايا ، أصحاب امتيازات وأناس لا امتيازات لهم : فلا محل هنا للمساواة»[11] .

فكل مؤسسات الجزائر الاستعمارية مستوحاة في هذه الأفكار .

منذ سنة 1848 فرضت الجمهورية الثانية الاقتراع العام في المستعمرات وأقرت للأوربيين صفة المواطنة ومنحتهم حق التمثيل في البرلمان وجعلت من شمال الجزائر «مقاطعات فرنسية» . أما الأمبراطورية الثانية فإنها قامت بمراجعة هذه السياسة وفكرت في انشاء مملكة عربية ، وبعد سقوط هذه الأمبراطورية فرض المعمرون سنة 1881 على الجمهورية الثالثة نظام الارتباط بفرنسا . وبذلك خرج مصير الجزائر من أيدي العسكريين وحقق المعمرون انتصاراً كبيراً .

كان التفاوت والتمايز هو القاعدة اذن . ولم يكن للجزائريين بوصفهم رعايا

الحق في الاقتراع ولا المشاركة في انتخابات المجلس الوطني . وكان تمثيلهم في المجالس الجزائرية منقوصاً . وعلى المستوى الجزائري كانوا يستهدفون لمجموعة من الاجراءات الاستثنائية تعرف باسم «قانون الأهالي» .

ورغم التعديلات العديدة التي أدخلت على المؤسسات فإنها بقيت غير عادلة في أساسها .

ثم ان قوانين 1898 و1900 منحت الجزائر الشخصية المدنية وسنت لها مجلسا نيابيا منتخبا ونيابات مالية (48 نائبا أوربيا من 24 فلاحين و 24 غير فلاحين و 21 نائبا جزائريا موزعين على قسمين ، قسم عربي وقسم قبائلي) . أما السلطة التنفيذية فقد أسندت الى الحاكم العام الذي يمثل فرنسا ويرجع بالنظر الى وزارة الداخلية . وسيبقى هذا النظام قائما الى سنة 1947 حيث سيقع تعويضه بما عرف بـ «قانون الجزائر» .

اداريا كانت الجزائر مقسمة ، على المنوال الفرنسي ، إلى مقاطعات ومحافظات وبلديات . لكن كانت هناك اختلافات هامة مع النظام الفرنسي . فالبلديات كانت على نوعين :

- بلديات ذات صلاحيات كاملة وهي التي يسكنها الأوربيون أساسا .
- بلديات مختلطة وأغلبية سكانها من الجزائريين ويديرها موظف فرنسي يساعده قائد .
- مناطق الجنوب وتخضع للادارة العسكرية .

وهكذا فإن النظام السياسي والاداري يكرس تفوق الأوربيين . ثم إن الجزائر كانت موجودة كدولة ولكنها دولة ذات طابع استعماري .

فالاستعمار المبني على علاقة غير متوازنة بين شعبين خلق وضعا كل شيء فيه يساهم في طمس الفروق الاجتماعية وابراز الفروق العرقية . فالمستغل والرأسمالي بالنسبة للجزائريين هو قبل كل شيء المحتل الأجنبي ، ذلك أن الحيف والميز الذي يتعرضون له جماعيا هو الذي يسيطر على عقولهم قبل غيره . وبدون أن نبرر الأيديولجيات التي تخلط بين التناقضات الاجتماعية والتناقضات العرقية أو

تجعل من كل الجزائريين شعبا - طبقة فإنه يبدو لنا ضروريا من الناحية المنهجية ابراز المعطيات التي ترتكز عليها القومية الجزائرية .

المسألة الفلاحية

كانت أجود الأراضي ، 16٪ من المجموع ، بين أيدي الأوربيين ، 93.000 منهم فقط كانوا يعيشون من الفلاحة ، «ان المعمر ليس مجبولا على الفلاحة . فهذه الملاحظة المدهشة تفسر فشل النموذج الاستعماري الرسمي للقرن التاسع عشر المركز على الاستيطان الفلاحي»[12].

كان الأوربيون في سنة 1954 يملكون 22.037 ضيعة مساحتها 2.726.000 هكتارا ومنتوجها يمثل 66٪ من جملة الانتاج الفلاحي و55٪ من جملة المنتوج الجزائري . وكانت مداخيلهم تبلغ 93 مليارا من الفرنكات . وكانت الفلاحة الأوربية تعمل من أجل السوق (3 الى 4٪ فقط للاستهلاك الذاتي) . أما الجزائريون فكانوا يستغلون 630.732 ضيعة ، 20.000 منها تستغل حسب الأساليب الرأسمالية و70٪ منها لا تفي بحاجة مستغليها . أما كمية الحبوب المرصودة فقد انخفضت من 5 قناطير سنة 1871 الى 2,5 سنة 1940 . وفي سنة 1954 كان دخل الفلاح الجزائري يبلغ 17،691 فرنكا مقابل أكثر من 800.000 فرنكا للمعمر .

وكان انخرام التوازن بين الفئتين يتفاقم من حيث المساحات المزروعة والمداخيل . أما عدد العمال الفلاحين فكان في الأرياف 12.000 عاملا بينما كان عدد العاطلين يتجاوز المليون . وهكذا فإن المسألة الفلاحية تحتل الصدارة في الملف الجزائري . «في دوار بني بوخناوس مثلا كان 947 فلاحا من جملة 1110 يملكون أقل من 5 هكتارات (يعني أقل من الكفاية) و5 فقط يملكون أكثر من 20 هكتاراً»[13].

ثم أن المعمرين كانوا وحدهم الذين يتمتعون بالقروض ويحتكرون التجهيزات وذلك بفضل سيطرتهم على الميزانية التي لم يكن ينال منها البورجواريون الجزائريون إلا الفتات . أما الفلاحون فكان دورهم يقتصر على دفع الضرائب ،

«في أكتوبر 1952 لم تتحصل الشركة المحلية لاقراض الفلاحين بمعسكر الا على 2.500.000 فرنكا ، بينما كانت المبالغ التي طلبها الفلاحون تقدر بـ 16 مليونا من الفرنكات . كيف يمكن في هذه الحالة توزيع هذا المبلغ ؟ لقد وزعت قروض تتراوح بين 10.000 و15.000 فرنكا»[14].

وهكذا فإن ضعاف الحال من الفلاحين تلفظهم أجهزة القرض الرسمية فيقعون فريسة للمرابين ، هذا بالاضافة الى تعرضهم الى عسف القياد وحراس الغابات .

ومع أن وضعية الفلاحين التعيسة ناتجة عن تجزئة الأراضي وقلة جودتها وعدم توفر رؤوس الأموال والجهل ، فإن المعمرين ، رغبة منهم في الحفاظ على سيطرتهم ، يحكمون على الفلاحين انطلاقا من عدم قدرتهم على التأقلم مع الرأسمالية . فهم غير قادرين على فهم أن ضعف انتاجية العمل وقلة المتاجرة واحتقار الربح هي خصائص مجتمع همه المحافظة على توازنه . ومن هنا جاءت تلك الأحكام العنصرية .

«إن العربي لم يتطور الا قليلاً . لقد ظل متعلقا بتقاليده وبحقله الصغير ذي الانتاج الضعيف ، قانعا بحياة بائسة . فهكذا كان يعيش أجدادهم وهم راضون عن أنفسهم باقتفاء أثر أسلافهم . فهم في أغلبيتهم لا يبذلون أي جهد ليغيروا ما هم عليه ، مسلمين أمرهم للّه ولسان حالهم يقول : «إن أبناءنا سيكونون مثلنا» .

«إلا أن أقلية منهم تبلغ حوالي 10٪ قد تطورت وازدهرت ، فأفرادها يملكون الضيعات والمواشي ويبعثون أولادهم الى المدارس الابتدائية»[15].

التفاوت في قطاعي الصناعة والخدمات

إن الهيكلة المهنية للأوربيين تبين أن أغلبيتهم من سكان المدن . فـ 34٪ منهم يعملون في القطاع الصناعي كإطارات وعمال وحرفيين و50٪ في قطاع الخدمات ما بين موظفين وأصحاب مهن حرة وتجارية .

وكان الأوربيون يوفرون 93٪ من الاطارات العليا و83٪ من الفنيين و86٪ من أعوان الوظيفة العمومية . أما العمل غير المختص فكان من نصيب الجزائريين الذين كانوا يشكلون 95٪ من العمال اليوميين و68٪ من العمال قليلي الاختصاص و17٪ من الفنيين و7٪ من الاطارات العليا .

وكانت الهوة التي تفصل بين الجزائريين والأوربيين موجودة على جميع المستويات . فلو أخذنا مثلا المؤسسات الاقتصادية لوجدنا أن نصيب 100.000 مؤسسة جزائرية يقدر بـ 33 ملياراً من الفرنكات بينما تبلغ مداخيل 65.000 مؤسسة أوروبية 375 ملياراً . كما أن 90٪ من النشاط التجاري والصناعي يبقى بيد الأوربيين . فحسب تقرير مسبتيول بلغت الاستثمارات الخاصة المنجزة في الجزائر 4500 ملياراً كانت حصة الجزائريين فيها 8٪ .

وهكذا نرى أن الأوربيين يحتلون الصدارة في الجزائر خلافا للأسياد الحقيقيين للاقتصاد الجزائري الذي يحركون الخيوط في الخفاء انطلاقا من فرنسا .

التغريب الثقافي

كان الإسلام قبل الاحتلال الفرنسي لا يفرق بين الأمور الدينية والدنيوية ولم تكن الثقافة بمعزل عن الدين وكان التعليم مركزا على علوم الدين ولا يهتم بالتقنية والعلوم العقلية ولكن عدد المتعلمين لم يكن أقل مما كان عليه في أوربا اذ كان يبلغ 40٪ من السكان .

فالاستعمار بحكم مبادئه العلمانية لم يكتف بعلمنة المجتمع بل تجاوزها الى حل كل المؤسسات الثقافية والاستحواذ على الأحباس (الأوقاف) والسيطرة على الشعائر الدينية وتضييق الخناق على اللغة العربية .

كان الفصل بين الدين والدولة يطبق على المسيحية واليهودية ولا يطبق على الإسلام ، فكان الأئمة والمفتون وغيرهم من رجال الدين تُعيّنهم الادارة الاستعمارية وتعزلهم . وباسم هذا التدخل في شؤون المسلمين صدر منشور ميشال سنة 1934 لمنع «العلماء» من الخطبة في المساجد .

أما اللغة العربية المضطهدة فقد وقع اعتبارها لغة أجنبية سنة 1939 ولم يقع اصلاح هذا الحيف الا بعد الحرب العالمية الثانية حيث نص الفصل 57 من «قانون الجزائر» الصادر سنة 1947 على أن «اللغة العربية ، باعتبارها إحدى لغات الاتحاد الفرنسي (هكذا كان يعبر عن الامبراطورية الفرنسية – المترجم) تخضع لنفس التراتيب التي تخضع لها اللغة الفرنسية فيما يتعلق بنظام الصحافة والمنشورات الرسمية أو الخاصة الموزعة في الجزائر» .

«وتدرس اللغة العربية في الجزائر في جميع مراحل التعليم» .

«أما تطبيق هذه التراتيب فتخضع لقرارات المجلس الجزائري وتنفذ حسب الطريقة المنصوص عليها بالفصل 150 فقرة 16 من هذا القانون» .

غير أن هذا النص لم يدخل حيز التطبيق الى حد سنة 1954 . ذلك أن نقابة المدرسين الفرنسيين كانت تعارضه بدعوى «المس بالثقافة الفرنسية» .

وهناك أسطورة عنيدة ساهمت القومية الجزائرية في الترويج لها تدعي بأن الثقافة الفرنسية في الجزائر حلت محل الثقافة العربية الإسلامية . وإذا كان لا جدال في أن اللغة الفرنسية كانت مهيمنة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإن الأرقام تؤكد بصفة جلية أن تأثير الفرنسية كان محدوداً جداً اذ أن 85٪ من السكان كانوا أميين . وبين احصاء سنة 1954 أن هناك 302.000 طفلا في سن الدراسة يوجد من بينهم 1.900.000 فقط في المدارس وأما في المعاهد الثانوية فنجد 6260 تلميذا بينما لا يتجاوز عدد الطلبة 1700 طالبا منهم 589 في جامعة الجزائر . «وفيما كانت نسبة الطلبة بين الأوربيين ا لكل 227 ساكنا فإنها بالنسبة للجزائريين لا تتجاوز 1 لكل 15.341 ساكنا»[16] .

ولو قارنا الوضع بما كان عليه في تونس التي لم يدخلها الاستعمار إلا سنة 1881 والتي كانت عدد سكانها أقل بثلاث مرات من سكان الجزائر لتبين مدى التفقير الثقافي . يؤكد بيار بوابي بهذا الصدد أن الجزائر كانت تعد ، سنة 1951 ، 78 محاميا مقابل 184 لتونس و75 طبيبا مقابل 153 و36 صيدليا

مقابل 49 وحوالي 20 مهندسا ونفس العدد من المستشارين لدى المحاكم و4 أو 5 قضاة و100 أستاذ وضابط»[17].

ومن هنا يتضح أن الحق في التعليم الفرنسي الذي طالب به الجزائريون منذ سنة 1919 بعدما تنكروا له طويلا ، ورفضوه مازال صعب المنال .

أما النظام التربوي القديم فقد وقع تحطيمه ولم يبق منه سوى بعض الآثار بلا جذور . أما النظام الجديد فإنه ظل مقتصراً على فئات هامشية ولم يتعمم. وهكذا فإن الانسجام بين الثقافتين ، الفرنسية والعربية - الإسلامية ، لم يتحقق بل بقيتا متعارضتين ، وفي أحسن الأحوال متعايشتين . أما الامكانية التي أتيحت لمجموعة ضيقة للالتحاق بالتعليم الفرنسي فإنها لم تحقق سوى تأقلما محدودا كايدل على ذلك الصدام المتكرر بين العقليات المختلفة .

ومهما يكن من أمر فإن التأقلم لا يعني قبول الثقافة الفرنسية ، بل هو محاولة للخروج من حالة التردي التي وصلت اليها البلاد .

إن المسألتين الفلاحية والثقافية وكذلك البطالة والميز العنصري تشكل البعض من العناصر التي يرتكز عليها التيار المناهض للاستعمار . ولكن معاداة الاستعمار كانت تقترن أحيانا في بعض الأوساط برغبة صادقة في أن يتم توخي سياسة تسمح للجزائريين بالتعبير عن صداقتهم لفرنسا دون أن يشعروا بحرج في ذلك .

الأيديولوجيا الاستعمارية

إن الأيديولوجيا الاستعمارية ، سواء اكتست شكل الليبيرالية أو العلمانية أو المسيحية أو الاشتراكية أو حتى الشيوعية ، تبقى جذورها عميقة في الثقافة الأوربية التقليدية . ونجد أثرا لذلك في كتب التاريخ[18] والخطب الرسمية . ويكفي أن نقرأ مثلا خطابات جول فيري والأسقف لفيجري وفي مولي والجنرال دي غول أو موريس توريز لنجد في أقوالهم حول الجزائر الدليل على أن منهلهم واحد .

فأوربا ، موطن الحضارة العقلانية والتقنية هي الأنموذج والمرجع الذي يـدور حوله تاريخ الانسـانيـة وعلى حـد قول راوول جيراردي كانت «هـذه القنـاعـة تطغى على كل الخلافات السياسية والأيديولوجية والدينية . فهي تقترن لـدى الرأي العام المسيحي المحافظ بالدين المسيحي ، الـدين المنزل الوحيـد ، وبـالقيم التي يدافع عنها ، ولدى الرأي العام الجمهوري بالثقة في العلم والتقـدم وقيم ثورة 1789 . وهكـذا فـإن الغرب بـالنسبـة للأولين يتمثـل في المبشر المسيحي الـذي يحمل الخلاص لبقية العالم وبالنسبـة للثـانين في الادارة والطبيب والمعلم وهؤلاء يحملـون العـدل والمسـاواة والعلم والنضـال ضـد قـوى التعسف والاضطهـاد . وبالنسبة لهم جميعا فـإن الغرب يمثل النور أمـام الظلمـات . ومن هنـا جـاءت فكرة التفـاوت بين الأجنـاس والتفـاضـل بينهـا كإحـدى المسلمـات الأساسية ...»[19] .

وبناء على هذا فإن المجتمع الجزائري يعتبر متخلفا بـالنسبـة لبعضهم ومتوحشـا بالنسبة للبعض الآخر كما أن الجزائري يعتبر مجبولا على الفساد وكسولا وخبيثـا لا أخلاق له ... الخ . لذلك نرى المعمر مهما كانت وضعيته الاجتماعية يستعمل نفس الخطـاب الـذي كانت تستعملـه البورجوازيـة الفرنسيـة في القرن التـاسع عشر تجاه «الطبقات الخطيرة» .

عبادة الدولة – الأمة

إن تأليه الدولة والمركزية يحدد كل الأحكام حول البنيات الجزائريـة القـائمـة قبل 1830 . كانت العلاقة بين المركز والعالم المحيط به في الجزائر قبل الاستعمار قـائمـة على الـولاء أكثر منهـا على نظـام اداري مراتبي . فبـالنسبـة لليعقـوبي (Jacobin) الفرنسي كل مـا لا يخضـع لمركـز مـوحـد يعتبر شـذوذا . وفي هـذا المستوى فإن الايديولوجيـا الاستعماريـة تستلهم التجربـة الفرنسيـة وتسعى الى تحقيقها في الجزائر . يقول أنـدري سيقفريـد «إن السلت (Le Celte) ليس رجل الانضباط الطوعي (...) فيكفي أن تتراخى الدولة عن ممـارسـة رقـابتهـا أو أن تفقـد سلطهـا ليجـد الوسـط نفسـه غير قـادر على الانضبـاط الـذاتي ...»[20] . ويكفي تعويض السلت بـالعربي أو البربري لنعثر على مفتـاح الأيـديولـوجيـا

الاستعمارية في الجزائر. واذا كانت الأيديولوجيا اليعقوبية غير عنصرية في الأصل فإن المواجهة بين المجتمعين الجزائري والفرنسي بمؤسساتها وقيمها المختلفة ، جعلتها في موقف قوة واضح وهو موقف غالبا ما يولد العنصرية ، فالأيديولوجيا الاستعمارية مع تمجيدها للمركزية لم تلجأ إليها لتوحيد المجتمع الجزائري الذي كان رغم الرابطة الدينية متعدد اللهجات والتقاليد والتجارب الانسانية . ومن هنا ظهر ذلك التاريخ المزيف والأسطورة القائلة بأن الجزائر تتكون من خليط من الأجناس لا لحمة بينها ومعادية لبعضها البعض . فالحضر يعارضون البدو والعرب يعادون البربر وخاصة منهم القبائل : «إن أسطورة القبائل : ذلك الابتكار اللاعقلاني الذي وضعه علماء مزعومون بدعوى عداء الجنسين لبعضها ... كانت ترمي الى احتواء سياسي واقتصادي»[21]. وقد خاب هذا المسعى ولم يتم ذلك الاحتواء لكن خلق عند الناطقين بالعربية ردود فعل «يعقوبية» كانت لها مضاعفاتها بعد الاستقلال .

إن الكشف عن مسلمات الأسطورة الاستعمارية يسلط الأضواء على الجوانب الغامضة من نظرية الانصهار . فهذه النظرية تبرر في نفس الوقت المساواة والتوافت . المساواة لأن الانسانية واحدة وتاريخها يسير باستمرار في اتجاه الحضارة والتفاوت لأن التقدم هو وحدة قياس الزمن لدى مختلف الشعوب .

فالجزائر في نظر المستعمر متاع بدون صاحب وهي ضيعة فرنسا . ففرنسيو الجزائر كانوا يعرفون من خلال الصراع الذي يخوضونه ضد طبيعة قاسية سيطروا عليها بفضل مجهوداتهم ووسط معاد ، وضد «العرب» الذين يفكرون دائما في هدم ما تم تشييده . ومن هنا فان الايديولوجيا الاستعمارية بالاضافة الى الفكرة القائلة بتعارض نمطين من النشاط الاقتصادي تقدم فكرة أخرى أكثر واقعية وهي الفكرة التي تعتبر الجزائري عدوا لأنه لم يتخل عن بلاده ولا يمكن القضاء عليه . وكان المنظرون الاستعماريون يعلمون حق العلم أن المسألة القومية تأتي في مقدمة كل المسائل .

الشرعية الاستعمارية

إن تبرير الاستعمار يرتكز على مبادىء ظهرت في أوروبا وفرضت بالقوة

على البلدان المستعمرة . فالحكومة الفرنسية مثلا لم تكن ترى أن حقوق فرنسا في الجزائر تقوم على الاحتلال ؛ «لأن ذلك يعني أن البلد المحتل كان يتمتع بسيادة واستقرار وتنظيم سياسي مستقل ، وهذا لم يكن موجودا في الجزائر التي لم تكن أبدا دولة مستقلة بل كانت دائما خاضعة لسيادات أجنبية (الرومان ، الوندال ، البزنطيين ، العرب والأتراك) وكانت عند احتلالها من طرف فرنسا في حالة فوضى ... فحتى لو فرضنا خطأ أنه احتلال ، فيجب الاعتراف بأنه كان في مصلحة كل الأمم المتحضرة وأنه نال شرعيته بموافقة كل السكان عليه»[22] .

كانت الجزائر اذا معتبرة من «الأراضي التي يجوز تملكها» شأن بقية البلدان «التي لا تخضع لسيادة منظمة ، سواء كانت خالية من السكان أن مسكونة من طرف مجموعات محلية متوحشة غير منظمة سياسيا» لكن «ليصبح الحوز تملكا فإن القانون الدولي يشترط أن يتم على مرأى ومسمع من الدول الأخرى» . إن الحوز لا جدال فيه لأن «هناك مليون من الفرنسيين من الوطن الأم مستقرون في الجزائر» ولأن كل الدول العظمى على علم باحتلال الجزائر «وقد أعطت موافقتها» .

وأخيرا «فإن فرنسا قد اكتسبت الجزائر اكتسابا شرعيا بالتقادم» . وهي طريقة تملك يقرها القانون الدولي «إذا توفرت شروط أخرى وخاصة مصادقة الأهالي ولو بصفة ضمنية . واذا اقترنت هذه المصادقة بمرور فترة من الزمن فيمكن اكتساب الحق بالتقادم»[23] (le Fur: Précis de droit international) .

إن صحة هذه الحجج القانونية – التاريخية ، التي لم تكن تعبر في الواقع الا عن ميزان القوى في وقت معين لا تهمنا كثيرا لأن التاريخ قد حكم عليها بما نعرف . ان ما يهمنا في هذا النوع من السيطرة الاستعمارية هو نتائجه على مستقبل الجزائر . فالنظرية الاستعمارية نفسها تقول أن وضع الحماية أو المستعمرة هو وضع وقتي من المفروض زواله في يوم ما . إن خضوع المستعمَر للمستعمر المبني على الفرق في الحالة الاجتماعية ليس نهائيا ولو أن المستعمر

يعتقد أنه يحتفظ وحده بحق تعيين ساعة التحرير . أما فيما يخص الجزائر فان القانون الفرنسي يؤكد على الطابع النهائي للعلاقة بين البلدين ويرفض كل تطور خارج الاطار الفرنسي . إن هذا الاطار القانوني يلغي كل مبادرة جزائرية . فاعادة النظر في هذا الوضع تتطلب العنف الشرعي وبالتالي العنف الثوري من طرف المضطهدين .

ثم إن القيم والآمال الاستعمارية قد أبرزت تفاهة الأفكار الاشتراكية والشيوعية المناهضة لاستغلال صغار المعمرين والأجراء الأوربيين من طرف رأس المال والتي كانت في نفس الوقت مفعمة بالعنصرية ومتأثرة بالنظريات السائدة حول تفوق الأوربيين .

كان هناك اذا الى جانب الخطاب الاستعماري التقليدي ، خطاب استعماري يساري وان كان لا يعتبر نفسه كذلك . انه وريث الفكر الانساني الفرنسي لثورة 1789 الذي كان يرى نفسه مؤهلا لتحرير الشعوب بالقول وبالعمل . «إن ضرورة الاستفادة من عودة الشعور بالعظمة الفرنسية لانتداب نخبة من الشباب بعد الحرب للعمل في الوظائف المتوفرة في المستعمرات أمر لا يحتاج الى توضيح (...) ومن الايمان بفكرة الحضارة والتحمس لها يمكن أن تنشأ عزيمة تبشرية لدى آلاف الرجال الجدد القادرين على تحقيق الانجازات الضرورية والعظيمة التي سيقوم بها المجلس التأسيسي»[24] .

إن العديد من المعلمين والموظفين الفرنسيين كانوا يقيمون مهمتهم من هذه الزاوية .

هوامش

(1) ذكره : C.R. Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine, P.U.F., 1979, p. 16.

(2) أورده علي النور . أنظر : L'émergence de la notion de patrie. Colloque sur la naissance et le développement de la classe ouvrière dans les pays arabes (Alger, décembre, 1978).

(3) أورده : P. Chalmin, Un aspect inconnu du Général Lamoricière - Actes du LXXVIIIème congrès des Sociétés Savantes, Paris, 1954, p. 334.

(4) أنظر : Victor Demontes, L'Algérie économique. Tome II, Alger, 1923, n° 452.

(5) أنظر : A. Memmi, Portrait du colonisé, précédé du portrait du colonisateur, Petite Bibliothèque Payot, 1973, et F. Fanon, les damnés de la terre, Maspero, 1963.

(6) أنظر : L'Enquête du demi-siècle (Janv. 1954). Doc. inédit., Rapport des autorités locales de Takitouat, p. 65.

(7) Idem. Rapport des autorités locales de Kellerman, p. 69.

(8) نفس المصدر : Rapport des autorités locales de Meskiana, p. 69.

(9) منذ نهاية القرن لم يعد الاعيان ينحـدرون من العـائلات الكبيرة المسيطرة قبل الاحتلال ، لكن مهما كان أصلهم فهم كظاهرة إجتماعية يجمعون بين الثروة والعلاقات الشخصية والتواطؤ مع الاستعمار .

(10) أنظر : Peter Von Sivers, "Le Capitalisme fiscal en Algérie" in Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, 35e année n° 3 et 4, mai-août 1980.

(11) أنظر : Ph. Lucas et J.C. Vatin, L'Algérie des Anthropologues, Maspero, 1975, p. 42.

(12) أنظر : Yves Gauthier et Joël Kermane, Naissance et Croissance de la République Algérienne Démocratique et Populaire, Ed. Ellipses, 1978.

(13) أنظر : L'enquête du demi-siècle (Janvier 1954). Rapport de l'administration de Ouarsenis, p. 31.

(14) نفس المصدر : Idem. Rapport de l'administration de Mascara, p. 13.

(15) نفس المصدر : Rapport des autorités locales de Telagh.

(16) أنظر : Guy Pervillé, "Le sentiment national des étudiants algériens de langue française de 1912 à 1962", Relations internationales, 1974, n° 2, p. 234.

(17) أنظر : Pierre Boyer, Evolution de l'Algérie médiane, Maisonneuve, Paris, 1960, p. 401.

(18) أنظر : Gibert Meynier, L'Algérie révélée, Librairie Droz, 1981, pp. 104 à 114.

(19) أنظر : Raoul Girardet, L'idée Coloniale en France de 1871 à 1962 "Collection Pluriel", le Livre de Poche, 1972.

(20) أنظر : A. Siegfried cité par Christian Coulon, Cf. idéologie jacobine, Etat et ethnocide in Pluriel-Débat n° 17, 1979.

(21) أنظر : Philippe Lucas et Jean-Claude Vatin, L'Algérie des anthropologues, p. 45.

(22) Dossier de la délégation française à l'ONU, Gouvernement Général de l'Algérie, 1956.

(23) نفس المصدر .

(24) أنظر : Au service de la renaissance française, éd. du P.C.F., 44, rue Le Pelletier, Paris.(من منشورات الحزب الشيوعي : في خدمة النهضة الفرنسية) .

نهضة الجزائر

بين نهاية المقاومة المسلحة الأولى وانفجار غرة نوفمبر/تشرين الثاني مع نصف قرن من الزمان نشأت خلاله حركة سياسية عصرية متنوعة في تركيباتها الايديولوجية والاجتماعية تبلورت داخلها الأفكار حول انبعاث الجزائر ونهضتها .

لقد أحدثت حركة التغريب ثغرة في الهيكل القديم وتغييرا في عقليات سكان المدن في الجزائر والمهاجرين في فرنسا . فشرع الجزائريون وقد اغتصبت منهم بلادهم عنوة وأبعدوا قسرا عن المدنية الفرنسية يفكرون بقوة في هويتهم وفي بناء مقومات حياتهم على أسس جديدة . وهكذا برزت الى الوجود تصورات مستقبلية سرعان ما انتشرت في البلاد ، نافذة الى أعماقها ، مساهمة ، بحكم محدوديتها وسبقها ، في تحريك الجماهير المسحوقة المبعدة عن السلطة والمحرومة من الخيرات المادية ومن الحياة الثقافية . فقد أصبحت معارضة الاستعمار تشع من منابع عدة : من المثقفين المتخرجين من المدارس الفرنسية ومن الشيوعيين ومن المسلمين السلفيين ومن الوطنيين ذوي الميول «الشعبوية» . وكان العزم على النهوض بالأمة هو المسيطر على الخلافات الداخلية ووراء كل التمزقات ، وكان اندفاع الجماهير نحو الحرية والكرامة ينمو بنمو الثورة السكانية ، مستمدا قوة جديدة من تحويل قطاعات عريضة من الشعب الى بروليتاريا ومن الطبقات الوسطى التي شل تطورها وعُطل . وأمام تحجر الاستعمار أصبحت الحركة الوطنية تتقدم بخطى حثيثة نحو العنف الثوري ولم يعد القمع ولا الحرب بقادرين على ايقاف مسيرتها تلك .

نهضة بلد عريق

اتسمت الدراسات حول الجزائر في أغلب الأحيان بالتشويه والتحريف . وقد نتج عن ذلك شعور بالاستياء والحقد لدى الجزائريين شكل بدوره عقبة أمام دراسة المراحل التي تمخضت عنها القومية الجزائرية دراسة هادئة موضوعية والحال أنه لم يكن هناك ، بالضرورة ، تسلسل حتمي للأحداث المؤدية الى ذلك . فالمغرب الأوسط الذي تكونت منه الجزائر تغيرت ملامحه وحدوده على مر العصور ، والممالك التي عرفها كانت نتيجة الغزو ، جاعلة ، في كل مرة ، البلد حكرا على الفاتح الغازي . ففي هذه المنطقة الدائمة التفكك والتركيب ، أحدث الفتح الإسلامي ، بعد الغزوات الرومانية والوندالية ، تحولا عميقا . فلئن مثل العرب على المستوى العرقي أقلية جعلت المؤرخين يقرون بأن المغرب ميدان البربر وموطنهم فإن تعريب المراكز الحضرية أو ، كما يقول موريس لومبارد بدقة ، «تشريقها» واقع لا مراء فيه . لكن هذا لا يمنع أن يكون التعريب شيئا والدخول في الإسلام شيئا آخر .

قبل دخول العثمانيين بلاد المغرب الأوسط لم يكن أحد يتوقع ظهور أمة موحدة في هذه الرقعة التي كانت تتقاسمها دويلات صغيرة متزاحمة وعاجزة أمام تحرشات اسبانيا المسيحية المسيطرة آنذاك على وهران ونواحيها فرسم حدود الجزائر يرجع الفضل فيه أولا الى العثمانيين . ثم جاءت فرنسا لتوسعها حتى توات رغراة وتدكلت غربا وجنات شرقا .

طوال القرون التي استلزمتها وحدة الجزائر ، من ممالك البربر القديمة حتى القرن السادس عشر ، لم تستقر البلاد حول مركز ثقل واحد ، ذلك أنها لم تكن تشكل وحدة متماسكة وسكانها كانوا يعيشون غالبا في قطيعة مع السلطة المركزية ، تتجاذبهم قوى مفرقة . أما المناطق التي تكونها فقد كان لكل منها تاريخها المتميز وكان تداخل وتشعب لغاتها وثقافاتها يشكل قاسمها المشترك الوحيد . فالانتماء الى الإسلام وتشبع النخبة باللغة والثقافة العربية عوامل مساعدة على التجانس والتلاحم . لكن انتشار اللهجات العامية وسيطرة نمط الحياة القبلية زادا في بعد الأهالي عن السلطة المركزية .

إن أساليب الحكم التي مارسها الأتراك أدت الى ظهور نوع من الاستبداد المحلي ساعد الانقسامات القبلية المزمنة على الاستمرار وعلى تفاقم حدتها وتوترها . فتحالف الأتراك مع بعض القبائل التي منحوها امتيازات كثيرة كالاعفاء من دفع الضرائب ومع بعض العائلات الكبيرة مكنهم من التصرف في البلاد وكأنها غنيمة غنموها ، فالدولة كانت ترتكز على رجال لا يتمتعون بأي تأصيل ولا جذور لهم في البلاد . فأصبحت بذلك عاجزة عن خلق الشعور بالولاء وتأييد عند الأهالي كما كان الحال في تونس ؛ فعدد القبائل الخارجة على السلطة المركزية بلغ المائتين من مجموع 516 قبيلة .

إن الوعي القومي والشعور بالانتماء الى وطن واحد كانا موجودين عند الكثير من المثقفين ، لكن البون شاسع بين أفكار هؤلاء والواقع المعاش المفروض على الشعب . ففي سنة 1830 لم يكن سكان الجزائر يعتبرون أنفسهم جزائريين ذلك أن كل فرد كان ينتمي أولا وقبل كل شيء الى مجموعته الضيقة : العائلة أو الرابطة الحرفية أو القبيلة أو الطريقة الصوفية أو الجماعة الدينية والثقافية (أهل السنة ، الاباضية ، اليهود) أو الرابطة اللغوية (عرب ، بربر ، أتراك) . فأناس ذلك العهد لم يطرحوا القضايا بالصيغة التي ينسبها لهم مفكرو الاستعمار وفي سياقهم مفكرو الحركة الوطنية الذين فتنتهم مفاهيم العرق والدولة المركزية والأمة .

إن الاستعمار لم يضع الجزائر . فقد كان للبلاد قبل مجيئه ، دينها وموروثها الثقافي كما نسجت المحن المشتركة روابط عدة . لكن كل سبب من أسباب الوحدة هذه لم يصبح عاملا مؤثرا الا بعد سنة 1830 ، ذلك أن الوعي القومي واللغة والدين لم تتبلور كمكونات للشخصية الوطنية الا داخل حلبة الصراع ضد فرنسا المحتلة ، فالوعي القومي يتعارض والعقلية القبلية ويتنافى مع الحزازات والتنافس الغالبة على حياة المجموعات الأصلية التي ينتمي اليها الأفراد . يمكننا اذن أن نقول دون حرج إن الاستعمار كان أحد العوامل المؤثرة التي أدت الى ظهور الجزائر وإن النظام الذي أقره كان بمثابة الكاشف لها . فوسائل الاتصال السريعة وانتشار الأفكار الجديدة والحركية الاجتماعية

والجغرافية والخدمة العسكرية ، كلها عوامل مساعدة على اكتشاف شكل انتماء أوسع ألا وهو الأمة . فالشعور القومي الذي كان كامنا بدأ يظهر بجلاء في الثلاثينات في وقت كان الاستعمار يبدو وكأنه تمركز نهائيا معبرا عن ذلك بالاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال مدينة الجزائر وبتنظيم المؤتمر الأفخرستي بقرطاج (تونس) وبفرضه الظهير البربري على الشعب المغربي .

فالجالية الجزائرية في فرنسا وسكان المدن الكبرى في الجزائر كانت هي البؤر التي ارتقى فيها الجزائريون الى الوعي بشخصيتهم المميزة وذلك بالاحتكاك بالفرنسيين وضدهم . فالفوارق الاجتماعية التي كانت متحجرة ومتباينة تباينا كاملاً بدأت تضمحل شيئا فشيئا .

كما أن السلطة التي كان يمارسها الأشراف والأولياء خاصة في القبائل وجنوب البلاد بدأت تتلاشى بدورها كما بدأ يتصدع جدار الحيطة والحذر الفاصل بين أهل السنة من المسلمين والاباضية وتم ذلك على حساب أغلبية مشائخ الطرق الصوفية وحنينهم الى الماضي التليد . لكن لا يجب أن نغتر بهذه الظواهر فتخفى عليها العوائق والعقبات القائمة دون تبلور الكيان القومي . ذلك أن قوى المقاومة السلبية كانت تلعب ضد ظهوره . فالحيوية التي تتسم بها العقليات المدنية تقابلها لتعارضها الاستمرارية والتحجر الغالب على التقاليد الفلاحية وآثارها المتناقضة والسيئة على تطور الشعور الوطني . فمن ناحية نجد أشكال الوعي الاجتماعي المتجذرة في الأرياف والواردة على المدينة مع نزوح الريفيين اليها تحد من ميل سكان المدن الى الانصهار في المجتمع الاستعماري وتساعد على الوحدة القومية ، ومن ناحية أخرى يدفع التعلق بالتقاليد والمقاومة السلبية بالمجتمعات الريفية إلى الانغلاق والانطواء على نفسها والتخوف من كل عنصر خارج عنها أو دخيل عليها . فضعف التأثير السياسي للمدن على العالم المحيط بها يزيد في حدة هذه الظاهرة ويضر بتطور البلاد .

ففي الأرياف حيث تكمن قوة البلاد ظل الشعور القومي مفهوما غامضا . فالانتماء أو الولاء الى القبيلة أو العائلة كان هو المسيطر على عقول الناس وذلك

على حساب الهوية الوطنية . ففي المناطق التي يغلب عليها العنصر اللغوي (القبائل ، الأوراس ، المجار) أو الديني (مزاب) كان الجزائريون المتحدون ضد فرنسا يشعرون بعصبية قوية وولاء كبير نحو منطقتهم التي يعتبرونها وطنهم الصغير . فوجود كيانات جهوية يرتكز على معطيات جغرافية وتاريخية كانت اللغة البربرية إحدى مقوماتها . لذلك فإن كل محاولة لنبذ البربر واقصائهم سيكون لها بالغ الأثر وستحز في النفوس . إن مسألة الوحدة القومية تبقى كما نرى مطروحة .

عناصر النهضة

مرت معارضة الجزائريين للاستعمار الفرنسي بفترة تمهيدية جربت خلالها مجموعات قليلة الأفكار الجديدة (الليبيرالية ، العلمانية ، الماركسية) وأساليب النضال (اللوائح ، الصحافة ، العمل الجماهيري) والأشكال التنظيمية (الحزب ، النقابة ، الجمعيات) الأوربية المصدر . وكانت هذه المجموعات لا تستمد في البداية قوتها الا من وجودها نفسه . ولم يكن لها أي سند من طبقات المجتمع الجزائري . أما جماهير الشعب فكانت غارقة في الأوهام الدينية والوعود بالفردوس المفقود وبعودة المهدي المنتظر تلك الأوهام التي تعوضها عن بؤسها ومعاناتها . وقد ساعدت الحرب العالمية الأولى على اخراج هذه الجماهير من سباتها ، فبدأت تنظر نحو «اسطانبول عاصمة الإسلام» ثم بدأت تتجه بأنظارها نحو العالم العربي قبل أن تبحث عن مخلّصيها داخل صفوفها .

إن الانتفاضة الجزائرية ستكون نتيجة قوتين تعملان معا ضد عدو واحد ولكنهما تتناجدان أحيانا وأحيانا تتعارضان وتتشابكان . الأولى مدنية أو [illegible] هي ناتجة عن الاتصال والاحتكاك بفرنسا وكانت تشارك في العمل السياسي عن طريق التدخل المباشر النشيط . أما الثانية فشعبية ودينية متعلقة بتقاليدها وكانت تعبر عن نفسها خارج الأشكال العصرية ، أسلوبها الرفض أو العنف .

شعب في حالة تطلع

إن بعض المثقفين الجزائريين المتشبعين حديثا بالفكرة القائلة بأن الجماهير هي التي تصنع التاريخ قدموا الشعب الجزائري بعد الاستقلال وكأنه شعب مثالي لم يكن ينتظر سوى «الفكرة الصحيحة» ليهب ويقضي على الاستعمار ؛ متهجمين بذلك على أسلافهم مثقفي بداية القرن الذين كانوا يعتبرون الشعب المستسلم والخانع آنذاك غير أهل لهم . فكل هذه الأحكام خاطئة لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار بطء تغير العقليات وقوة الهوية والولاءات التقليدية وكذلك تأثير الفقر والجهل المثل للحركة .

قبل الحرب العالمية الأولى لم تمس التحولات السياسية والاقتصادية بعدُ العقليات الشعبية التي كانت متجذرة في أرضية ثقافية كانت فيها الأفكار والعادات والتقاليد - حتى الوثنية منها - مرتكزة على تقاليد دينية قوية .

فالتحضر كان ضعيفا (7,6 ٪ من الجزائريين فقط كانوا يسكنون المدن) وكان الأهالي داخل البلاد يعيشون ضمن مجموعات صغيرة مغلقة ومنعزلة وليس لهم سيطرة على محيطهم . وكانوا يؤمنون بالأشباح والأطياف والجن ويعتبرون العالم المرئي والعالم الخفي كلاً متماسكا . فالتعليم لم ينتشر بينهم وكانوا في أغلبيتهم الساحقة لا يعرفون سوى النزر القليل من القرآن . أما المدارس الحديثة فلم تكن موجودة ، وحيث وجدت فإن الجزائريين لم يقبلوا عليها . وكان تأثير «الولي» ، الذي كان ساحرا ومطببا وشفيعا عند اللّه ودليلا روحيا ، كبيرا . فالطرق الصوفية والأعيان - أولائك الطغاة المحليون - كانوا القوى المؤطرة الوحيدة للمجتمع الريفي . فوجودهم كان كليا طاغيا وكانوا يتدخلون في كل وقت وفي كل مظاهر الحياة اليومية . فإشعاع «الأولياء الصالحين» و«أبوية» الأعيان كانت ترتكز على روابط شخصية متينة . فاعتبار علاقات الاستغلال وحدها كما يفعل الذين يفسرون كل شيء بالعلاقات الاقتصادية يجعلنا ننسى الأهم ، ألا وهو الطريقة التي كان الناس يعيشون بها العلاقات الاجتماعية ، وهل كان البديل موجوداً أو غير موجود .

في حين كانت العقليات الشعبية متشبثة بالمحرمات ورافضة لأساليب العيش والتفكير العصرية ، دخلت العناصر «المستنيرة» المتخرجة من المدرسة الفرنسية والمتشبعة بايديولوجية «عصر التنوير» مسرح الأحداث مولية ظهرها للتقاليد القومية . فبين الشعب المتعلق بالماضي ، والذي اعتاد التعويل والاعتماد على رؤسائه وقواده المتواجدين في صفوفه ، وبين النخبة المتطلعة نحو فرنسا كان لابد من القطيعة .

إن عدم التفاهم المتبادل الناتج عن تاريخ يشوبه التناقض والتضارب شكل عقبة أمام ظهور هياكل سياسية جديدة . وكانت هذه الوضعية تخدم مصالح الأولياء والأعيان وكذلك المعمرين . وعلى مستوى التصور الشعبي ، مثل هؤلاء الأولياء والأعيان حاجزا يحد من تأثير الاستعمار . فهم لا يقلدون تقليدا أعمى الأوربيين في تصرفاتهم وعاداتهم وأزيائهم وهم بذلك يشخصون التباين بين المستعمرين والمستعمَرين . وهكذا فإن الطبقات الشعبية المسحوقة كانت ، لأسباب ثقافية ، تتعرف على نفسها في فئات اجتماعية تحثها على الخنوع وترفض الاستماع الى «الرعاة الجدد» والتحرك نحوهم . لذلك كان لابد من الانطلاق من المميزات القومية للقضاء على سيطرة القوى التقليدية وزعزعة نفوذها .

إن الجماهير الجزائرية وقد فتك بها الفقر والجهل كانت خاضعة فكريا وروحيا لأسياد يعتبرون كل خطاب عقلاني كفراً وإلحاداً فالأولياء الصالحون ما زالوا يوهمون الناس بأن المطر ينزل بمشيئة الله وحده والأرض مرفوعة على قرني ثور .

فمن حين لآخر تقوم انفجارات عنيفة تقوض فجأة ركائز الاستسلام والخنوع أمام المصائب الجماعية والمحن الفردية . وكانت هذه الانفجارات تعبيرا قويا عن العنف الذي تتسم به العلاقات الاجتماعية والفردية ، أكثر منها قطيعة مع الحياة اليومية .

وكانت الحكايات التي تمجد عظمة الملحمة الإسلامية وانتصارات المقاومة هي

التي تغذي الأمل في النفوس ، فالعمليات الانتقامية الصادرة عن قطاع الطرق «النبلاء» ضد المستبدين كانت تقدم أمثلة تحتذى ، لكن الجزائريين كانوا يحلمون بعودة المهدي المنتظر ، «صاحب الساعة» كما يقولون . وكانوا يرزحون تحت الظلم والقهر الى درجة أنهم لم يكونوا يتصورون أن خلاصهم يجب أن يكون من صنعهم ، وكانت النبوات العديدة تقنعهم بأن الله لا يخذل عباده أبدا . فمن بين هذه النبوات واحدة مشهورة تقول : «سيأتي يوم يجتمع فيه الفرنسيون والمسيحيون الآخرون في مدينة الجزائر . ثم تتحرك بهم المدينة من الجبل صوب البحر فتغمرهم الأمواج» ، فالهروب الى عالم الخيال والتمني كان الجواب على اهانات الزمان ونكباته .

في بداية القرن العشرين ، كانت الجزائر في مفترق الطرق . فالأسئلة التي كانت مطروحة هي : «من نحن ؟» و«أي طريق نتبع؟» وستطرح هذه الأسئلة نفسها مجددا وبأكثر حدة ما بين سنتي 1930 و1936 فكل حركة وكل حزب وكل جمعية ثقافية كان لها نظرتها ورؤيتها لمستقبل البلاد . وكانت أفكارهم متأصلة في أوساط محدودة لكنها تعبر عن قوى عميقة . فالذي يهمنا هنا ليس تاريخ هذه الأفكار وإنما تاريخ التصورات الذي من شأنه أن يقدم لنا عرضا لحركية الجزائر وتناقضاتها وانغلاقاتها . يجب أن ننبه بادىء ذي بدء الى أن دراسة الفكر الاجتماعي في الجزائر ليس لها أهمية في حد ذاتها . فهذا الفكر كان تابعا ، تأتيه مواضيعه من أوربا ومن العالم العربي وتقع ترجمتها محليا ، وكان الفكر موجها نحو العمل الفوري أكثر منه نحو النظريات التجريدية . لذلك يصعب الكلام عن مدارس فكرية وغض النظر عن السير الذاتية للأفراد باستثناء الشيوعيين و«العلماء» .

يمكن أن نجمل الحركة الفكرية في تيارين : تيار يبحث في تاريخ الجزائر عن مقابلات لما وقع في أوربا وآخر يؤكد على الفروق ليرتقي بالوعي الى ما يميز الجزائر عن غيرها .

كان المستغربون «الليبراليون» منهم والشيوعيون ، معاقين بسبب طريقتهم في

تناول المسألة القومية وفي التعامل مع الأرضية الثقافية . أما أنصار الأصالة الجزائرية من مسلمين اصلاحيين وقوميين ، فبالرغم من طرحهم طرحاسهما لمسألة طبيعة المجتمع الجزائري وطرق تقدمه ، أفادوا كثيرا من تطابق خطابهم مع أحاسيس الشعب ومشاعره . فنشاطهم وقدرتهم على جر الجماهير وراءهم تتولد من الحركة نفسها ، الشيء الذي أكسبهم فعالية ونجاعة لم تكن لخصومهم .

الحركة الاندماجية أو وهم الوطن الفرنسي

لم يؤسس الاندماجيون قط حزبا سياسيا قائما بذاته بل كانوا ينشطون بطرق شتى : في صحافة «الشبان الجزائريين» وحركة المعلمين الأهليين[1] وداخل فيديرالية المنتخبين التي يرأسها الدكتور ابن جلول (1928) و«اتحاد الشعب الجزائري» الذي كان ينشطه فرحات عباس (1938) .

لماشرع ممثلو الفكر الغربي الأوائل في تأمل واقع الجزائر وماضيها ومستقبلها ، طرحوا المشاكل بطبيعة الحال من وجهة نظر أسيادهم . فإيمانهم بالتقدم أصبح لهم دينا . وكان وضعهم الاجتماعي هو الذي يحدد أوهامهم حول الاستعمار . وكانوا غالبا في عزلة وقد ابتعدوا عن الجماعة التي احتضنتهم ليشقوا طريقهم وحدهم في الحياة . فارتقاؤهم في مجتمع لا يؤمن بالفرد جعلهم غير قادرين على فهم خمول الشعب وتخوفه من التطور . فـ «الشبان الجزائريون» كما كانوا يسمون ، كانوا ينتظرون من الفرنسيين أن يقوموا مقامهم بمهمة تحطيم العالم القديم ، مثلهم في ذلك مثل المثقفين الألمان في القرن الثامن عرش (كانط ، هيجل ... وغيرهما) مع الفارق أن الجزائريين كانوا يعيشون في بلد مستعمر . فكل مقاومة ضد اشعاع القيم الغربية التي تبنوها قلبا وقالبا كانت في نظرهم معركة خلفية محكوم عليها بالفشل الذريع . وكان أكثرهم يقدم تفرنس اليهود الجزائريين كمثل يجب اتباعه .

إن أفكار «الشبان الجزائريين» هيأتهم للسقوط في أحابيل الاستعمار وجعلتهم يشاركون في عملية التشكيك التي استهدفت تاريخ بلادهم . لكن كل هذا لم

يجردهم من انتمائهم الى شق المهزومين ومن صفة المستعمرين . وقد دفعهم هذا الوضع البغيض الى رفع مبادىء ثورة 1789 في وجه الاستعمار . وفعلا كيف التوفيق بين مثل الحرية والمساواة والأخوة وحقوق الانسان والمواطن وبين تصرفات مبنية على القهر والتعسف والميز العنصري ؟ فهذا التناقض سيرتد ضد الاستعمار وسيكشف القناع عن وجهه الحقيقي .

ولكونهم أنصارا للمواطنة الفرنسية ودعاة لإدماج الجزائر بفرنسا ، سعى «الشبان الجزائريون» الى اخراج الجماهير من سلطة ونفوذ الأعيان والأولياء الصالحين الذين يعتبرونهم عناصر ظلامية ، وأخذوا على عاتقهم مهمة التقريب بين مجتمعهم وفرنسا . فقبل الحرب العالمية الأولى برهنوا عن ولائهم لفرنسا وقاموا بحملة لتجنيد الجزائريين غير عابئين بمشاعرهم . فهجرة التلمسانيين الى سوريا (1911) وانتفاضة جنوب الأوراس وثورة بني شقران لم تحرك لهم ساكنا[2] . بعد الحرب ، وفي سنة 1919 قامت فرنسا باسم زعمها لعب دور الحكم بين الجزائريين والمعمرين ببعض الاصلاحات التافهة ولم تستجب الى رغبة «الشبان الجزائريين» في الدخول الى المدنية الفرنسية . فكانت هذه أول خيبة مني بها أنصار المواطنة الفرنسية وحق الجزائريين في التمتع بها .

ان صحوة العالم العربي والإسلامي ساعدت على ايقاف الحركة الساعية الى فصل الجزائريين عن ماضيهم القومي . فنقد الاستعمار الذي بدأ مع القرن تواصل في حين تراجعت الفكرة الاندماجية وتقلص تأثيرها ، فالجماهير كانت تعارضها وكذلك المعمرون ، فضلا عن الانقسامات والتناقضات الموجودة بين دعاتها .

لقد تطورت الحركة الاندماجية بعد سنة 1919 في اتجاهين متباينين . فدعاة التجنيس (الدكتور بن تامي) تراجعوا فاسحين المجال أمام تيار أكثر قومية يترأسه حفيد الأمير عبد القادر ، الأمير خالد الذي كان يطالب بالمواطنة الفرنسية في حدود الإسلام . وكان خالد يريد تجسيم الاستمرارية الجزائرية مستعملا الأفكار الجديدة للدفاع عن الماضي . فتعريفه للشخصية الجزائرية وأسلوبه السياسي ينبىء بظهور ابن باديس وحركة «العلماء» .

رغم اخفاقها ، تواصلت الحركة الاندماجية وتوسعت داخل «فيديرالية المنتخبين» التي كان ينشطها الدكتور ابن جلول بمساعدة فرحات عباس (1927) . وقد عرفت هذه الحركة أوجها حين حضيت بمساندة الحزب الشيوعي الجزائري و«العلماء» . لكن مشروع بلوم – فيوليت[1] الذي اعتمده الاندماجيون للتجمع داخل «المؤتمر الإسلامي» (1936) كان مآله الفشل . وهكذا تكون «الجبهة الشعبية» الفرنسية قد صوبت ضربة قاسية لتلك النخب التي قبلت المواطنة الفرنسية مقابل قطيعتها مع الشعب الذي تنتمي اليه . فكانت نكسة لن تقوم للتيار الاندماجي بعدها قائمة . اذ أن أشهر ممثليه فرحات عباس ، الذي كان ، خلافا لسابقيه ، يؤكد بكل فخر انتماءه للجزائر والإسلام ، أصبح أكثر تصلبا في مطالبه وبدأ يبتعد شيئا فشيئا عن مبادىء الايديولوجيا الاستعمارية . فاعراضه بل رفضه لفكرة المواطنة الفرنسية كان الحدث السياسي الأكثر معنى في الأربعينات . فهذا الرجل الذي كان يعتبر سنة 1936 الوطن الجزائري وهما وأسطورة أصبح ينادي سنة 1943 في بيانه «بجمهورية جزائرية مستقلة متحدة مع الجمهورية الفرنسية وقد تجددت وأصبحت معادية للاستعمار والأمبريالية» .

خلافا للعلماء ، منافسيه سابقا ثم حلفائه حتى سنة 1954 ، لم يتنكر فرحات عباس «لثقافته الفرنسية والغربية» التي يعتبرها جزءا من التراث الجزائري . فتعريفه «للجزائر المسلمة» ، بلد العرب والبربر ، كان ذا بعد تاريخي وثقافي وكان أقرب من مفهوم القومية ، كما روج له الاستعمار ، منه من مفهوم الانتماء الديني . ففرحات عباس ، الذي كان من أنصار دمج الأوربيين في المجتمع الجزائري والذي بقي وفيا لقناعاته العلمانية ومتفتحا ثقافيا على العالم الخارجي ، ختم ، بتطوره هذا ، العهد الذي توهم فيه الجزائريون المثقفون ثقافة فرنسية أنه بامكانهم الاندماج في المجتمع الاستعماري . أما الأجيال الصاعدة فستتجه نحو القومية ونحو الشيوعية .

إن المؤرخين القوميين الرسميين أهملوا في تأريخهم للحركة الاندماجية مراحل تطورها ، مركزين اهتماماتهم على استقالتها تجاه المسألة القومية ، ناسين كل

الحجج والبراهين التي قدمتها للحركة الوطنية ضد الاستعمار ، هذا بالاضافة الى ما نشر الاندماجيون منذ بداية القرن من أدب قومي بـالغ الأهميـة[4] . وكانت تحدوهم عزيمة صادقـة وقويـة للاصلاح الأخلاقي والفكري ولايجـاد وعي أوضح من وعي القوميين بكل ما هو بال في الهياكل التقليدية وبتأثيراته السلبيـة على وضعية المرأة وعلى الشخصية الجزائرية وكذلك لتوعية الناس بعلاقـات التبعيـة داخل المجتمع الجـزائري (الخمـاسـة أي المـزارعـة بـالخمس ، والـولاءات ... الـخ) . فتهجماتهم على استبـداد الأعيـان وشعـوذات الأوليـاء كانت صـائبـة ، فكـون الانـدمـاجيين ينتمون إلى الشرائح الاجتماعيـة المحظوظـة وكـونهم أظهروا أنـانيـة طبقية أضرت بتطور النضالات الشعبيـة شيء لا جـدال فيـه . لكن هل يمكن تجاهل التمزق الذي يتخبطون فيه والضيق المعنوي الذي كانوا يعانونه وتجـاهل أن هـؤلاء «المشمئزين من الحيـاة ، الـديمـاغـوجيين ، الطمـوحين» (هكـذا كان ينعتهم المعمرون) هم أيضـا ضحيـة النظـام الاستعماري . فهم ليسـوا ليبراليين كما قيل وكتب . فبالنسبة لهم لا يمكن للجزائر أن ترتقي الى الديمقراطيـة الا بعـد مسيرة طويلة وفترة من الوصايـة على الشعب . وهـذا مـا جعلهم يقبلون دون حرج بالفكرة القائلة بأن الارتقاء الى صف المواطنة يشترط فيه الكفاءة . لقـد كان مثلهم الأعلى هو «الاستبداد المستنير» .

الشيوعية أو وهم المجتمع المختلط

اقتفت الأفكار الاشتراكيـة أثر الاستعمار الأوربي . فـالجـزائر مثلت بـالنسبـة لأتباع سـان سيمون والطوبـاويين الفوريريين مخبرا لتجريب مبـادئهم . ومنهم من دافع بصدق عن السكان الأصليين مثل اسماعيل أوربـان (I. Urbain) . لكن نشاطهم باء بالفشل .

أما الاشتراكية في صيغتهـا الاشتراكيـة - الـديمقراطيـة كما تنظمت في بـدايـة القرن فلم يكن لها غير وجود شاحب ، وقد هجرها الجزائريون المثقفون بسبب مبادئها الاجتماعية .

فعلى المستـوى السيـاسي كان دعـاة الاشتراكيـة يعتبرون الاستعمار مرحلـة

تقدمية ونادوا بدمج الجزائريين كأفراد وتدريجيا في المجتمع الفرنسي . فالفيديرالية الجزائرية للحزب الاشتراكي الفرنسي كانت لا تثق في القومية ومعادية للثقافة العربية - الإسلامية . ولم يكن لها تأثير الا في صفوف المدرسين الذين ساهموا بنضالهم من أجل «تعليم السكان الأصليين» وبتفانيهم في ذلك في توسيع القاعدة الاجتماعية للنخب الجديدة .

مثلت الشيوعية من بين كل التيارات المنتمية الى الاشتراكية العنصر الأكثر فعالية في نهضة الجزائر . فالشيوعية الجزائرية التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد الثورة الروسية كانت تنتمي الى الماركسية - اللينينية ، وتتبنى نظرية الصراع الطبقي . فقضيتها كانت قضية الطبقة العاملة وهدفها تحقيق الاشتراكية عن طريق القضاء على الهيمنة الاستعمارية . ولابد هنا من طرح سؤال حول تجذرها في المجتمع وآخر حول استقلاليتها .

- مما لا جدال فيه أن الشيوعية الجزائرية لم تكن كما هو الحال في أوروبا تعبيرا عن الحركة العمالية . فهي في الأصل نتيجة لتطور الجناح الراديكالي داخل الفيديرالية الجزائرية للحزب الاشتراكي الفرنسي ، فهي اذا تعكس التطلعات الاجتماعية للجالية الأوربية ، أما الجزائريون الذين انضموا الى المناضلين الأوربيين ليكوّنوا كوادر الحزب فكانوا في غالبيتهم موظفين ومدرسين وطلبة متأثرين بالعقلية والثقافة الغربية وكانت لهم نفس التربية التي للاندماجيين .

- وبحكم أصلها ، وجدت الشيوعية الجزائرية نفسها تعاني من عائق جدي هو تبعيتها ازاء الاستراتيجية المقررة في باريس وفي موسكو . فحتى سنة 1936 لم يكن هناك حزب شيوعي جزائري بل فيديرالية جزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي .

وبعد هذا التاريخ ظهر حزب يحمل اسما وطنيا لكنه لم يتمكن من الاستقلال بقراره السياسي . فالحزب الشيوعي الفرنسي هو الذي كان يسيره سواء عبر الكوادر الأوربية (ديلوش ثم ايلي مينيو) أو مباشرة بواسطة ممثليه الموجودين داخله كما كان الحال أثناء الحرب العالمية الثانية . ولمقاومة التطلعات الوطنية

الكامنة عند الكوادر الجزائريين ، بعث الحزب الشيوعي نقابة مركزيـة تضم في صفوفها كل النقـابيين مهما كان عرقهم ومهما اختلفت طموحـاتهم . وكانت هـذه النقابـة منضويـة تحت لواء الكنفـديراليـة العـامـة للشغل (CGT) الفرنسيـة . وكانت نفس الطريقـة متبعـة بـالنسبـة للحزب الشيوعي الجـزائري الـذي كان يرجع في المسـائل الأساسية (تحديد الخط السياسي ، المسائل النظريـة ، تكوين واختيار الاطارات) الى «لجنة المستعمرات» التـابعـة للحزب الشيوعي الفرنسي . فتجربة هذا الحزب مع نجم شمال افريقيـا كانت لـه كما نرى درسـا . فنجم شمال افريقيـا الـذي ظهر الى الوجود في شهر مـارس/آذار سنـة 1926 بيـاريس كان يديره في بدايتـه منـاضلون شيوعيون . وقـد أخـذ أحـد هؤلاء المنـاضلين وهو مصالي الحاج ، على عاتقه مهمة توجيهه وجهـة وطنيـة وذلـك لما تخلى الحزب الشيوعي الفرنسي عن مطلب استقلال الجزائر وقد تمكن نجم شمال افريقيـا من الانفصـال عن الحزب الشيوعي الفرنسي ومن ممـارسـة استقلاليتـه . أمـا تبعيـة الحـزب الشيـوعي الجـزائري للحـزب الفرنسي فكانت مستوحـاة من النمـوذج الروسي كما طبق على أحزاب البلدان الإسلاميـة في آسيـا السوفيـاتيـة . فحسب هذا النموذج لا يعني حق المستعمرات في الاستقلال بـالضرورة وفي كل الحـالات انفصالها عن الدولة المستعمرة . فالهدف كان تحويل الأمبراطورية الفرنسيـة الى «فرنسـا كبيرة» وكان الـدور الرئيسي لتحقيـق هـذا الهـدف مـوكـولا الى البروليتاريا . أما الثورة الوطنية الجزائرية فكانت مرهونة بتحقيق الاشتراكيـة في فرنسـا . ولـذا كانت كل محـاولـة يقوم بها الجزائريون للخروج من الاطـار الفرنسي تقابل بالمقاومة الشـديـدة . «يكفي أن ننظر الى تعمق الوعي القومي والعرقي في البلدان العربيـة ، من مصر الى العراق ، والى امكانيـة استعمال فكرة الوحدة العربية ضد فرنسا لنتبين ما يجب علينا فعله في بلدان المغرب»[5] .

إن تتبع تقلبات مواقف الحركة الشيوعية لا يقدمنا قيـد أنملـة . نكتفي اذن بالملاحظة أنها لم تحقق المطـابقـة بين النضـال القومي والنضـال من أجل تحقيق الاشتراكيـة . فقـد طـالب الحزب الشيوعي تـارة بـالاستقـلال (1922) وطـورا بـالمواطنـة الفرنسيـة لفـائـدة النخب (1936) ثم بـالمسـاواة بين المجلس الجزائري

المنتخب وبين المجلس الخاص بالأوربيين (1947) ثم أخيرا بالاستقلال وبمجلس موحد .

حدد الحزب الشيوعي الجزائري مفهومه للجزائر بعد خطاب ذي نزعة استعمارية واضحة ألقاه موريس توريز سنة 1939 جاء فيه : «إن الجزائر أمة في طور التكوين سيكون شعبها خليطا طريفا من عناصر أوربية وأخرى عربية وبربرية يتمخض دمجها عن جنس جديد : الجنس الجزائري . لكن هذه الأمة لم ترتق بعد الى مستوى النضج» .

فما هي علامة هذا النضج ؟ الاتحاد والاختلاط والامتزاج بين الغزاة الفاتحين والمهزومين . هكذا يجيب الحزب الشيوعي الجزائري ، «على كل سكان الجزائر أن يتحدوا ولا يجب بأية حال من الأحوال أن يوجد تعارض بين مسلمي البلد وسكانه الأوربيين»[6] .

نظريا ، تعادي الماركسية كل القيم التقليدية : الملكية الخاصة ، الدين ، القيم الأخلاقية المتعلقة بالمرأة ، العائلة ... الخ .

فالعقبة الثقافية كانت هي الحاجز الذي يصعب على الحزب الشيوعي الجزائري تجاوزه . فلا هو قادر على استيعاب هذه الثقافة واحتوائها ولا على تبنيها ولا على تجديدها ، فحرم بذلك من أداة للتخاطب مع المجتمع . وقد اكتفى بالدفاع عن اللغة العربية كلغة رسمية ونادى بفصل الدين عن الدولة مصرا على مواقفه العلمانية ومدافعا عن حرية المرأة .

وحتى يساعد تطور العقليات في اتجاه اعتبار الدين مسألة شخصية لجأ الحزب الشيوعي الى الرفع من شأن وضع المسلمين في الاتحاد السوفياتي . لكن في دعايتهم «الشفوية» كان المناضلون يؤكدون على كون الإسلام والعرب دخلاء على الجزائر وعلى الطابع «الشوفيني» للإسلام وعدائه لغير المسلمين ومعارضته للتقارب بين المجموعات الجزائرية والأوربية . فعجز الحزب عن تبني المسألة القومية جعله يتهجم على الدين بأسوء الطرق ولم ينجح أكثر من الاندماجيين في التخلص من نظرته الاستعمارية للمستقبل ، تلك النظرة التي

كان يدافع عنها الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي السوفياتي بداية من سنة 1928 . وهذا ما سيعيه قادة الحزب فيما بعد . «ليس لنا أن نقوم مقام الأحزاب الشيوعية للدول المستعمرة في نقد سياستها المعادية للاستعمار . ولكنه يمكن ، بصفة عامة ، تقديم عنصر من عناصر هذا التقصير بطريقة موضوعية : الجهل الى فترة غير بعيدة ، بالمجتمعات الافريقية والعربية والأسيوية وبتاريخها وذلك ناتج عن تجاهل أوربا لهذه المجتمعات والأعراض عن دراستها» .

«هناك أيضا الفكرة المتفشية في بعض الأحزاب الشيوعية للبلدان المستعمرة والقائلة أن حل المسألة الاستعمارية يجب أن يتم على الطريقة المتبعة في المستعمرات القيصرية الروسية سابقا . وكان التخوف من سقوط المستعمرات المستقلة تحت تأثير الأمبريالية الأمريكية وراء مواقف هذه الأحزاب . وقد ظهر في ذلك الوقت في الجزائر مثل يقول : «لا تبدل حصانك الأعور بحصان أعمى»[7] .

فهذا اعتراف صريح من قبل الحزب الشيوعي الجزائري بتبعيته وبكون الواقع الجزائري لم يكن له كبير وزن في تحديد خطه السياسي . فهل يمكن تصور حزب يعلن انتماءه للينينية في بلد من العالم الثالث ويعتبر الفلاحين فصيلة مؤخرة ولا يعتمد الا على النضال في المدن وبين السكان الأوربيين ؟ فالبرنامج الفلاحي يكون في هذا الوضع صوريا ذلك أن النموذج الثوري المتبع لا يسمح بتحديد مركز الثقل في النضالات ويهمل المشكلة الثقافية وهي الأساسية .

فبالرغم من محدوديته وأحيانا بسببها ، كان الحزب الشيوعي الجزائري أحد العناصر الأكثر حيوية المروجة للأفكار الجديدة . فقد جعل ، أكثر من أي حركة أخرى ، من المسألة الاجتماعية مسألة مركزية وعمل على تغيير العقليات وتجديدها وساعد على ترسيخ أساليب تنظيمية عصرية ، وخاصة في صفوف العمال ، وقد اكتسب الآلاف من الجزائريين عبر الحزب الشيوعي حب المبادرة الفردية والمشاركة الفعالة في الحياة السياسية . لقد فسر فشله بسيطرة الدين

على العقول ، لكن تم تجاهل حقيقة لا شك فيها هي أن خطه السياسي هو الذي دفع بالعمال الى تبني القضية الوطنية . فبتنظيمه المتعدد الجنسيات وبسوء تقييمه لأهمية المسألة القومية ، حكم الحزب الشيوعي على العمال الجزائريين بأن يكونوا قوة اضافية للحركات الأخرى وعلى العمال الأوربيين بمساندة المعمرين ولم تعوضه الطبقة العاملة الفرنسية عن ذلك بمساندتها ، دون مواربة ، قضية الشعب الجزائري . فحين اندلعت الأزمة بقيت الحركة العمالية الفرنسية كالمتفرجة ، ولم تقم بعمل ذي بال . وغلبت الشوفينية على وعيها الطبقي .

الحركة الإصلاحية الإسلامية

لقد لعب الوازع الديني دورا كبيرا في المغرب العربي . فالتفكير الاجتماعي والسياسي كان يتغذى من الدين الذي لم يكن مادة للمناظرات الكلامية فحسب . إذ كانت الأفكار الدينية سلاحا في الصراع من أجل السلطة ومن أجل توزيع عادل للخيرات .

لقد وُجدت البدع والانشقاقات الدينية على مر العصور في المغرب . فقبل دخول فرنسا كانت الأيديولوجيا الدينية وراء التغييرات الاجتماعية ووراء الحركات الفكرية (الخوارج ، الشيعة) . وقد لقيت الطرق الصوفية كـ «علاقة فردية وروحية» رواجا كبيرا بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر . وكان نقد الحكام ونبذ «الحياة الدنيا» وأحابيلها هو السبب في نجاحها وانتشارها . فهذا الإسلام الذي تفاعل في أعماق المجتمع وغير سلوك أفراده مثل البوطقة «السياسية» التي انصهرت فيها ممارسات الجماعات المتعارضة . فالثورات التي قادتها الطرق الصوفية باسم العدالة والمساواة ضد العثمانيين معروفة لدى الجميع .

مقابل إسلام الطرق الصوفية المتحفظ تجاه السلطة السياسية يوجد اسلام «العلماء» (فقهاء وأصوليين) الذين يعتبر الخلاص مسألة مقوننة ومؤسسية ، والمنادي بشرعية السلطة وباحترام السلطان .

ساعد تفشي الجهل وانحلال الجماعات الريفية على انهيار إسلام الطرق وتحوله

الى شعوذة . فقد أصبح بعد أن احتوته الادارة المركزية وخضوعه لها غير قـادر على التجدد – عدا بعض الحـالات النـادرة – وعقبـة أمـام تطور المجتمع . ولجأ أتباعه الى الجمعيات الهامشية أو الى الحياة التأملية .

وهكذا دقت ساعة البـديل ، وكان «علمـاء» المـدن مرشحين للخلافـة والحلول محله . فالجزائر العاصمة وقسنطينة وتبسة ونـدرومـة وتلمسـان وبسكرة وغيرهـا من المدن لها بورجوازيـة تشكل ، بحكم عـاداتهـا وتقـاليـدهـا وثقـافتهـا شريحـة محظوظة وذلك بالرغم من أن التوزيع الجـديـد للخيرات لم يكن في صـالحهـا . فمن هـذه المـدن ، حيث اعتبرت المثـاقفـة (acculturation) سقـوطـا في الجحيم وفقدانا للسلطة والهوية ، سيخرج دعاة الاصلاح الإسلامي .

إن الأفكار الاصلاحية الإسلامية المنتشرة في الشرق العربي منذ أواسـط القرن التاسع عشر لم تصل الجزائر الا مؤخرا . فالشيخ محمد عبده لاحظ بمرارة ، عنـد مروره بالجزائر في بداية هذا القرن ، الجمود الثقافي لممثلي الإسلام الجزائري .

فالاصلاح الإسلامي لم يتأقلم في الجزائر إلا في العشرينيات ، ويرجع الفضل في ذلك الى أحد أبناء أعيان منطقة قسنطينة ، الشيخ عبد الحميد بن باديس . أما تنظيم هذا التيار في حركة مهيكلـة فقـد تم سنـة 1931 حين بعثت «جمعيـة العلماء الاصلاحيين» ، كانت عقيدة الجمعيـة بسيطـة . فهي تفسر تقهقر المسلمين بـابتعـادهم عن تعـاليم القرآن كما كان يطبقهـا «السلف الصـالـح» وخـاصـة منهم الخلفاء الراشـدون (أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي) . أمـا الحل للخروج من هـذا الوضع المهين الـذي يعيشـه المسلمون فيكمن بـالنسبـة لهم في الرجـوع الى القرآن والسنة وفي تطهير الإسلام من كل ما علق به وليس منـه من العنـاصر الخبيثـة الخانقة ، وذلـك بحملـة على الطرق وعبـادة الأوليـاء وكل الأمراض التي يعـاني منها المجتمع ، ولتوفير أسباب النجـاح لهـذا الهـدف النبيل وتجـديـد قوة الإسلام واحيائه فإن وحدة المسلمين مهما كانت مشاربهم (سنة ، شيعـة ، ابـاضيـة) شرط لابد منه وكذلك تجديد اللغة العربية ونشرها ونشر التربية والتعليم .

إن معرفة الأفكار الاصلاحيـة ليست سوى عنصر من العنـاصر المسـاعـدة على

فهم الفكر السياسي والاجتماعي للعلماء والذي هو جزء من عملية تطور الجزائر . فلنحاول ابراز الأفكار الأساسية التي يتكون منها :

1 – يحتل الدين المرتبة الأولى في رؤية العلماء . فهو في نظرهم القوة الوحيدة القادرة على توحيد مختلف عناصر المجتمع . فالقومية غير قادرة على ذلك ، بل بالعكس فهي سبب من أسباب الانشقاق ، فالإسلام هو اذا الأيديولوجيا القومية للشعب الجزائري . وبوصفهم حضر ورجال دين ، كان العلماء يميلون الى اعتبار كامل البلاد من موقعهم ، من ذلك خلطهم بين التعريب والدخول في الإسلام من ناحية وتعريفهم «اليعقوبي» (الجاكوبيني) للشخصية الجزائرية الذي يعتبر وضع كامل البلاد كوضع المدن . لكن مشاغل الجزائريين لم تكن آنذاك المسائل الدينية حتى وان كان رجال الدين الموالين منهم والمعارضين للاستعمار يخاطبونهم بلغة دينية . فخطاب العلماء له نفس المصادر التي لخطاب «الأولياء» ، وهي القرآن والسنة ولكنهم يستعملونها في خدمة أهداف متعارضة . لنضرب مثلا لذلك : كيفية قراءة الآية القرآنية : **﴿إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ...الآية﴾** فالاصلاحيون كانوا يؤكدون على شطر الآية الذي يترك للشعب حرية الاختيار في حين يبرز المحافظون الجانب القدري للآية .

على المستوى الديني كان العلماء يطالبون بفصل الدين عن الدولة الاستعمارية . فهذا المطلب كان موجودا في برامج كل الاتجاهات السياسية الوطنية . وكانوا يردفونه بمطلب آخر يتمثل في تمكين الجزائريين من مباشرة القضاء فيما يخص الأحوال الشخصية : «إن الشعب الجزائري المسلم له وحده الحق المطلق ، من وجهة نظر الدين والمعقول والتقاليد المقدسة في ممارسة عقيدته وكل ما يمس حياته الدينية مستعينا في ذلك بعلمائه ...»[6] .

2 – أما حول قضية اللغة فإن العلماء قد بلوروا قومية لغوية حقيقية . فعبر اللغة العربية ، لغة القرآن ، حاولوا فرض ثقافة واحدة لكامل البلاد ، فخطابهم كان يتجاهل الثقافات الشعبية ودين الفلاحين ويحاول التحقير من

اللهجات المحلية المعبرة عن ذلك . فالعربيـة ليست أداة لنشر المعرفـة فحسب ، بل هي دعـامـة الـدين الـذي يجب أن يكون لـه التـأثير الأعمق على الأفكار ، فتجديـد اللغـة العربيـة لا يهـدف الى وضعهـا في مستوى المـزاحمـة مـع اللغـة الفرنسية بل جعلها بمثابة الحاجز أمام «التأثيرات الأجنبية» .

3 – أمـا المسـألـة الملحـة في نظرهم فهي تربيـة الشعب وتثقيفـه . فمشروع التحرر يجب أن يأخـذ بعين الاعتبـار وضع الجزائرين . يقول ابن بـاديس في هـذا الصـدد : «إن الشعب الجـزائري شعب ضعيف ومختلف . فهـو في حـاجـة ماسة الى حماية أمة قوية ومتحضرة تمكنها من السير قـدمـا في طريق الحضـارة والتقدم»[9] .

كان العلمـاء يعتقـدون أن الجزائر ستعود الى الـوجـود لا عن طريـق العمـل السياسي وإنما بواسطة الأفكار الاصلاحية الدينية التي هيَ وحـدهـا قـادرة على منع احتواء الشعب الجزائري واندمـاجـه في المجتمع الاستعماري . فلا يهم اذن أن تختار الجزائر المواطنـة الفرنسيـة أو الحمـايـة أو الجمهوريـة في الاطـار الفرنسي . فالغالب على كتاباتهم هو التأكيد على الانتماء الى الأمة بمفهومها الإسلامي ونفي الانتماء الطبقي ، بينمـا يخفي سلوكهم السيـاسي وراء الخطـاب الـديني حيطتهم من النضال السياسي الديمقراطي . وما دام الارتقاء الى المعرفة والثقافـة كان في ظروف الجزائر آنـذاك ترفـا تتمتع بـه قلـة قليلـة من الجزائريين ، فـإن العلمـاء يشاطرون رأي دعاة الاندماج في ضرورة وجود «استبداد مستنير» .

4 – أما على المستوى الاجتماعي فقد كان العلماء محافظين ، فكل مـا حـاولوا القيام به في هذا المجال هو تشجيع كبـار التجـار وحثهم على الادخـار وادخـال المفاهيم والأسـاليب الرأسمالية الحديثة على نشاطهم ، تلك المفـاهيم التي تتعـارض والتقاليـد الجزائريـة . لكن محـاولتهم هـذه لم تكن ترتكز على معرفـة حقيقيـة بطرق تسيير مجتمـع عصري . فـلا تكـوينهم ولا رؤيتهم ولا مفـاهيمهم هيـأتهم لـذلـك ، بل بـالعكس هي التي كانت وراء قصـور نظرهم ، ومنعتهم من وعي الواقع المرير الذي كانت تعيشه الجماهير الشعبية .

تجاه الأمراض التي كانت تنخر جسم المجتمع (الجنوح ، الدعارة ، تعاطي الكحول ...) لم يكن عند العلماء سوى علاج واحد : الردع والعقاب ؛ فنظرتهم الى مآسي المجتمع كانت نظرة ضيقة ترتكز على مفاهيم أخلاقية كالتوبة ودور الجماعة في مراقبة الأفراد والحث على مكارم الأخلاق والرقابة . إن الهوة شاسعة بين هؤلاء الرقباء المحظوظين والشعب الفقير المسحوق . وقد استغل العلماء هذه الأوضاع المتردية للوقوف في وجه كل تطور حقيقي يغير الهياكل «الأبوية» عماد الشخصية التسلطية ، (تراتيب الزواج والارث ، الأحوال الشخصية ، وضع المرأة ...الخ) .

كان الوضع الاجتماعي للعلماء وضعا يحسدون عليه وكانوا متشبثين بامتيازاتهم ، محتقرين للشعب البسيط ، كما يدل على ذلك استعمالهم لكلمات من العصور الوسطى أقل ما يقال فيها أنها مشينة . فالشعب عندهم يمثل «سفلة العامة» و«الرعية» و«السوقة» و«الصعاليك» . وتصرفهم هذا نابع من اعتقادهم بأن «الدين الاسلامي هو مجموعة قواعد ومبادىء يتم تطبيقها كما يفهمها العلماء (وبالعلماء نعني المتفقهين في الدين) لا كما تعتقده الجماهير الإسلامية الجاهلة»[10] .

إذا اعتبرنا الوضع التاريخي الذي بدأ العلماء فيه نشاطهم لا يمكن أن ننكر مساهمتهم في نهضة الجزائر فبعث المدارس والحلقات والجمعيات والدراسات حول تاريخ الجزائر كالتي قام بها توفيق المدني ومحمد الميلي ، ونشر اللغة العربية ، كلها عوامل ساعدت على ارجاع الثقة الى نفوس الجزائريين وشعورهم بالكرامة ، كما وسعت الهوة بين الجماهير والأعيان . والمناخ الذي خلقه العلماء أحدث تغييرا في صفوف النخبة المثقفة ثقافة فرنسية وجعلتها تتبنى ماضي بلادها . لكن العلماء رفعوا حواجز ليضعوا أخرى .

فصراعهم ضد الطرق الصوفية لاقى نجاحا بسبب تواطؤ هذه الطرق مع الاستعمار أو قعودها عن مناهضته . لكن تهجمهم على الصوفية كان أساس تصفية حسابات مع مدرسة مزاحمة .

أما على المستوى الفكري فقد أعاق نشاطهم المجتمع الجزائري عن التفتح على الثقافات الأخرى . فكل فكر مستقل عن الدين تمت مقاومته واتهامه بالتواطؤ مع «الأجنبي» . وهكذا تم القضاء على الفكر النقدي . فالمثقف بالنسبة لهم موظف في خدمة الثقافة الرسمية . أما على المستوى السياسي ، فإن سلبيات فكرهم الاجتماعي والسياسي قد تجلت ما بين سنة 1936 و1954 حين عارضوا الوطنية الشعبية ، واتهموها بتفريق الصفوف واحداث الفتنة بين الجزائريين .

وقد تجلت هذه السلبيات كذلك على المستوى الثقافي بإنكار حقب كاملة من تاريخ الجزائر السابقة للفتح الإسلامي في القرن السابع ، وكذلك الفترة الممتدة من بداية الاستعمار إلى نهايته أي من سنة 1830 الى سنة 1962 . أما عداؤهم للبربر فقد زاد المشاكل المتعلقة بالوحدة الوطنية حدة وخطورة .

إن تخوفات توفيق المدني وصفارات الانذار التي أطلقها في الثلاثينات حول ضعف إسلام القبائل تبدو لنا الآن مبالغ فيها ان لم نقل وهمية . طبعا كان صدور الظهير البربري في المغرب سنة 1930 ، باعثا على القلق ، وكان له بالغ الأثر في نفوس المسلمين شرقا وغربا . لكن لما ظهر العلماء على مسرح الأحداث كانت محاولات الاستعمار الفاشلة في تنصير الجزائريين ، واللعب على الحزازات بين البربر والعرب ، واستعمال القانون العرفي مكان الشريعة طي النسيان . فقد كان إذا من باب التحامل والتشكيك في جزء من الشعب اعتمادا على كتابات أحد العناصر البربرية الموالية لفرنسا ، حسني الأحمق (Hosnay Lahmeck) ، وتجاهل نضال العديد من العناصر القبائلية في صفوف الحركة المصالية ، التي كانت تمثل آنذاك طليعة البلاد ، نخص بالذكر منهم سي جيلالي وبنون عكلي وعمار عياش وراجف بلقاسم وخيضر عمار .

الحركة الوطنية الشعبوية

كانت الحركات الوطنية الشعبوية تنطوي على أفكار اجتماعية وسياسية مختلفة المشارب والاتجاهات . فتمزقها بين الموروث الوطني والأفكار الجديدة جعلها تتبنى أوهاما ومفاهيم تنتمي الى أزمة مختلفة : أسطورة الخلاص وأسطورة

التقدم ، تطلعات نحو توزيع عادل للخيرات وقيام الدولة بالاشراف على الاقتصاد ، الفردية البورجوازية و«التضامن» الإسلامي ، فالخيال الاجتماعي هنا حبله على غاربه ، سارح في مملكته .

فتعدد الحركات الوطنية وأصولها المختلفة وسيراتها تشكل ميدانا واسعا لا يمكن حصره الا اذا تحول التاريخ الى سيرة ذاتية . اجماليا وحسب ظهورها هنالك ثلاث حركات يمكن اعتبارها وطنية :

الحركة المصالية الإسلامية - الشعبوية (1928) والحركة البربرية (1948) والمركزيون (1951) . ويتمثل قاسم هذه الحركات المشترك في عزمها الراسخ على تكوين كيان جزائري مستقل عن فرنسا وفي رفض الليبيرالية والفردية ، والإيمان بتدخل الدولة في الاقتصاد وتسييره ، والصورة الأسطورية للشعب والتعلق بالقيم الثقافية القومية .

•المصالية أو الإسلام - الشعبوي

إن الرؤية المصالية ليست نابعة من مفاهيم نظرية بل هي انعكاس للشروط الموضوعية التي تعبر عنها . خلافا لبعض أنصاره ، لم يكن مصالي يعير كبير اهتمام للمسائل الأيديولوجية ، ولم يدع قط لعب دور المفكر السياسي . لقد كان أساسا رجل عمل . أما مفهومه للعروبة والإسلام فيختلف عن مفهوم العلماء ويقترب أكثر من إسلام الطرق الصوفية .

أ - كان العلماء يؤكدون على اصلاح الأفراد داخل الجماعة ، ويعتبرون أنفسهم مسلمين قبل كل شيء . وكانوا مع ادراكهم هذا واعين بمميزات واقع الجزائر وخصائصها كما تتبين ذلك من المجادلة التي دارت بين ابن باديس وفرحات عباس حول الأمة الجزائرية[11] وكذلك من خلال كتابات زعيم العلماء حول العلاقات بين المغرب العربي والشرق[12] .

ب - إن إنتساب الإسلام الشعبوي الى الطرق الصوفية جعله يؤكد على تعبئة الجماهير واللجوء الى العنف ورفض كل صيغ التعاون مع العدو ، مثله الأعلى في ذلك الجهاد في سبيل اللّه . وقد كان يجاري تطلعات الشعب ولا يعارض معتقداته حتى الخرافية منها ... الخ . أما إصلاح الأفراد فكان بالنسبة

له ثانويا . كما كان يعتبر العائلة والقيم الدينية من المقدسات ويعارض بشدة العقلانية ومخاطرها ويكن للغرب المسيحي كرها شديدا . أما دور المثقفين فينحصر في بلورة هذه المعتقدات والمفاهيم والتعبير عنها وهو أساسا يحتاط منهم . كل هذه المواقف جعلته يحظى بمساندة الجماهير ويؤثر عليها .

ج - ومن الفوارق الأخرى تذكر رفض الإسلام الشعبوي المصالي لكل نخبوية وذلك باسم المساواة . فمفهوم الشعب يعني بالنسبة له الطبقات السفلى من المجتمع الرازخة تحت نير الاستغلال والمتعرضة للذل والهوان . فهذا المفهوم أقرب الى ما كان يعنيه الرومنطقيون بكلمة «شعب» منه الى مفهوم «الجماهير الشعبية» عند الفرنسيين ابان ثورة 1789 ، وخاصة بالنسبة لـ «الجباليين» سنة 1793 ... (Montagnards) .

د - إن التيار المصالي الشعبي كان يعتبر الجزائريين المستغربين «أجانب» مستعدين للتفاهم مع المستعمر فهم يمثلون المعسكر «البورجوازي» بالمفهوم الأخلاقي لا الاقتصادي للكلمة ، ودعاة التصالح مع المستعمر المتنكرين للموروث القومي ، وأداة المؤامرة الأجنبية ضد الأمة . فانصهار الأفكار الدينية والشعبوية والقومية جعلت من الحركة الوطنية «المهدي المنتظر» . وهذا ما دفع العلماء الى مقتها واتهامها بتفريق الأمة ، وبإدخال الفتنة بين المسلمين .

إن المؤرخين لم يولوا كبير اعتناء الى انتماء مصالي الحاج الى الطريقة الصوفية مع أن هذا الانتماء يساعدنا على فهم طريقته في التعامل مع موروث وسطه الذي عاش فيه بعد أن احتك بالحركة العمالية الفرنسية التي كانت تجربته السياسية الأولى .

كان مصالي الحاج يقر بتفوق الغرب المادي لكنه يعتبر أن قيم الحضارة العربية - الإسلامية أسمى من قيمه . أما المبدأ الأساسي الذي بنى عليه تفكيره السياسي فهو الدفاع عن شخصية الجزائر المميزة وحق الجزائريين في تكوين دولة حرة ومستقلة عن فرنسا .

فالدفاع عن هذا الحق هو الذي سبق التأكيد على وجود الأمة الجزائرية قبل

الاستعمار وليس العكس ، وهذا الموقف ليس ناتجا عن التفكير حول ماضي الجزائر ومستقبلها ، بل هو رد صريح على كل الذين لا يأخذون بعين الاعتبار حرية الشعب الجزائري وسيادته ويخضعون استقلال البلاد الى اشكالياتهم حول مفهوم الأمة . فبالنسبة لمصالي كانت الأمة بمفهومها الديني ، والشعب والدولة والأمة بمفهومها الحديث ، كلها أسماء لشيء واحد . وقد حاول بعض المثقفين من أنصاره تبرير هذا الخلط بين المفاهيم بانكارهم التاريخ والمسار التاريخي .

إن كل فكر مصالي ونضاله نابع من شعوره بالكرامة التي أسبغ عليها مفاهيم مستوحاة من الأيديولوجيا الاشتراكية ، تلك الأيديولوجيا التي تسعى الى رد الاعتبار الى الضعفاء بالوقوف في وجه الطبقات العليا المحتقرة لهم وتسعى كذلك للدفاع عن الجزائر ضد ادعاءات الاستعمار الفرنسي . ففي نظره كل مصائب المجتمع الجزائري وآلامه سببها الاستعمار و«عملاءه من أهل البلد» . أما البروليتاريا ، وهي في مفهومه تعني الفقراء والمستضعفين والمنبوذين لا العمال كطبقة ، فهي «ملح الأرض» . فتوعية الفقراء وتعبئتهم وتنظيمهم هي التي ستعيد للجزائر فردوسها المفقود : استقلالها ، وللقيام بهذه المهمة على الجزائريين أن يتعاونوا مع الطبقة العاملة الفرنسية في حدود الامكان وأن يتضامنوا مع جميع المسحوقين ضحايا الامبريالية . وكان مصالي يركز على البعد المغربي والعربي – الإسلامي . لكن أفقه يتجاوز مفهوم الأمة الضيقة ، وهنا كذلك يبرز تأثره بالاشتراكية على طريقة الأممية الثالثة .

وكانت التحالفات التكتيكية تحتل في عمله السياسي مكانا كبيرا . فالاستقلال كغاية يبرر كل الوسائل وهو فوق كل اعتبار . فعلى المستوى الثقافي لم يترك المصاليون العلماء يستأثرون وحدهم بالحياة الثقافية ، فأنشؤوا مدارسهم المستقلة وزاحموهم في تثقيف الشعب وتعليمه .

وعلى السؤال المطروح حول طريقة التنظيم التي يجب اتباعها كان جواب المصاليين لينينيا . فكان أن تنظمت الحركة الوطنية كحزب وطالبت لهذا

الحزب وحـده بحق تمثيـل الشعب الجـزائري ، غير أن الكثير من أسـاليب عملـه كانت مستمـدة من تقـاليـد الطرق الصـوفيـة : المسـارّة ، العهـد ، الامتحـان ، طريقة فضح المنافقين والمنحرفين ... الخ .

لم يحل الطابع العاطفي والديني ، الغالب على الحركـة المصـاليـة دون تبنيهـا بعض الأفكار العصريـة : سيـادة الشعب بـواسطـة انتخـاب مجلس تـأسيسي ، تأميم وسائل الانتاج ، مصادرة أراضي الاقطاعيين ... لكن مواقفها هـذه بقيت متنـاقضـة . فمن نـاحيـة نجـد العزم على ادخـال الاصلاحـات لتقـويض الحيف الاستعماري ، ومن ناحية أخرى نجد الايديولوجيا التي اعتمـدتهـا تقـدم مستقبل الجزائر وكأنه رجوع الى عصر ذهبي سابق ، اذا عودة الى الوراء .

إن الهوة الموجودة بين الفكر المطبـق والفكر المعلن ، وبـطء التطـور والتغيير تسببا في الكثير من الانشقـاقـات والصراعـات . إذ كيف يمكن ادعـاء الشعبيـة والتجديد دون القضاء على الأفكار والمفاهيم التقليديـة الموروثـة ؟ فلئن عجزت المصالية عن تجاوز هذا التناقض فإن أنصـار «البربريـة» و«المركزيين» حـاولوا ، كل على طريقتـه ، الخروج منـه . لكن الأولين تعثروا في المسـألـة الثقـافيـة والآخرين استعصت عليهم المسألة السياسية . فاخفـاق هؤلاء وأولائـك شـاهـد على صعوبة التوفيق بين القيم التقليدية والمبـادىء الحـديثـة . فهـذان التيـاران المـدافعـان عن العقـلانيـة يضربـان بعروقهما في الطبقـات الـوسطى ، مـأتى مناضليها ، تلك الطبقات التي دخلت الحركة الوطنية بعد فشل الانـدمـاجيين الذريع ، الاندماجيين المتخرجين مثلهم من المدارس الفرنسية .

•دعـاة البربريـة (13)

تقف المسـألـة الثقـافيـة وراء تحرك الاتجـاه البربري . فـالحركـة الإسـلاميـة – الشعبوية كانت تحاكي بطريقة معـاكسـة الخطـاب الاستعماري ، فكلمـا حقر الاستعمار شيئـا وأنقص من قيمتـه إلا وانبرت هي تـدافع عنـه وترفع من شـأنـه فتأكيدها على عروبتها وإسلامها كان رد فعل ضد فرنسـا اللاتينية والمسيحيـة . وكانت النزعة البربرية هي كذلـك رد فعل لكن ضـد مزاعم العروبـة والإسلام

التي تتجاهل ماضي الجزائر البربري . وكان الطلبة القادمون من قرى جبال القبائل والمتحمسون لهذا الماضي هم عماد الحركة وسندها .

إن الحركة البربرية كالحركة العربية - الإسلامية شقيقتها وغريمتها ، ارتكاسية وتعبر بطريقتها الخاصة عن الواقع الجزائري :

- رفض الاعتبارات القديمة والخطوة المبنية على النسب والدين ، وعداء لشيوخ الطرق و«الشرفاء» المتباهين بأصلهم العربي والمحتقرين للعرق القبائلي .

- الإيمان بالطابع الديمقراطي لأساليب تنظيم قرى القبائل كرد فعل ضد التحكمية السائدة . فالأنانية الاستعمارية التي كانت تشكل مرجعا لكل طالب ساعدت كثيرا هذا الانحراف ، ذلك أن أحد مقولاتها المفضلة تركز على التعارض بين العربي «المستبد» والبربري «الديمقراطي» . وقد تم تناسي أو تجاهل أن «الجماعة البربرية» كانت مكونة من ممثلي القبائل الأكثر نفوذا ولم تكن تعرف في قانونها لا العقد والتعاقد ولا مفهوم الفرد كشخص قانوني . فالتسوية والصلح يتمان داخلها على حساب القانون .

- التحرز من العاصمة المركزية ومن سكان المدن الرافضين للكفاح المسلح ومدح القرويين المحافظين على تقاليد المقاومة الجزائرية . وهذا يعني معارضة سكان العاصمة ذوي النزعة «الانتخابية» والمسيطرين آنذاك على مصير الحركة الوطنية . ونجد هذا الخطاب بصيغته الأكثر محافظة وتطرفا في صفوف الوطنيين شمال منطقة قسنطينة .

ما عدا هذه القواسم المشتركة بين دعاة البربرية هنالك تصورات مختلفة ومتعددة للمسألة تعدد البربريين أنفسهم . فالتعلق بالماضي مثلا يتلون بجميع الألوان ويذهب البعض الى حد اعتبار البربر المستعربين والمسلمين أجانب مناجيس فقدوا أصالتهم . وكان هذا التيار يحظى باعتبار العرب - المسلمين لأنه يعزز مواقفهم ويبررها .

لكن التيار السائد كان أكثر واقعية ويؤكد انتسابه الى الجزائر التي يعرفها بأنها خليط من العناصر العربية والبربرية لقحها الاستعمار ، ولم يضع هذا

التيـار تـاريخ الجـزائر بين قـوسين وتفتـح على الأوربيين ، تلـك الأقليـة التي غرسهـا الاستعمار والتي يمكن أن تنظم الى الأمـة . وكان تفتحـه هـذا لا اشكال يشوبـه ولا شبهـة تعتريـه . وهو ينـادي بـاعـادة النظر في تعريف الشخصيـة الجزائرية انطلاقا من المساواة بين اللغات والثقافات المتواجدة في البلاد . لكنه لاذ بالصمت في خصوص اللغة القوميـة الرسميـة للجزائر المستقلـة ممـا جلب لـه التهمة بأنه يميل الى الفرنسية ويحبذها على اللغة العربية .

فالفكر البربري الذي أقر كذلـك بوجود طبقـات داخل المجتمع الجزائري دون استخلاص النتائج من ذلك فقد بقي ظاهرة ثقافية ، ذلك أن غـالبيـة السكان الـذين توجـه إليهم هـذا الفكر لم يكونـوا شـاعرين بـأهميـة المسـألـة الثقـافيـة وبالحاحيتها .

•المركزيــون

بعد فشل الحركة البربرية ظهر المركزيون وأخذوا على عاتقهم تعديل الاتجاه الإسلامي – الشعبوي المصالي واحلال التفكير محل الرموز والاشـارات . فهم لم يـديروا ظهـورهم الى الانتماء العربي الإسـلامي بـل سعـوا الى تخليص الخطـاب السيـاسي من مفـاهيم العرق وتطهيره من لغتـه الـدينيـة بتوجيـه الفكر وجهـة علمانية ، كما سعوا الى فتح المجال أمام الأوربيين داخل الكيان القومي الجزائري القادم .

كانت حيطـة المركزيين من العقـائـد الشعبويـة حيطـة «فـولتيريـة» جعلتهم يفضلون إسلام العلمـاء على إسلام مصـالي ، ويخوضون معركـة ضـد التصورات والمفـاهيم الـدينيـة للحركـة الـوطنيـة ، مركـزين طـاقـاتهم على تنظيم القـوى الشعبية ، انطلاقا من تطلعاتها داخل حزب يكون حزبهـا هي . وكان هـدفهم يرمي الى تحريك هذه القوى في اتجاه واحد والى تجاوز الخلافات القائمة بينها . وكان المركـزيـون ضـد المسـاواتيـة ، وينكرون وجـود الطبقـات الاجتماعيـة وصراعها . فقد تبنوا «الجمهوريـة الـدستوريـة الليبيراليـة التي كان يـدعو اليهـا فرحات عباس وصاغوها صياغـة ديمقراطيـة لم تمنعهم من اتبـاع أسلوب التنظيم

الشيوعي»[14]. هذا بالاضافة الى انشغالهم بالتكتيك في المدى القريب واستعدادهم لكل حلول التسوية . وبابتعادهم عن وسطهم الأصلي فقد المركزيون تأثيرهم . فالقاعدة الاجتماعية التي يرنون اليها – البورجوازية والمثقفون – لم تقدم لهم أي سند ولم تستجب لهم .

لقحت الحركة الوطنية الجزائر وأخصبتها أكثر من أية حركة أخرى ، فقد كانت تعبيرا لتناقضات المجتمع وانعكاسا لمحاسن الجزائريين وعيوبهم ، واطارا للمطالب الوطنية والتطلعات الاجتماعية ، بكل ما في ذلك من غموض وحيرة والتباس وخوف من المجددين وانجذاب نحو الأفكار العصرية . فبفضلها تحررت الجزائر من الكابوس الذي كبلها حقبا طويلة ومن الجمود ، وارتقت الى الوعي بقوتها . ووسط هذا الصرح تقف شخصية مصالي الحاج . فآلاف الجزائريين دخلوا الحياة السياسية مقتفين خطاه . غير أن الحالة الاجتماعية التي كانت عليها الجماهير أدت الى تصرفات عاطفية انفعالية حدت من مساهمتها الفعلية في تسيير الأمور . فبالرغم من «دمقرطة» الحياة السياسية ، بقيت مسألة الديمقراطية قائمة برمتها ، فالقرار كان من صلاحيات القادة ، والعلاقة بين مصالي والجماهير كانت علاقة دينية في جوهرها ، واعادة لظاهرة متأصلة تأصلا عميقا في الهياكل الجزائرية التقليدية ، ألا وهي ظاهرة الزعيم «المبارك» (شيخ الطريقة أو وجيه البلد) الذي يقود أنصاره الى المعركة .

ان النموذج الاجتماعي الذي كانت الحركة الوطنية تعبر عنه وتصبو إليه لم يكن مبنيا على عقد اجتماعي يبرم بين أفراد أحرار متساوين في الحقوق والواجبات . فراديكالية المصالية لم تتمحور حول مبادىء وقيم ديمقراطية ، وفكرة مجلس تأسيسي جزائري مستقل لم تكن مرتبطة في وعي الجماهير العريضة بتصور سياسي واضح . ففي التقاليد الإسلامية كانت أقلية من أولي الأمر هي التي تمثل اجماع الأمة عبر القرارات التي تأخذها . لذا فقد كانت الجماهير تنظر الى المؤسسة (حزب ، مجلس العلماء ... الخ) باحترام وترى فيها منبع قوة الشعب وتتوكل عليها[15].

ومن ناحية أخرى فان المطالب الديمقراطية للمركزيين ولدعاة البربرية لم

تكن هي الأخرى تتجاوب مع طموحات الجماهير الاجتماعية . فالديمقراطية لم تكن سوى أداة لدفع العدو نحو معاقله الأخيرة وكشف تناقضاته .

إن التذكير بهذه التصورات الأيديولوجية التي ساهمت في نخر سيادة المستعمرين والقوى التقليدية ، وفي تغيير عقليات الجماهير ودفعها نحو النضال كان ضروريا . فقد تم تناسي أن الاستعمار الذي فرض بالقوة لم يستتب أمره ويدوم ويقر قراره الا بقبول الجزائريين . وهذا لا يعني أننا لا نبالي بكون هذا القبول قد تم بإدماج الأعيان والطرق الصوفية في النظام الاستعماري . لكننا نعرف كذلك أن خمول الجماهير واستسلامها ساعد على وجود هذا الوضع . أما الفضل في كشف حقيقة الاستعمار وتناقضاته وفي قلب الأوضاع وجعل الرضاء والقنوط يتحولان الى معارضة ومناهضة للتسلط الاستعماري فيرجع الى الأحزاب السياسية والحركات الثقافية والكشفية . وقد كان العامل الديمغرافي حافزا غير منتظر ساعد على تجذير المعارضة وتوسيعها ومدّ الحركة الوطنية بإطاراتها ومناضليها . فالقوة الجاذبة التي كانت للأعيان تلاشت وتحولت الى مجموعات أخرى .

نحو تعويض الأعيان

رغم المجاعات المتلاحقة التي عرفتها البلاد واصل الشعب الجزائري نموه من جديد بعد استتباب الأمن وعودة السلم ، وقد ساعد النظام الصحي الجديد على هذا النمو السكاني . فعدد السكان الذي كان يقدر بـ 2.733.000 سنة 1860 ارتفع الى 3.577.000 نسمة سنة 1891 والى 4.923.000 سنة 1931 ليصل الى 8.450.000 سنة 1954 .

فهذا التطور السريع والمطرد لم يصحبه تطور مماثل للخيرات وتوزيعها ولا تقسيم جديد للسلطة . فكل هذه العوامل ساهمت بصفة فعالة وقوية في تفاقم التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وجعلتها لا تطاق .

أما الهجرة إلى فرنسا (300.000 سنة 1954) المرتبطة بالانفجار الديمغرافي

فقد شكلت مع النزوح الى المدن تحديا آخر للنظام الاستعماري . فالريف ، ذلك المستودع السكاني الضخم (1.438.000 عاطل عن العمل سنة 1954) ، أفاض على المدن بسيل من السكان جعل الأوربيين يخشون الاجتياح . وبعد الاستيلاء على الريف ، نتيجة فشل المعمرين الصغار في السيطرة عليه والاستقرار فيه ، جاء دور المدن . فعدد الجزائريين القاطنين بها ارتفع من 722.000 (11,6٪ من مجموع السكان) سنة 1936 الى حوالي 1.600.000 (18,9٪ سنة 1954 ، منهم 113.110 عاطل عن العمل و84.000 عامل يدوي يعانون من البطالة الموسمية .

الى جانب البروليتاريا التقليدية (68.000 عامل مهني ، 75.000 عامل مختص ، 172.000 عامل يدوي بما فيهم العاطلين الموسميين) ظهرت بروليتاريا رثة أوضاعها متداعية . لقد كان الانحطاط الأخلاقي والمعنوي للنازحين كبيراً . ففي غياب المؤسسات والنماذج السلوكية التقليدية أصبح هؤلاء القرويين الحديثي العهد بالمدينة عرضة لكل الأمراض والانحرافات الاجتماعية . وسوف توفر الحركة الوطنية لهم الهياكل القادرة على اختضانهم وتوجيه حرمانهم وتوترهم ضد النظام الاستعماري ، وستنتقي من بينهم ، مناضليها الأكثر حزما وطليعتها في مواجهة العدو . بدخول الريفيين «المتحضرين» أخذت الحركة الوطنية طابعها الديني الصريح . فالحزب أصبح مجالا حياتيا وسلطويا جزائريا بحتا أكثر منه تنظيما مذهبيا للارشاد والتكوين السياسي . فهذه الظاهرة ، ببعديها الاجتماعي والأيديولوجي ، هي التي جعلت من الحركة الوطنية الحركة الأكثر ديناميكية ، وهي التي حدّت من قابليتها للتسوية والتنازل ، كما تفسر مقاومتها الشديدة للأوساط المثقفة ونزوعها ، على غرار ما فعل ابن خلدون ، الى وصف سكان المدن بالدناءة والخسة ، وتنزيه القرويين واعتبارهم محط كل فضيلة .

إن دراسة العلاقة بين النزوح والهجرة وظهور الحركة الوطنية مازالت في خطواتها الأولى . لقد انكب الباحثون على دور الجالية الجزائرية في فرنسا لكن من الزاوية السياسية فقط . أما السلط الاستعمارية فيبدو أنها تنبهت

لنتائج التحرك السكاني والنزوح . ففي نظرها تمثل البروليتاريا الفقيرة «أرضية خصبة للمحرضين» : «إن خيبة الأمل التي تعتريهم تجعلهم ينضمون الى جماهير الساخطين وتنتهي بهم الحال غالباً الى الخروج على القانون» (سدراتا - بلدية مشتركة) . «إن هؤلاء العاطلين عن العمل يمثلون وسطا ملائما لدعاة الثورة» (سوق أهراس - بلدية فرنسية) . «لابد من مواجهة مشكلة التفاقم السكاني ومنع تكون بروليتاريا رثة في المدن تكون سهلة الانقياد وراء المشاغبين»[16] . «في المراكز النائية مثل طاقين ، بول كازيل ودي فوكو ، تنتدب حركة انتصار الحريات الديمقراطية مناضليها من بين القبائل وغالبيتهم من باعة القماش»[17] . «انهم الباعة المتجولين الذين يجوبون البلاد مرارا وتكرارا . ولذلك فهم يشكلون ، سياسيا ، خطرا حقيقيا ، خاصة اذا اعتبرنا أن ميولهم وطنية صريحة»[18] . «إن تصرفاتهم المشبوهة في أحداث سنة 1945 وفي انتخابات سنة 1948 تنبىء بمعاداتهم لنا .. إنهم يشكلون خطرا دائما ...»[19] .

بداية في سنة 1945 بدأ نفوذ الأعيان «على الشعب» يتقلص تدريجيا ويتحول الى النخب الجديدة الخارجة من صفوف البورجوازية الصغيرة أو من الطبقات الشعبية .

إن إشعاع الأعيان ، مهما كان أصلهم (عائلات عريقة أو انتهازيين) ، والمتمسكين بالسلطة الفردية ، يرتكز على أسس ثلاثة : الثروة ومنظومة علاقات شخصية (ولاءات) والعنف . فقد كان لهم عملاء في خدمتهم وشبكة مخابرات خاصة بهم . وكان وفاء والتحام حاشيتهم حولهم متوقفا على الامتيازات وعلى الحماية التي يقدمونها .

أ - مع تدهور الحالة الاجتماعية ، لم تعد الثروة قادرة على تعهد جيش من الموالين . فتقارير السلطة واضحة في هذا المجال : «إن الوجيه لم يعد يلعب دور الحامي التقليدي والوحيد ... لقد تجاوزته الأحداث»[20] . فتقلص الثروة يتبعه دائما تقلص النفوذ . «في الوقت الراهن ثلاثة أفراد فقط من هذه العائلة يعملون في الادارة المركزية : باش أغا وقائدان (...) أما العناصر الأخرى فلا

تمتع بأي نفوذ وأوضاعهم المادية متوسطة . فالتأثير الذي كان لهذه العائلة انحسر بصفة ملحوظة»[21] .

ب – أدى التطور الثقافي وظهور نخب جديدة مواكبة للعصر الى اظهار الوجهاء كمعبرين عن القوى السياسية القديمة ، وكانت الادارة الفرنسية واعية ومدركة لهذا الوضع : «بصفة عامة بقيت العائلات الكبيرة متفرجة وعاجزة أمام التطور السريع الذي شتت نفوذها»[22] ، «إن سيطرة هذه العائلة ونفوذها على مواليها أخذ في التراجع وذلك لجودها (...) ، زد على ذلك إهمال أفرادها تعليم أبنائهم ، الشيء الذي جعلهم غير قادرين على مسايرة الظروف الجديدة»[23] .

ج – نظم حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية فصائل صدامية تجوب القرى والأرياف وتواجه عملاء الأعيان ، وقد نتج عن ذلك تحرر نفسي كبير وانتقل الرعب الذي كان مسلطا على الشعب الى صفوف الأعيان . ففي شمال منطقة قسنطينة مثلا ، فضّل الأعيان التنازل على الاهانة التي كانوا عرضة لها[24] . فشهادات أسيادهم الفرنسيين على ذلك متعددة : «إن الرعايا المسلمين المعادين للأحزاب الانفصالية غير منظمين ويدفع الخوف أو الانانية الكثير منهم إلى عدم التصريح بمشاعرهم الحقيقية تجاه هذه الأحزاب ومواجهتها ، و ينتظر منهم توحيد صفوفهم للوقوف في وجه سياسة هم مؤمنون بخطورتها على مصالحهم ومصالح الجزائر»[25] . «لا يجب أن نغتر بخصوص عدد وقوة المستقلين . فهم قبل كل شيء مترددون ، في حالة انتظار ، لا يرغبون في القطيعة مع السلطة طالما هي ماسكة بزمام الأمور ، لكنهم في مناسبات مؤاتية أو أثناء الحملات الانتخابية حين يدغدغ شعورهم الديني ومعاداتهم الغريزية للأجنبي يطلقون العنان لطموحاتهم الحقيقية ويضمون أصواتهم الى أصوات الانفصاليين»[26] .

في حين كان ميزان القوى يتغير على حساب الأعيان والطرق الدينية ، بقي هؤلاء يحتلون الصدارة في المؤسسات الرسمية . لكن الفضل في ذلك لا يرجع الى كونهم يتمتعون بثقة الشعب ويمثلونه أحسن تمثيل بل الى المناورات

الانتخابية التي تقوم بها السلطة لفائدتهم : «اذا كان النواب الجزائريون الحاليون يقدمون كل علامات وشروط الولاء فإن علاقاتهم مع منتخبيهم تكاد تكون معدومة . فغالبيتهم تلافوا حتى القيام بشبه حملة انتخابية» . «(...) فهم ، في أغلب الأحيان ، لا يتمتعون بما يتمتع به خصومهم الوطنيون من مؤهلات . فهؤلاء أكثر منهم ثقافة واستعدادهم أوفر للاتصال بالجماهير وللنقاش والجدال»[27] . «إن السيد فلان (برلماني) لا يتمتع بأي نفوذ (...) فانتخابه تم بطريقة مصطنعة ، اذ لم يزعج نفسه لا قبل ولا أثناء ولا بعد الانتخابات . فهو ، خليقة وخلقا ، عبء ثقيل لا يتحمله الناخبون»[28] .

أما بالنسبة للملاحظين العارفين بالأوضاع الجزائرية فإن الأعيان كانوا يمثلون «شريحة اجتماعية ليس لها مستقبل» . وهناك أقلية منهم «تسعى لصيانة مركزها الاجتماعي ونفوذها . فهي تسبح بين الولاء للنظام والانفصال عنه ، مستعدة ، حسب الظروف ، لكل التقلبات» .

هوامش

(1) من بين الشخصيات اللامعة في هذه الحركة نذكر الفاسي ، تهرات ولشاني .

(2) هذه الأحداث الممتدة بين 1911 و 1917 كانت رد فعل الجزائريين ضد التجنيد القسري .

(3) كان مشروع بلوم - فيوليت يعتزم اعطاء الجنسية الفرنسية للنخب مع الابقاء على قانون الأحوال الشخصية (الزواج ، الميراث ... الخ) المستوحى من الشريعة الإسلامية .

(4) نذكر من بين صحفهم ، «الإسلام» ومديرها الصادق دندان (1912 - 1914) و«الراشدي» ومديرها الحاج عمار (1912 - 1914) ، و«صوت الفقراء» (1919 - 1939) و«الاقدام» ومديرها الصادق دندان (1931 - 1935) و«التقدم» ومديرها الدكتور بن تامي (1923 - 1931) وأخيرا L'Entente franco musulmane ومديرها الدكتور بن جلول (1935 - 1941) وحيث نجد أسماء كل زعماء «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري» المقبلين .

(5) (في خدمة النهضة الفرنسية) . الحزب الشيوعي الفرنسي .

(6) أنظر : Commission des réformes musulmanes (1944): audition d'Amar Ouzegane ; Cf. Claude Collot et Jean-Robert Henry : Le mouvement national algérien - Textes 1911-1954, Ed. L'Harmattan. p. 191 et suiv.

(7) أنظر : Autocritique du P.C.A. - Doc. inédit (1964).

(8) Mémoire de l'Association des ulamā au gouvernement français. cf. Cl. Collot et J-R. Henry, op. cit., p. 173

(9) المنتقد (1925) عدد 1 . (أعدنا ترجمة النص الفرنسية الى العربية لعدم تمكننا من الحصول على الأصل المترجم) .

(10) أنظر : Mémoire de l'association des ulamâ, déjà cité.

(11) في مقال نشرته جريدة «La Défense» (الدفاع) بتاريخ 23 فيفري 1936 صرح فرحات عباس : (...) لن أضحي بحياتي من أجل الوطن الجزائري لأن ذلك الوطن لا وجود له ... لقد سألت الأموات والأحياء فلم يخبروني عنه» . فرد عليه ابن باديس في الشهاب (أفريل 1936) ليؤكد وجود الأمة الجزائرية وأن هذه الأمة ليست من فرنسا ولا تريد أن تنتمي الى فرنسا .

(12) أنظر رد ابن باديس على جريدة عربية أدعت أن عروبة المغرب في زوال ، أورده : Merad, le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940, Marton. 1967. p. 371. note 3 sci(الشهاب مايو 1937 حول العروبة) .

(13) أهم زعماء هذه النزعة هما سي بناي والي في الجزائر ورشيد علي يحيا في فرنسا .

(14) أنظر : René Galissot, "Sur les conceptions de la nation algérienne". Revue algérienne des sciences juridiques, politiques et économiques - Vol. XIV, n° 2, juin 1977, pp. 738-739.

(15) أنظر حول هذا الموضوع : Michel Camau, La notion de démocratie dans la pensée des dirigeants maghrébins. CNRS, 1971.

(16) أنظر : Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de Mekkera, p. 61.

(17) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de Chellala, p. 63.

(18) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de Cassaigne, p. 63.

(19) Enquête du demi-siècle - rapport des autorités locales et Uzés Le Duc, p. 83.

(20) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de la Mekkera, p. 129.

(21) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de Tablat, p. 129.

(22) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de Sedrata, p. 121.

(23) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur de Chellala, p. 129.

(24) Enquête du demi-siècle - rapport de Eulma, arrondissement, p. 159.

(25) Enquête du demi-siècle - rapport de Eulma, commune mixte, p. 159.

(26) Enquête du demi-siècle - rapport de Tiaret, commune mixte, p. 159.

(27) Enquête du demi-siècle - rapport d'un chef de commune mixte, p. 160.

(28) Enquête du demi-siècle - rapport de l'administrateur des Braz.

إنتصار دعاة الإستقلال

إن هيمنة المعمرين وأنصار النظام الإستعماري المطلقة ، وكبح البورجوازية ، والتباين الاجتماعي ، وانقسام الطبقات الوسطى ، وظهور البروليتاريا في المدن ، والعمال والفلاحين في القرى ، كلها عوامل أعطت للتطور التاريخي نسقه السريع ، وحالت دون امكانية بروز حل وسط . فالحركة الوطنية التي لا يمكن فصلها عن نزوع الطبقات الشعبية الى القضاء المبرم على الحضور الأجنبي كانت ، منذ نشأتها الأولى ، مناهضة لفكرة تكييف النظام الاستعماري وإصلاحه . فبعد أن كانت أقلية في الثلاثينيات أصبحت الحركة الوطنية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، القوة السياسية الأولى في البلاد . لكن انتصارها لم يكن سهلا ومسيرتها خالية من العقبات . إن تاريخها حافل بالأزمات والانقسامات والتصفيات . فالطبقات الوسطى التي انضمت الى الحركة ما زالت تميل الى الحلول الاصلاحية ، أما مؤسسو جبهة التحرير الوطني فقد اقتفوا خطى مصالي الحاج في معارضتهم لفكرة القوة الثالثة . لكن هذه الفكرة لم تنقرض تماما إلا بعد انتفاضة الفلاحين شمالي منطقة قسنطينة (20 أوت / أغسطس 1955) .

القوة الثالثة في الميزان (1926 - 1955)

تحصلت الجزائر على استقلالها يوم 3 جويلية/تموز سنة 1962 . فالحركة الوطنية الشعبية التي كانت تقابلها عدة قطاعات بالمعارضة والانكار وتناهضها تحصلت ، بعد انتصارها ، على الشرعية التاريخية وأثبتت أنها كانت مطابقة

للمسار التاريخي . فتقييم المواقف السياسية للأفراد والمجموعات والمصالح التي تعبر عنها أو تصبو إليها أصبح اليوم ممكنا .

فما لا جدال فيه أن ممثلي الطبقات الاجتماعية السفلى كانوا أكثر فطنة وذكاء في نضالهم ضد الاستعمار من ممثلي الطبقات المحظوظة وذلك ليس لأن مشروعهم كان أكثر تماسكاً ولكن لأن وضعهم الاجتماعي فرض عليهم قراءة للواقع أسلم من قراءة غيرهم . فحامل لوائهم ، مصالي الحاج ، مؤسس الحركة الوطنية الجزائرية يبدو لنا وكأنه سابق لزمانه . فسيرته الطويلة في وحدته ونضاله المأسوي واللامتساوي ضد الحزب الشيوعي الفرنسي وضد الاصلاحيين الجزائريين كانت حقا فذة .

في الصراع بين القومية والاصلاحية هناك ثلاث حوادث بارزة :

•الجلسة العامة لنجم شمال افريقيا في ماي / أيار سنة 1933 والتي تم خلالها منع ازدواجية الانتماء . وهكذا تحررت القومية الجزائرية – التعبير السياسي للبروليتاريا الجزائرية في فرنسا – من قيود الوصاية الأبوية التي كان يمارسها الحزب الشيوعي الفرنسي .

•الاجتماعي الشعبي الذي دعا إليه المؤتمر الإسلامي في ملعب الجزائر العاصمة يوم 2 أوت/أغسطس سنة 1936 ، حيث أخذ مصالي الحاج الذي لم توجه إليه الدعوة الكلمة ورفض بقوة كل سياسة ترمي الى ضم الجزائر الى فرنسا .

•حركة «أحباء البيان والحرية» (AML) (مارس 1944/ماي 1945) – وهو تجمع مشترك بين حزب الشعب الجزائري والعلماء وأنصار فرحات عباس . هدفه المطالبة بدولة جزائرية مستقلة و«الترويج لفكرة الأمة الجزائرية» – تغير موقفها . فقد قررت جلسة شهر مارس/آذار 1945 ، رغم معارضة فرحات عباس والشيخ البشير الإبراهيمي ، النضال من أجل دولة مستقلة متحدة مع باقي بلدان المغرب العربي وكرّست مصالي «زعيماً أوحدا للشعب الجزائري» .

إن هذه الأحداث التي تبدو لنا اليوم ذات أهمية تاريخية بالغة قد نظرت

إليها الدوائر السياسية الفرنسية والجزائرية آنذاك باستخفاف واعتبرتها أحداثاً هامشية لا قيمة لها .

وهكذا وبعد فترة من التردد (1936 - 1945) قبل فيها مصالي الحاج - الذي كان كما أسلفنا القول متقدما على الحركة السياسية - فكرة برلمان جزائري منتخب مباشرة من الشعب ، رمى عرض الحائط بالأوهام الاصلاحية وذلك حال ما دخلت الجماهير في النضال السياسي . فبدأت عندئذ حقبة جديدة وجدت الحركة الوطنية نفسها وحدها في مواجهة «المنتخبين» والعلماء والشيوعيين ، وقد غلبت على هذه الفترة الحرب الكلامية اللاذعة والسباب والشتم والضرب وقد نتج عن كل ذلك تمزق عميق في صفوف الجزائريين تاركاً أثاراً بالغة في نفوس جيل كامل من المناضلين .

الإصلاح الإستعماري وقوة الشوفينية الفرنسية

لا يمكن التطرق الى تاريخ الجزائر حتى سنة 1962 دون اعتبار تاريخ فرنسا . كانت الحركة الوطنية العدو المشترك لكل من الحركة الاصلاحية الاستعمارية والحركة الاصلاحية الجزائرية القريبتين من بعضها . وقد انفصلتا عن بعضها بصفة نهائية سنة 1940 حين أصبح الاصلاح الجزائري أحد الإختيارات السياسية الوطنية .

أثناء نضاله ضد الاصلاحيين ، فهم مصالي الحاج أن الامكانية الوحيدة لتطور سلمي لا يمكن أن توجد إلا في فرنسا أي في مساندة الرأي العام الفرنسي للقضية الجزائرية وليس في الجزائر حيث كان التحجر الاستعماري سائداً ومهيمنا لكن لا الاشتراكيون (SFIO) ولا الحزب الشيوعي مستعدون لقبول استقلال الجزائر حتى في مستقبل بعيد : فمواقفهم المشتركة تتمثل في نفيهم للعنصرية كمشكلة خاصة ، والكبرياء الثقافي تجاه الجزائريين والرضى عن النفس وعجزهم عن مقاومة امبريالية بلادهم .

فالفرع الفرنسي للأممية العمالية (SFIO) ينكر وجود مسألة قومية جزائرية

ويؤكد على تحرير الأفراد وعلى التوازن بين المجموعة الجزائرية والمجموعة الأوربية . فسياسته الأبوية المستوحاة من المقترحات التي تقدم بها في الثلاثينات الحاكم العام فيوليت ترمي الى صد الحركة الوطنية وشلها بإعطاء الجنسية الفرنسية للجزائريين بناء على معايير بورجوازية كالكفاءة والاستحقاق . أما القضاء على الاستعمار فلم يكن وارداً في مشروعهم . بقيت اذا فرنسا سيدة اللعبة ، بيدها الحل والربط ، ومصير الجزائر يتحكم فيه الناخب الفرنسي وممثلوه في البرلمان . فعجز الاشتراكيين الفرنسيين على فرض تنازلات على المعمرين مثلما حاول إيفَ شاتينيو (1945 – 1948) ، وخوفهم من الحركة الوطنية جعلهم يتبنون القمع الذي يسلطه القائد العام الاشتراكي مارسيل – ادمون نيجلين (1948 – 1951) .

إن السياسة الاصلاحية للحزب الشيوعي الفرنسي تدخل في نطاق استراتيجية عالمية لا تعدو المسألة الجزائرية أن تكون فيها سوى فرصة لخدمة التوسع السوفياتي . فمن وجهة النظر هذه فإن مصير الجزائر يقرر خارجها وبدون مشاركتها . ذلك أن القوى المحركة والفاعلة هي ، حسب الترتيب ، الاتحاد السوفياتي ، بروليتاريا الدول الرأسمالية ، ثم يأتي دور الشعوب المستعمرة . وهكذا يغدو نضال الشعب الجزائري قوة اضافية في خدمة سياسة مقررة بعيداً عنها . فهذا الخط السياسي يؤكد على ضرورة مساندة الاتحاد السوفياتي ، وذلك عن طريق تكوين جبهة عريضة لصد الفاشية (1935 – 1945) ثم لمواجهة الامبريالية الأمريكية (1945 – 1954) . فمجرد الرغبة في الخروج من الفلك الفرنسي كانت تقابل بالريبة وتستجلب تهمة الدخول في لعبة الفاشية أو الإمبريالية الأمريكية . فحسب هذا المنطق «المانوي» لم يبق أمام الشعب الجزائري سوى اختيار طريقة حتفه . ومنه جاءت الفرية حول تواطؤ مصالي الحاج مع النازية ثم مع الامبريالية الأمريكية .

إن البرنامج الذي بلوره الحزب الشيوعي الفرنسي أثناء الحرب العالمية الثانية هو خير تعبير عن مضامين هذا الخطاب السياسي :

أ - الموقف الأبوي تجاه الشعوب المستعمرة : جوهر هذا الشعور يتمثل في مفهوم أخلاقي وهو المسؤولية . وهو مفهوم يتضمن فكرة تفوق الفرنسي على الجزائري ، ذلك «الطفل» الذي يجب تربيته ومساعدته على بلوغ سن الرشد . ومن هذا المنظار فإن قبول اللعبة «البورجوازية» التي لا يخرج عنها الحزب الشيوعي يصبح معيار استحقاق الاحترام .

«في زمن يجب أن تكون فيه فرنسا قادرة على القيام بدورها كقوة عالمية ، وعلى المحافظة على وحدة مستعمراتها ، فإن تطوير المسؤولية السياسية للسكان الأصليين يصبح ضرورياً . يجب أن يشارك هؤلاء مشاركة فعالة في إدارة شؤون بلادهم حتى نوفر لهم أسباباً إضافية للتعلق بفرنسا»[1] . والملاحظ هنا أن هذه الظاهرة التي يؤكد عليها الحزب الشيوعي لا تتماشى واستراتيجيته فحسب بل توافق كذلك الادعاء القائل بدور فرنسا ، «بلد الثورة الكبرى» ، الطلائعي من أجل تنوير الإنسانية .

ب - تبرير النهب الإستعماري : «إن المندوب القومي لفرنسا ما وراء البحار (المستعمرات - المترجم) والمجلس الاقتصادي لفرنسا «الكبرى» (فرنسا ومستعمراتها - المترجم) سيسهرون بكل حرص على أن تكون خيرات الأرض الفوقية والباطنية بين أياد فرنسية . وهذا يعني أنهم سيسعون جاهدين على جلب المنتجات التي تنقص فرنسا ، كالبترول مثلا ، دون أن تدفع لاقتناء ذلك سعراً غير مقبول بأية حال ، ولكن باستغلال ما يمكن أن توفره من خيرات مقابل ذلك (فسفاط بلدان المغرب ، كوبلت المغرب الأقصى ... الخ)»[2] .

بعد سنة 1945 تغيرت اللهجة لكن نفس الأهداف بقيت خفية في سياسة الحزب الشيوعي وذلك الى ما بعد سنة 1954 بكثير .

في حين طرحت الحرب العالمية الثانية مهمة القضاء على النظام الاستعماري ، تمادت أحزاب اليسار الفرنسي الكبرى في شوفينيتها . فكل ما فعلوه هو مقاومة التعسف والتجاوزات ، متجاهلين كون هذه التجاوزات وهذا التعسف

جزء لا يتجزأ من النظام الاستعماري . ففي بلد لا تحظى فيه الافكار المعادية للاستعمار بشعبية كبيرة ، تنازل الاصلاحيون فاسحين المجال أمام أنصار «الجزائر الفرنسية» . فكان أن توجت هذه الاستقالة بحرب ضارية دامت سنين عديدة .

الإصلاحية الوطنية

إن كان مصالي الحاج سابقاً لعصره فإن أعداءه مثل فرحات عباس وابن باديس والشيوعيين عرقلوا ، رغم صدقهم ونزاهتهم ، تجميع الطاقات الوطنية لمواجهة الاستعمار . ففشل كل المحاولات الوحدوية التي لم تكن تتماشى والتطلعات الوطنية دليل على ذلك .

فالمؤتمر الإسلامي (1936 – 1937) الذي طرد منه المصاليون كحزب اندثر وتلاشى وذلك لأنه انطلق من مبدأ ضمني ، يقول بقدرة اليسار الفرنسي على حل مشاكل الجزائريين مكانهم .

أما جماعة أحباء البيان والحرية (1944 – 1945) فقد تلاشت هي الأخرى نتيجة معارضة جناحها البورجوازي للتعبئة الشعبية ووقوفه ضد الانفصال عن فرنسا .

أما الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها (1951 – 1952) التي كوّنها «مسلمون معتدلون (...) زجوا في مأزق» حسب تعبير جان جاك شفالي رئيس بلدية الجزائر العاصمة ، فقد اندثرت مثلما ظهرت ، وسط اللامبالاة .

ما هي إذاً جذور الاصلاحية الجزائرية ؟

هنالك إصلاحيات لا إصلاحية واحدة . فإصلاحية الحزب الشيوعي الجزائري كانت تستجيب لعوامل خارجية . لكن واقع هذا الحزب مهما يقال فيه واقع قومي أصيل . فقد استهوى الأفراد والجماعات الراغبين في الاختلاط بين الجزائريين والأوربيين والداعين الى التعددية الثقافية والرافضين للتضحية

بالمسألة الاجتماعية مهما كانت التعلاّت . من هنا جاء اشعاعه داخل البروليتاريا وكذلك في صفوف البورجوازية الصغيرة التقدمية .

خلافاً لذلك كانت اصلاحية العلماء «والمنتخبين» اصلاحية بورجوازية تعبّر عن خوفهم على مصالحهم ومركزهم الاجتماعي من الشعب . فابن باديس الذي يعبر عن هذا الموقف لم يتردد في استعمال الدين لعزل الحركة الوطنية الناشئة . وللتشكيك في مصالي الحاج حاول استغلال غلق المساجد في الإتحاد السوفياتي ، حين كان ترتسكي في الحكم ، ضد خصمه ، متناسياً ما قاله هو – «الشيوعية هي خمير الشعب» – عندما كان يغازل الشيوعيين . فهدفه كان منع التحالف بين الحركة الوطنية والحركة الترتسكية التي كانت تساند دون قيد ولا شرط استقلال الجزائر .

ساعدت مواقف الاصلاحيين الاستعمار على الاستفادة من التنافس الموجود بين الأشخاص واستغلال التناقضات السياسية والصراع بين الأحزاب للتفرقة بين الجزائريين فحربهم الكلامية ضد الحركة الوطنية ، ودعاية العلماء التي كانت مركزة على إثارة المشاعر الدينية ، والكذب وتزييف الأخبار وتواطؤ الشيوعيين مع الاستعمار سنة 1945 أثناء أحداث سطيف جعل الحركة الوطنية تنغلق على نفسها .

أمام تقلص تأثيرهم يوما بعد يوم ، وتقهقرهم المطّرد وظهورهم كانتهازيين ، تراجع الإصلاحيون وفسحوا المجال أمام الحركة الوطنية معترفين بها ، رغماً عنهم ، كطرف أول .

وافقت دعوة الوطنيين الى العمل المباشر تطلعات الجماهير المتحمسة وقد اكتشفت قوتها وشاهدت انتصارات الشعوب الأخرى على الاستعمار . وكان الشعور الديني وكره الأجنبي من العوامل المساعدة على التصلب . لكن الشعب اختار بمحض إرادته وبحرية كاملة بين القوى المتواجدة على الساحة والساعية الى ضمه إليها . وباختياره الحركة الوطنية قدم لها سنداً حاسماً . لكن الاصلاحيين لم يقبلوا بهذا الواقع ولم ييأسوا من قلبه لصالحهم ، معتقدين أن

فرنسا ستختار لا محالة طريق الاصلاح وستستجيب لدعواتهم حتى تجنب البلاد محنة النضال المسلح . فالنصوص الشاهدة على ذلك كثيرة . في سنة 1953 أقر فرحات عباس بأنه أمام أخطار «الوضع الراهن» ، لا «يوجد أي حل خارج الرشاش» . ولم يكن هذا الحل يرضيه ولا كان اختياره . فقد كتب الى الوطنيين المغاربة قائلاً : «نحن نعتبر فيما يخصنا أن الارهاب ليس حلاً مقبولاً (...) فقداسة قضية الشعب وجمالها لا يسمحان بأن تهدر دماء الابرياء من أجلها . فالحلقة المفرغة التي حاول المستعمرون زج المسألة المغربية فيها لا يتم الخروج منها إلا بفضل العمل التثقيفي الدؤوب والتوعية والمقاومة السلمية النشيطة وكذلك بتغيير السياسة العامة للحكومات الفرنسية . لذلك يجب الاتجاه نحو باريس والقيام بحملة إعلامية وبالاتصالات الضرورية»[3] . وفي اجابته لأحد القراء وقد قارن بين المقاومة المغربية والمقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني يقول فرحات عباس : «لا يجب أن نقتاد بالمقاومة الفرنسية فمثلنا نحن هو نضال البروليتاريا الأوربية المستميت للحد من هيمنة الرأسمالية الجبارة»[4] .

أما حلّ مشكلة الجزائر فهو ينتظره من القادة الفرنسيين «إن الطبقات الشعبية تعرف كما كان يعرف شعب فرنسا إبان ثورة 1789 ، أنها ليست شيئاً يذكر في حين يجب أن تكون هي كل شيء . فهي تطلب اليوم من وزارة الداخلية أن لا تقوم بأي عمل يعرقل صيرورتها»[5] .

أما جريدة (Alger Républicain) (الجزائر - الجمهورية) التي تعبر عن وجهة نظر الشيوعيين فقد أطلقت صفارة الخطر يوم 9 سبتمبر/أيلول 1954 معبرة عن تخوفها من العنف كاتبة تقول : «غير معقول أن يقتصر الاصلاح على البلدان التي تحت الحماية الفرنسية فقط ، ذلك أن المغرب ثلاثي الأجزاء (...) فالمشاكل (...) المطروحة لا يجب حلها بنفس الطريقة لكن لابد من حلها في نفس الوقت . فصمت وسائل الاعلام والبرلمان الكلي حول هذا الموضوع لا يستطيع أن يبقي المسألة الجزائرية معزولة ، أن حلها الآن ممكن وذلك بهدوء وترو (...) وحجة كون الجزائر هادئة ، وأن لا «داعي للعجلة» هي أسوأ حجة وأفسد رد على الصبر وخير تشجيع للعنف» .

نظرياً ليس هنالك ما يقف حاجزاً أمام ادخال اصلاحات ليبيرالية تدريجية على النظام الاستعماري . لكن في الجزائر تبين ان هذه الطريق مسدودة لأن المعاداة للاستعمار لم تكن فكرة شعبية في فرنسا ولأن تصلب المعمرين لاقى دائماً الحظوة في البرلمان . فالأغلبية الساحقة للأوربيين في الجزائر (رغم مساعي بعضهم كجان جاك شوفالي الذي يفضل «أنصاف الثوار على الثوار» وكذلك مواقف الحزب الشيوعي الجزائري والكونفديرالية العامة للعمال) كانت منحازة الى المعمرين الذي يعتبرون أن كل تنازل ، مهما كان طفيفاً ، يخل بالنظام الاستعماري . وقد تمكنوا من فرض إرادتهم على كليمونصو سنة 1919 وعلى الجبهة الشعبية سنة 1936 وعلى حكومات سنة 1945 وسنة 1947 التي كانت تضم وزراء في اليسار .

كان المعمرون يعتقدون أن الحركة الوطنية لا تعبّر عن طموحات الشعب الجزائري وأنه يكفي القضاء على حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية والحد من تحركاته والزج بقادته في غياهب السجون ليستتب الأمن وتعود المياه الى مجاريها .

فمنطق المعمرين الكبار المستمد من الدفاع عن مصالحهم ومكاسبهم هو الذي جعلهم ينظمون أنفسهم كجماعة ضغط[6] داخل البرلمان الفرنسي . يقول جبرائيل أبو أحد ممثليهم : «سئمنا حكايات انتخابات الجزائريين المثيرة للسخرية ، فإن نحن تمكنا ، بصعوبة ، من توجيهها الوجهة التي نريد فهذا لا يعني أننا سننجح في ذلك مستقبلاً . لذا يجب أن نضع لها حداً . فنحن لم نعد نقبل حكومات عاطفية . نريد رجالاً أشداء قادرين على الدفاع عن حقوقنا بإظهار القوة واستعمالها إن لزم الأمر . أما فيما يخصني فقد عرقلت مشروع بلوم - فيوليت وأرضخت الحكومة . وأتساءل الآن ما الذي دفع بالجنرال دي غول لإثارة هذه القضية من جديد ؟ فكلما أعطيت العرب شيئاً ، إلا وطالبوك بأكثر منه .

لكن القمع البوليسي الذي استهدف بداية من الثلاثينات الطبقات الشعبية

في المدن أولا ثم في القرى ، وكذلك التنظيم المعبر عن طموحاتها ، حزب الشعب الجزائري – حركة إنتصار الحريات الديمقراطية ، عوض أن يُوقف الحركة السياسية ، وسّع قاعدتها ودعمها . في نفس الوقت بدأ الشعور بالخوف يغزو ، شيئاً فشيئاً ، السكان الأوربيين في الأرياف . في الخمسينيات ، طالبت عدة مراكز (أومال ، برج بوعريريج ، برج منايل ، شلالة) بحاميات ، وأخرى (كلوزيل ، جان ساديلا ، الخروب ، بسكرة ، بني أونيف ، وارسنيس) بدعم الثكنات الموجودة وبزيادة عدد الدركيين . أما في مقاطعة قسنطينة فإن، أحداث 8 ماي/أيار 1945 بقيت راسخة في ذاكرة الأوربيين .

«فنذ سنة 1946 والهوة تتسع بين المنتخبين الجزائريين والمنتخبين الفرنسيين»[7] .

«كل سكان بوتي (Petit) المسلمين شاركوا بشكل أو بآخر في أحداث سنة 1945 . لا يمكن في الوقت الحاضر أن نعوّل على ولائهم مع أنهم قدروا نتائج عملية 8 ماي حق قدرها»[8] .

كان شبح الانتفاضة يؤرق الأوربيين . «إن ريبل ، هذا المركز النشيط لحركة انتصار الحريات الديمقراطية والذي يضم مناضلين أذكياء أوفياء ومخلصين للقضية الوطنية كوّنهم مصالي الحاج بنفسه ، يمكن أن ينقلب من حين لآخر الى مسرح لأحداث أليمة تعرّض الأمن العام وحياة الأوربيين الى الخطر . إن عدد عناصر حزب الشعب الجزائري يفوق بكثير عدد المتعاطفين مع فرنسا الذين لا يرجى منهم في أحسن الأحوال غير الحياد . ومن ناحية أخرى فإن غياب قوات أمن عديدة ومدعمة وحاميات يجعل من ريبل مركزاً مثالياً لانطلاق الإنتفاضة الشاملة . فالوضع يتطلب المتابعة الدقيقة والعناية الفائقة» .

«إن الوضع يتطور في اتجاه معاكس لمصالح الفرنسيين ، وهناك ركون الى التفاؤل لا موجب له ... وأخشى ما يخشى هو أن يفضي هذا التهاون والتراخي بالجميع الى ما لا يحمد عقباه من مفاجآت مزعجة ، يوم تندفع العناصر المتأهبة

بل المتوثبة في موجات عارمة ، آخذة على عاتقها مهمة القضاء على الحضور الفرنسي مثلهم في ذلك ما وقع في الهند الصينية التي تستقطب الانتباه هنا كما تستقطبه كل الأحداث المتعلقة بالشرق الأوسط»[9] .

فشل القوة الثالثة : منعطف 20 أوت/أغسطس 1955

إن حظوظ التطور التدريجي للجزائر كانت تتحكم فيها فرنسا . لكن التضامن والتواطؤ بين الطبقات الحاكمة والمعمرين هي التي أدت الى انفجار نوفمبر 1954 . ولم تغير الانتفاضة شيئاً من هذا التواطئ ، مع أنه كان هناك رجال من الجانبين ، الجزائري والفرنسي ، يؤمنون بإمكانية اصلاح النظام الاستعماري وبإيقاف دوامة العنف . لكن فشلهم كان متوقعاً لأن اللجوء الى السلاح قد فجر التناقضات الموجودة في الجزائر .

للحديث عن المحاولات الرامية الى إيقاف الحرب فائدة واحدة : تبيين مدى محافظة المعمرين وعناد أوهام كل الذين يعتقدون في امكانية جلبهم الى التنازل عن مصالحهم .

أيقظت تسمية جاك سوستيل ، حاكماً عاماً للجزائر مكان روجي ليونارد ، آمال دعاة «القضاء على الاستعمار» من طرف السلطة . وقد حاول أحد مساعديه ، المقدم فيليكس مونتاي ، ربط الصلة بالوطنيين وتوجت مساعيه بمقابلة جرت بينه وبين وفد يمثل حركات مختلفة يضم المحامي وكَواكَ (عن الإتجاه المصالي) والحاج شرشالي (عن المركزيين) وأحمد فرنسيس (عن الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري) والشيخ خير الدين (عن العلماء) . ومع أن هذه المقابلة لم تكن لها أي صيغة تفاوضية فانها قوبلت باستنكار المعمرين من جهة وجبهة التحرير الوطني من جهة أخرى . فقادة الجبهة في الجزائر وفي القاهرة ذكرتهم المقابلة بما عاشوه من محن عقب القضاء على التنظيم العسكري لحزب الشعب الجزائري سنة 1950 ، وخافوا من أن تكون المقابلة محاولة لإعادة السيناريو التونسي الذي بمقتضاه ارغام المجاهدين على تسليم أسلحتهم الى حزب سياسي ، الحزب الدستوري الجديد بالنسبة لتونس . وبالرغم من أن هذا اللقاء

لم يسفر عن أية نتيجة ، فإن تهمة العمالة التي وجهها محساس وعبّان رمضان إلى الأحزاب المشاركة لقيت صدى وصدقها الكثير ، خاصة وأن الظروف كانت ملائمة . بقيت إذا الكلمة للسلاح . وبدأ الذين لم يدخلوا بعد في النضال يقتنعون ، في قرارة أنفسهم ، بالأساليب الجديدة ، ويستوعبون ، في صمت ، الإمكانيات التي وفرتها . وهكذا فقد خرج سكان الريف في القبائل وفي نواحي قسنطينة من حالة الانتظار والترقب . لكن قادة جبهة التحرير لم يولوا هذه الظاهرة العناية التي تستحق وكادت تفوتهم لشدة ما كانت أنظارهم مأخوذة بما يجري داخل الأحزاب . وأدت مشاركة وفد عن الجبهة في مؤتمر عدم الإنحياز بباندونج والنجاح الذي لاقته الى إرجاع الثقة في النفوس وأعطتها مزيدا من الإيمان بقدرتها على التغلب على منافسيها والقضاء عليهم .

في كل مكان أصبح شعار مقاطعة السلطة الفرنسية والإدارة رائجا . وأصبح جيش التحرير يسيطر أحسن من ذي قبل على مسرح العمليات ، وغدا الوضع مغايرا تماما لتكهنات روجي ليونادر الذي كان قد صرح في أواخر شهر ديسمبر/كانون الأول بأنه قد تم القضاء على الإرهاب .

أما الأعيان ، الذين كان لهم سند حقيقي في صفوف السكان قبل نوفمبر ، فقد فقدوا كل نفوذ ولم يعد يواليهم أحد . وكما اعترف فرحات عباس بعد ذلك ، «لم يعد هناك أحد يوافق النظام الإستعماري الفرنسي الذي أصبح محل نزاع»[10] . فقد نقض الإجماع ، ويوم 3 أفريل/نيسان 1955 وافقت الجمعية الوطنية على إعلان حالة الطوارئ .

وهكذا بدأ الطرد التعسفي والرقابة وفتحت المحتشدات . لكن فرنسا التي لها ذاكرتها التاريخية استبدلت كلمة محتشد بكلمة محتشمة : التجمعات السكانية . «إن الوضع سائر في طريق التحسن» ، هذا ما صرح به الحاكم العام جاك سوستيل الذي أفرج في شهر ماي/أيار عن خمسة عشر مناظلا قياديا سابقا في حركة انتصار الحريات الديمقراطية . لكن قد فات الأوان . فهؤلاء المناضلون أصبحوا اليوم في صف المتفرجين . فالأحداث قد تجاوزتهم ولم يعد لهم أي تأثير

عليها ، لكن فرحات عباس رأى في هذه البادرة مؤشرا مشجعا ، فسافر في شهر جوان / حزيران الى باريس ، عارضا على المسؤولين السياسيين مشروع دولة جزائرية مرتبطة بفرنسا[11] ، لكن مساعيه ذهبت سدى . وهكذا أرغم ، أمام الواقع ، على اختيار معسكره . وفي يوم 20 أوت/أغسطس 1955 لم يبق من تفاؤل الحاكم العام شيء يذكر ، فقد هزت الجزائر انتفاضة لا عهد لها بها كان مسرحها منطقة قسنطينة .

لا نريد هنا سرد تفاصيل هذه الإنتفاضة وسنكتفي بعينة من وقائعها الدالة على معناها :

«في محطة الحافلات بسكيكدة انقض أحد الفلاحين بفأسه على حافلة وأخذ في تحطيمها . تقدم نحوه عامل محطة البنزين ، حسين زروق ، الممثل السابق (1954) لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في المكان والذي أصبح فيما بعد (1956) قائد ولاية باريس لحساب جبهة التحرير الوطني ، واقترح عليه حرق الحافلة باضرام النار في خزان البنزين . فأجابه الفلاح قائلا : «أتركني وشأني فأنا لست أجهل منك . إني أريد «تطهير» قرن من الخزي والذل والإهانة» .

«في منجم العالية قرب فلفلة تم تقتيل 37 أوربيا من بينهم 23 طفلا في ظروف غاية في الفضاعة .

في قسنطينة تعرض علاوة عباس – ابن أخ فرحات عباس – وشريف الحاج سعيد وهما ممثلا الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري الى اعتداء ، قامت به جماعة من مجاهدي جبهة التحرير ، فمات الأول متأثرا بجراحه في حين نجا الثاني ، وانضم فيما بعد إلى الجبهة . وقد نجا الكثير ممن سجلوا في قائمات المحكوم عليهم بالتصفية والذين لم يعثر عليهم فدائيو جيش التحرير ، نذكر منهم : الشيخ خير الدين والحسين بن الشيخ من «العلماء» وفرحات عباس والدكتور بن جلول والمحامي بن باحامد . وقد شملت الحركة حوالي أربعين مركزا ، وشارك فيها آلاف الفلاحين المسلحين بالسكاكين والفؤوس وغير ذلك ، وكانوا واثقين من أن طائرات مصرية تدعمهم . وقد أطلقوا العنان

لكرههم للاجنبي ولحقدهم على كل الذين رغم انتمائهم للحركة الوطنية يقفون ضد الكفاح المسلح . وقد أسفرت الأحداث عن مقتل 71 أوربيا ، والعديد من الجزائريين . أما القمع الذي كان يشرف عليه المثقف المعروف ، الحاكم العام جاك سوستيل ، فقد أعتمد مبدأ المسؤولية الجماعية وأسفر عن مقتل 12.000 نسمة . وقد تعرضت كل شرائح المجتمع الجزائري لهذه الحملة ولم ينج منها حتى حلفاء الإستعمار أنفسهم .

وهكذا دخلت الجزائر كلها في الحرب . فكل الذين لم يقدروا الإستعمار حق قدره ، جزائريين كانوا أم أوربيين ، وتمادوا في المطالبة بالمصالحة أصبحوا يسبحون في إتجاه معاكس للتيار . «ابتداء من الآن (20 أوت) ستصبح الثورة الجزائرية (...) حرب الجزائر بالنسبة لفرنسا (...) لقد قلت في نفسي بعد الإستماع إلى تقارير الصحافيين حول عمليات القمع التي تذكر بتلك التي أعقبت أحداث 8 ماي 1945 في منطقة قسنطينة أن كل شيء قد انهار وتبدد نهائيا . أسرعت عند جاك سوستيل وتوسلت اليه في تنظيم المائدة المستديرة التي دعيا اليها فرحات عباس وزعماء آخرون من المعتدلين وإلا فسيفوت الأوان . وخاب مسعاي إذ أجابني سوستيل قائلا : «الآن فات الأوان . إنها الحرب . فبعد ما حدث في الميليا لن يقبل الرأي العام الأوربي أن نتحادث مع أي طرف كان . إنها الحرب ويجب القيام بها» ، فأجبته : «أعتقد أنك على خطأ في تفكيرك هذا إذ يمكننا تجنب ما هو امر» . لكن مع الأسف كل شيء تورط أكثر مما ينبغي . وكانت النهاية»[12] .

إن تحول انتفاضة غرة نوفمبر الى ثورة وطنية كان رهين مواقف الطبقات الوسطى ، فهذه المسألة الحرجة المرتبطة بظهور جبهة التحرير الوطني كقوة قيادية للحركة الثورية كانت حاضرة في أذهان كل القادة لكن بطريقة يكتنفها الغموض . فالوحيد الذي أهتدى إلى الحل المناسب هو عبان رمضان ، أحد اطارات حزب الشعب الجزائري سابقا ، وذلك بعد خروجه من السجن في شهر فيفري سنة 1954 . في غياب آيت أحمد وبن بلة وبن مهيدي وبوضياف وخيضر عن أرض الوطن عهد اليه كريم بلقاسم بمهمة الإشراف على

مصير جبهة التحرير الوطني . انطلاقا من قناعاته باستعداد الجماهير الكلي ومن وعيه بحدود القادة الخارجين من الطبقات الشعبية قرر عبان رمضان إدخال الطبقات الوسطى في الحركة . ولم ينجح في مهمته هذه إلا حين أقنع زيغود من جهة وفرنسا من جهة أخرى الشرائح الوسطى المتخوفة من العنف أنه قد حان الأوان لتختار معسكرها . وكانت أحداث 20 أوت 1955 هي الحد الفاصل ونقطة التحول الإجتماعي للحركة الوطنية الذي كرس القطيعة مع روح غرة نوفمبر .

1 – ظهر وزن الطبقات الشعبية القروية والريفية جليا في المسيرة الثورية . فهذه الشرائح الاجتماعية التي كانت وراء مصالي الحاج وضد المركزيين في كل من سكيكدة وقالمة وقسنطينة اختارت لنفسها قادة جدد . وقد بدا ايقاف حمادي كرومة ومحمد المغلاوي ، شُهر العيفة ، ممثلي الاتجاه المصالي في سكيكدة والشيخ بالقاسم البيضاوي[13] قائد نفس الاتجاه في قسنطينة وكأنه رمز لاستبدال القادة الشعبيين أصيلي المدن بقادة ريفيين . لكن الأهم من ذلك هو أن تسليح الفلاحين الذي خططت له الجبهة تبين أكثر فاعلية من عمليات الاغتيال الفردية . وقد أبرز هذا التحول الاجتماعي أن الطبقة العاملة في المناجم وفي الضيعات الاستعمارية الكبيرة والتي أهملتها نقابات الكنفيديرالية العامة للشغل (CGT) أثبتت عداءها للتعايش السلمي بين الأوربيين والجزائريين . فأبناؤها هم الذين قتلوا العمال الأوربيين في فلفلة . ومرة أخرى يتضح أن التصورات السياسية للشيوعيين لا تستند لأي واقع اجتماعي .

2 – كانت انتفاضة غرة نوفمبر مشروعا واعيا ، متحسبا لميزان القوى . فكل ما من شأنه قلب هذا الميزان لصالح الاستعمار – الاعتداء على المدنيين ، التعبئة الشعبية العامة ... الخ – قد تم تلافيه .

ان أحداث 20 أوت كانت نتيجة الاندفاع العاطفي هذا الاندفاع الذي تضرب جذوره في أعماق وعي الجماهير الديني . فانتفاضة شمال منطقة قسنطينة لها طابع شعبي لم يكن لانتفاضة غرة نوفمبر . فأفكار القادة كانت مطابقة

لأفكار القاعدة تطابقا يكاد يكون كاملا . أمام مجتمع حكم عليها بالضيق والشدة ، كونت الجماهير الشعبية معاييرها السياسية والأخلاقية الخاصة بها . فالقضاء المبرم على «الأجنبي» وتصفيته الجسدية وكرهه لم تكن في نظرها ظاهرة مشينة ولا جنحة في اقترافها . وقد فهم فانسون مونتاي هذا الوضع حين كتب يقول : «الى حد الآن لم يقترح شيء يذكر لتجاوز «الأغنية» المألوفة حول «الجماهير الإسلامية المتعصّبة» في حين يكمن السبب الحقيقي لهذا الانفجار الحاقد «في رد الفعل على الاغتصاب والاهانة . فقد جاء الوقت الذي لم يعد فيه أحد يتحملها[14] .

3 – غدت الانتفاضة صراعا ضد الاستعمار وضد الوطنيين المعتدلين الذين اتهموا بتمييع عزيمة الجماهير النضالية . فالرهان الأساسي كان الحصول على التمثيلية . والمجاهدون في الجبال طالبوا بحق تمثيل الشعب الجزائري لهم وحدهم .

فأحداث 20 أوت زعزعت الجزائريين وخاطبتهم بلغة يفهمونها : لا مفر من الجهاد ولا مفر للمسلمين من واجب التضامن والمساندة . أما العملاء والمعتدلون فمصيرهم مصير المرتدين ، يعني الموت .

ابتداء من هذا التاريخ أصبحت نظرية «المعسكرين المتقابلين» هي السائدة داخل الثورة الجزائرية . فحتى الذين كانوا يعارضونها مثل عبان رمضان تبنوها بدورهم .

4 – ان عجز الزعماء المعتدلين تجاه القمع الوحشي أفقدهم ثقة الرأي العام . وكان انقسام الحركة الوطنية هو الخطر المهدد . فمثلو الطبقات الوسطى الذين كانوا يعيشون في الوهم وخارج الواقع انضموا الى جبهة التحرير الوطني مقدمين لها ضد فرنسا وضد المصالية اطارات مجربة ومحنكة . فما عجز عن تحقيقه حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية (جلب الطبقات الوسطى الى الحركة الوطنية) ، حققته جبهة التحرير عن طريق الاقناع والعنف الثوري . فخوف الزعماء المعتدلين من «تجاوزات» الانتفاضة الشعبية جعلهم يدخلون تحت حماية قيادة تريد تسيير الكفاح المسلح من

فوق . لقد أقنعتهم الأحداث أن الوسائل التي اعتمدوها غير ملائمة للأهداف المنشودة . فقبلوا مبدأ الكفاح المسلح مقابل ضمانات سياسية لفائدتهم . فمن ناحية تنازل عبان رمضان بخصوص الحكم الذاتي الذي اعتبره هدفا أكثر واقعية من الاستقلال التام وأكد لهم من ناحية أخرى أن الثورة الاجتماعية ليس هدف جبهة التحرير ، قائلا في هذا الموضوع :

«إن الصينيين يقومون في ذات الوقت بمقاومة وطنية وبثورة اجتماعية . أما نحن فسنقف في منتصف الطريق الذي اختاروه ذلك أن الثورة الثانية غير مطروحة بالنسبة لنا . فقد حملنا السلاح من أجل هدف محدد : التحرر الوطني»[15] . لكن أنصار التصلب في الدفاع عن الأهداف المحددة في غرة نوفمبر اعتبروا أنفسهم غير ملزمين بتعهدات عبان رمضان الذي وجد نفسه مرغما على عدم احترامها هو نفسه . ولما نزل غي مولي رئيس الوزراء الفرنسي مرة أخرى في فيفري 1956 عند رغبات المعمرين المتطرفين كان موقف فرنسا هو الذي لعب الدور الحاسم في انتصار دعاة الاستقلال على المعتدلين كما كان وراء كل التطورات القادمة في تاريخ الجزائر ونتائجها . ولم يفهم القادة الفرنسيون ضرورة القيام باصلاحات الا بعد فوات الأوان . فالطبقات الوسطى التي أنكرت الانتفاضة سنة 1954 قبلتها أخيرا حين وعت أن الوقوف ضد جبهة التحرير الوطني يعني بقاء السلطة في أيدي أقلية من الأوربيين . وهكذا دخلت الجزائر حربا لا هوادة فيها ، مجهولة التطورات والنتائج . فالصراع من أجل البقاء هو الذي دعم الوحدة الوطنية رغم كل الخلافات .

تبلور الوعي القومي خلال قرن من الاستبداد الاستعماري . فانسداد الحياة السياسية ساعد ، في وقت تصاعدت فيه النضالات في المغرب ، كل الذين كانوا على استعداد لتحدي السلطة الاستعمارية وخرق «قداسة» وحرمة زعماء الحركة التحريرية . مصالي الحاج ، أبو القومية الجزائرية ، وعضده ثم منافسه ، حسين الأحول . أما مؤسسو جبهة التحرير فقد مكنهم سبقهم الى رفع السلاح من احتواء كل النضالات من أجل الاستقلال التي بدأت في العشرينيات . لكن في البداية لم تكن الطموحات التي عبروا عنها موافقة

لامكانـات الحـال[16]. وكان التفـاوت كبيرا بين قـواتهم وقـوات الفرنسيين المتعلقين تعلقا شـديـدا بـأمبراطوريتهم . فقـد كتب مراسل جريـدة «لومونـد» بتاريخ 13 مارس/آذار 1956 يقول : «إن ارسال الجيش الى الجزائر أصبح أمرا ضروريا لتجنب هزيمة مذلة تكلفنـا الكثير»[17]. في مثل هـذه الظروف فـإن حرب التحرير التي خـاضهـا الشعب الجـزائري لا يمكن أن تكـون الا حربـا طويلة المدى كما تنبأ بذلك آيت أحمد منذ ديسمبر/كانون الأول 1948 .

هـوامـش

(1) "Au service de la Renaissance française", Editions de la Renaissance - 44, rue le Pelletier.

(2) المصدر السابق .

(3) أنظر : La République Algérienne - Xe année - n° 6 Vendredi 13 nov. 1953.

(4) أنظر : La République Algérienne - Xe année - n° 10 Vendredi 11 déc. 1953.

(5) أنظر : La République Algérienne - Xe année - n° 9 Vendredi 4 déc. 1953.

(6) حول هـذا الـوضـور أنظر : C.R. Ageron, France Coloniale ou Parti Colonial, PUF. Paris-Presse, 7 mai 1947.

(7) أنظر : L'Enquête du demi-siècle - rapport de Guelma arrondissement, p. 242.

(8) L'Enquête du demi-siècle - rapport de la commune mixte de Chellala, p. 241.

(9) أنظر : L'Enquête du demi-siècle - rapport de la mairie de Skikda, p. 243.

(10) أنظر : Ferhat Abbas - Autopsie d'une guerre - l'Aurore. Garnier, 1930, p. 104.

(11) حول سفر فرحات عباس الى باريس ، أنظر المصدر السابق ، صفحة 83 وما بعدها .

(12) Cité par Pierre Uri in Mémoires de notre temps - Calmann Lévy, p. 241-242.

(13) أوقف هؤلاء المناضلون بعد عملية اغتيال الشنوفي : أحد عملاء البوليس ، في ديسمبر 1954 .

(14) أورده ايف كوربير في كتابه : Le temps de Léopards, p. 190

(15) أنظر : Francis Jeanson - L'Algérie hors-la-loi - Le Seuil, 1955, p. 302.

(16) حول مواقف الرأي العام الفرنسي من القضية الجزائرية ، أنظر : Charles Robert Ageron, in Actes du 1er congrès d'Histoire de la Civilisation du Maghreb - Tunis, 1979, pp. 155 à 182.

(17) أنظر : Rapport d'Aït Ahmed au Comité Central du PPA in Mohammed Harbi. Archives de la Révolution algérienne, éd. Jeune Afrique - 1981, pp. 15 à 49.

غـرة نوفمبـر كتصـور

إن انقسام حركة انتصار الحريات الديمقراطية ونتائجه على رؤية مؤسسي جبهة التحرير الوطني قد ساعد على ظهور الوهم القائل بأن كل شيء بدأ مع هذا الانشقاق كما ساعد على تجاهل الماضي واخفائه واعادة بناءه بطريقة انتقائية . اذ كانت الظروف ملائمة لذلك . فقد افتتحت الثورة عهد انتشاء شعر الجزائريون فيه بأنهم يسيطرون على مصيرهم الذي لم تعد تتحكم فيه مجموعات أجنبية عنهم تماما . غير أن الصراعات بين مختلف الاتجاهات وتطلع القادة الى فرض نفسهم على السكان كانت واقعا يوميا .

كل مجتمع يواجه حاضرا صعب القراءة مستعصي الرموز ويشعر بالقلق ازاء المستقبل المجهول المعالم يكون الجو فيه ملائما «للتأخي» ويفرز عقائد تساعد على التضامن بين أفراده لتحقيق الأهداف المشتركة .

ومن ناحية أخرى أحاطت جبهة التحرير الوطني نفسها بهالة من الميثولوجيا ، وككل سلطة لم تنج من تلك العملية المعهودة المتمثلة في تجاهل شطر من حقيقتها . وحتى تضفي الشرعية على عملها وجعل الشعب الذي كان منقسما حول الطرق التي يجب اتباعها يلتف حولها ، حولت الجبهة غرة نوفمبر الى حدث مؤسس للقومية الجزائرية وحقرت كل ما قامت به الأحزاب السابقة وقدحت في التعددية السياسية ومجدت الفلاحين على حساب الحضر ، لكن هذه الأساطير ، ككل الأسطاير ، كشفت عما تخفيه من معانٍ .

يبدو طبيعيا في مجتمع شديد لا يرحم على الفشل ويمجد النجاح بلا حساب

أن يمجد مؤسسو جبهة التحرير ما قاموا به ويندّدوا بخصومهم خاصة وأنهم كانوا في حيرة من أمرهم بين رغبتهم في الصدام وتصفية الحسابات القديمة وخوفهم من أن يُنظر اليهم كمغامرين مبتذلين .

لكن لقد حان الأوان الآن لقراءة تاريخ الجزائر قراءة تختلف عنها لا كتاريخ داخلي تيار الكفاح المسلح ولدراسة الأساطير التي تعتم الديناميكية السياسية والاجتماعية للثورة الجزائرية دراسة نقدية .

أسطورة «الصفحة البيضاء»

إن أسطورة «الصفحة البيضاء» تقدم التاريخ السياسي على حساب التحليل الاجمالي ، وتزيد في حدة التباين بين ما قبل غرة نوفمبر وما بعده ، مغفلة عوامل الاتصال والاستمرارية التاريخية . فهذه العوامل نجدها على مستوى الرجال وكذلك على مستوى الأفكار . فمع كونهم مناضلين سابقين في حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية ، تشبعوا بأساليبه وبممارسته ، يحاول قادة جبهة التحرير تقديم حركتهم على أنها حركة جديدة تماما ، فاعادة بناء الماضي بطريقة انتقائية لم تملها اعتبارات نظرية بل فرضتها الحاجة الى الشرعية التاريخية . أما انقساماتهم حول مسألة التحالفات فقد تجاوزوها بالتركيز على خصومهم وهم : قادة حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية من مركزيين ومصاليين . لماذا هذا الاختيار بالذات ؟ لسبب بسيط هو أن مؤسسي جبهة التحرير لهم نفس التطلعات ونفس التاريخ السياسي ونفس القاعدة الاجتماعية وهؤلاء الخصوم . فهذا التقارب جعل الصدام بينهم لا مفر منه . فهل كان الصراع يدور حول السلطة ؟ طبعا ! لكن نكون قد حدنا عن الحقيقة اذا اعتبرنا أن الصراع حول السلطة هو العلة الوحيدة ، اذ لا يمكن تجاهل التعطش الى العدالة والتوق الى تحرير الجزائر الذي كان يلهم «أبناء عيد كل القديسين» (هذه العبارة أطلقت على المجاهدين الذين افتتحوا النضال المسلح وذلك لأن اندلاع الثورة كان يوم غرة نوفمبر/تشرين الثاني وهو اليوم الذي يوافق هذا العيد المسيحي La Toussaint – المعرب) .

أول خطوة قام بها دعاة الكفاح المسلح لتأكيد القطيعة مع الماضي هي : الرجوع الى سنة 1947 كبداية للتباين الذي حصل سنة 1954 فالوقوف ضد المشاركة في انتخابات تلك السنة والانتماء الى «المنظمة الخاصة» أصبحت ، خلافا للواقع ، هي المعايير لتحديد من كان مع الانتفاضة المسلحة ومن كان ضدها[1] . فكل قادة حزب الشعب الجزائري الذين دعوا سنة 1946 الى المشاركة في الانتخابات التشريعية الفرنسية بهدف الوقوف في وجه الأحزاب الاصلاحية وفضح أوهامها حول امكانات الثورة التدريجية أمام الجماهير ، تم تصنيفهم كإصلاحيين واعتبروا ، لأسباب دعائية ، من «التائهين» و«الانحرافيين» .

تنحصر مهمة أسطورة «الصفحة البيضاء» في جعل الكفاح المسلح أساس الشرعية الجديدة . وهكذا اعتبر العنف العلامة الوحيدة للعقلية الثورية . فالوطنيون الذين لا ينتمون الى حلقة «القادة التاريخيين» وجدوا أنفسهم ، تلقائيا ، خاضعين لسلطة زعماء جبهة التحرير الوطني . فالنضال في حزب من الأحزاب الوطنية قبل نوفمبر 1954 كان يشكل عائقا طيلة سنين عديدة . أما آلاف الذين دخلوا الحياة السياسية بعد هذا التاريخ فكانوا يفخرون «ببكارتهم» وبعدم تورطهم في قرارات الماضي ، بما في ذلك الذين تعاملوا مع الاستعمار وتناسوا ماضيهم . فهؤلاء المناضلون الجدد هم الذين شكلوا قاعدة قادة جبهة التحرير وحموهم من منافسة قادة الحركة الوطنية الشعبية المحنكين .

فهل كان هؤلاء القادة فعلا ضد الكفاح المسلح ؟ لا شك أن الاتجاه المتطرف كان الوحيد الذي اعتبر الانتفاضة كهدف في ذاتها وكضرورة ملحة ، مركزا النقاش حول الوقت المناسب لذلك ، لكن اعتبار كل المركزيين وكل المصاليين مناهضين لها تحامل وتسرع في الحكم . فالواقع أكثر تشعبا من ذلك .

فالانتفاضة لم تكن واردة بالنسبة للمركزيين ولم يفكروا فيها . فالعديد من أعضاء اللجنة المركزية كموسى بولكروع وبو لحروف والمنجي زين العابدين اعترفوا لنا بعد الاستقلال أن الخوف من المغامرة وليس مشكل «عبادة

الشخصية» هو الذي دفع باللجنة المركزية الى الوقوف ضد مصالي الحاج . لكن لما طرحت مسألة النضال المسلح تبناها الكثير . فمنهم من كانت نيته المبيتة عزل مصالي ومنعه من تركيز نفوذه على حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية - ومنهم من كان مقتنعا حقا بذلك مثل حمودة الهاشمي أو يعتبر أن الانتفاضة لا مفر منها مثل عبد الحميد مهري ومحمد يزيد ، لكن ، كما سبق أن قلنا ، تمادت معارضة أغلبية المركزيين للانتفاضة الى ما بعد نوفمبر .

أما مصالي فإنه من الصعب أن نعيب عليه وقوفه ضد الانتفاضة ، فقد أقر بضرورة الكفاح المسلح منذ سنة 1951 حين بدأت تونس تتحرك في هذا الاتجاه ، وقد أقترح على سكرتارية الحزب آنذاك ايفاد رجال للتدرب على السلاح في الشرق الأوسط تحت اشراف الأمير عبد الكريم ، وفكر كذلك في بعث «المنظمة الخاصة» من جديد وأمر آيت أحمد بتحضير مخطط يهدف الى اعادة تنظيمها ، وقد تم ذلك فعلا . لكن مصالي ، خلافا «لدعاة حمل السلاح» لم يكن ينظر الى الانتفاضة من الزاوية العملية ، ولم يكن يتصور حصول انفجار دون تسخين مسبق . فبحكم تكوينه كان همه الابقاء على الحزب وعدم التفريط في أساليب النضال الجماهيري لصالح منظمة عسكرية . وحين وقعت الانتفاضة لم يكن موقفه منها موقف المتردد المتحفظ بل حرض أنصاره على مساندتها منذ الشهر الأول[2] . لكن الشيء الذي لم يقبله هو أن السلطة الجديدة خارجة من تنظيم تكون ضده أثناء الانشقاق الحاصل داخل حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية . إن خلافه مع جبهة التحرير الوطني هو خلاف حول السلطة ، ولا يمكن حصر المسؤوليات فيه من جانب واحد . فمصالي لم يناهض في 1954 - 1955 كعنصر مضاد للثورة وانما قدم كذلك ليسهل القضاء عليه وتصفيته جسديا ان لزم الأمر «سنتبع الطريقة التي تشككه في وطنيته ، وقد بدأنا في نشر البلاغات لاستغلال العمليات التي يقوم بها أنصاره لصالحنا» هذا ما قاله عبان رمضان للشيخ الحسين بن الميلي في ربيع سنة 1955 .

وكما هو معلوم ، فإن موقف دعاة حمل السلاح من مصالي أملته الصدامات بين أنصاره وزعيمهم محمد بوضياف .

فبغض محمد بوضياف لمفاهيم السلطة الأبوية وتعلقه بالنظام «العقلاني» جعلاه يقف من مصالي موقفا لا تمييز فيه . فوجوده ، رغما عنه ، بجانب المركزيين المسيطريين على الحزب حتى ديسمبر/كانون الأول 1953 ، منعه من فهم طبيعة الحركة المصالية وواقعها ، وغابت عنه الحوافز التي تحرك مناضليها وتشكل قوتها . بالطبع لم تكن الحركة المصالية خالية من الشوائب . ففيها الوصوليون والعناصر الانتهازية التي تسعى الى الوصول الى السلطة لا غير . لكن وراء مصالي ، وانطلاقا من مواقفه المعادية للاصلاح يوجد آلاف من المناضلين الصادقين الذين يدفعونه الى الامام ويطمحون الى محاربة الاستعمار والالتحاق بالتونسيين الذين بدأوا كفاحهم المسلح . فبوضياف لم يكن يفرق بين شخصية مصالي ووظيفته التي تنحصر في التعبير عن الراديكالية الشعبية ، وفي حث الجماهير ودفعهم الى القضاء على النظام الاستعماري .

فتعرف الشعب على نفسه فترة ما في مصالي يعكس استمرارية النماذج السلطوية القديمة المسيطرة على العقليات من جهة وضعف الهياكل السياسية العصرية من جهة أخرى . ففي بلد يعد عشرة ملايين نسمة ، لم تتمكن الأحزاب الوطنية المناهضة للاستعمار من تنظيم 50.000 مناضلا تقريبا ، أغلبيتهم من سكان المدن أو القرى الكبيرة .

اذا أخذنا بعين الاعتبار واقع الجزائر يتضح لنا أن العزم على التخلص من مصالي بكل الطرق لم يساعد على حل المشاكل بل بالعكس زادها تعقيدا ، فالآن صرنا نعرف أن الانقسامات والتناحر داخل الحركة الوطنية وما انجر عنها من صدامات لم تكن ضرورية . هذا ما تؤكده شهادة الشيخ الحسين بن الميلي : «في صائفة 1954 طلب مني ديدوش ، وكان قلقا حول امكانية دفع الشعب الجزائري الى النضال المسلح وراء رجال مجهولين منه ، أن أقنع بوضياف باعلان الانتفاضة تحت راية مصالي . فسعيت الى ذلك لكن بوضياف

قابل الاقتراح بالرفض الجازم . وفي سنة 1968 ذكرني بوضياف بذلك قائلا : «هل تذكر ما عرضته علي سنة 1954 ، لو أستجبت لطلبك لما حصلت كل هذه الخسائر» فكان جوابي أن الاقتراح ليس اقتراحي بل ديدوش هو الذي تقدم به»[3] .

إذا أمعنا النظر في التسلسل الزمني يتضح لنا أن غرة نوفمبر أتت بعد عودة حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية الى خط سياسي أكثر تصلبا . فنسيان ذلك يعتبر تجاهلا للحقيقة . إن انهزام المركزيين أمام المصاليين كان انذارا بوقوع الانفجار . فبانتصار مصالي انتقل النقد الجذري من العجز الى الأمل ، وأدى سقوط الحاجر الاصلاحي الى ثورة حقيقية في العقول وفي الممارسات . ففي خضم الحرب الكلامية والتراشق بالتهم تلاشت هيبة القادة ورهبتهم ، ولم يعد هناك من مواضيع محرمة ، وحصل تغيير جذري ازاء المراتبية فحرية الرأي التي اكتسبتها الاطارات في الحكم على مختلف الاتجاهات ساعدت على خلق مراكز سياسية مستقلة أدى تجمعها الى ظهور جبهة التحرير الوطني . ولا يسعنا الا أن نؤكد على الحقيقة التالية : أن انتصار المصالية على الاصلاحية هو الذي حرر الطاقات والقوى الجذرية وفتح الطريق أمام حرب التحرير . فكون مصالي أصبح ضحية لنتائج انتصاره ، فهذه مأساة من تلك المآسي التي يزخر بها التاريخ .

ومجمل القول أن أسطورة «الصفحة البيضاء» لا تساعد على فهم الصراعات الحادة بين الحركة الوطنية والحركة الاصلاحية من 1930 الى 1954 ، ولا تكشف النقاب عن المصالح الحقيقية التي تتضارع حولها التيارات المتواجدة داخل حزب الشعب الجزائري . من ذلك أن المناطق الجنوبية التي ساندت بقوة مصالي في الأزمة التي مرت بها حركة انتصار الحريات الديمقراطية في ديسمبر/كانون الأول 1953 ، حددت مواقفها انطلاقا من اعتبارات ثلاث :

*تعريب الحزب ، أي ارتقاء المناضلين «العرب» الى المراكز القيادية . وقد

استجاب المؤتمر المصالي المنعقد في هورنو (بلجيكا) لهذا الطلب كما تذكر ذلك اللائحة العامة الصادرة عنه .

*تنظيم الانتفاضة .

*الاقرار بزعامة مصالي واعتباره القائد الأوحد للحزب .

وبحكم تكوينهم كان مناضلو هذه المناطق يعتبرون الصراع حول مسألة «عبادة الشخصية» صراعا تافها ، وأن مجتمعا بدون قادة هو مجتمع من صنع الخيال . وهذا لا يعني أنهم يسلمون مقاليد الأمور لمصالي تسليما أعمى . فهم يؤكدون على حقهم في الاشراف ، معتمدين في ذلك على مبدأ الشورى التقليدية التي كان مصالي نفسه متمسكا بها تمسكا شديدا . فالتسميات والقرارات السياسية تسبقها دائما مداولات ومشاورات ولا تتم الا اذا حصل حولها اجماع أو تسويات مع الأفراد والمجموعات القريبة من السلطة .

فلا يمكن اذا خلط هذه الممارسات ، التي ترمي بجذورها في التقاليد الجزائرية ، والتي تطبعت بها العقول بـ «عبادة الشخصية» على الطريقة الستالينية التي تجعل من الزعيم تجسيدا للتاريخ .

واذا اعتبرنا غرة نوفمبر بداية كل شيء ، حكمنا على أنفسنا بأن لا نفهم شيئا من الحياة الداخلية لجبهة التحرير ولا من التنافس والصراع بين قادتها والاتجاهات التي تتقاسمها . فما ورثته عن الماضي بقي مسيطرا على العقول الى درجة أن تقييم أساليب النضال المتبعة قبل نوفمبر 1954 لم يصحبها نقد تاريخي متماسك . فالفاعلية الآنية لجبهة التحرير لم تكن تعني أن المشاكل السياسية والاجتماعية التي أدت الى انحلال حزب الشعب الجزائري حركة انتصار الحريات الديمقراطية قد تم تجاوزها ، أو أنها لن تبسط من جديد . فعلى غرار حزب الشعب الجزائري كانت جبهة التحرير تعكس داخلها التناقضات الجزائرية . فتحقير الخصوم وثلبهم[4] لا يفضي الى تجاوز هذه التناقضات .

إن أسطورة القطيعة مع الماضي لا تنبني الا على التخلي عن أساليب النضال القديمة . وقد انجرت عنها عدة نتائج :

أ بـدايـة من غرة نـوفمبر أصبـح تـاريـخ الحركـة الـوطنيـة العصريـة (1918 - 1954) عرضة للتبسيط والبتر الانتقائي . فقد أنكرت جبهة التحرير سلفهـا الحقيقي ، حـزب الشعب الجـزائري - حركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة ، بعد أن خرجت من صلبـه ، وأعلنت أنهـا استمرار للمقـاومـة الجزائريـة التي وقفت في وجـه الاستعمار في القرن التـاسع عشر . فـادعـاء هـذا الانتماء لا يخلو من شبهة . ذلك أن نضال الأمير عبد القادر وأحمد باي والمقراني وغيرهم لم يشكل العلامـات الأولى للثورة الوطنيـة بل كان الانتفـاضـة الأخيرة للمجتمع ما قبل الرأسمالي . أما نوفمبر 1954 فقد كان تجسيما لمجتمع جـديـد ، انـه وليد القرن العشرين ووليد فترة كان النضال فيها ضد القوى الاستعمارية يسير مع التيار التاريخي من نصر الى نصر .

ب - عـوض البحث عن التكامـل بين الكفـاح المسلـح وأسـاليب النضـال الأخرى تم تقـديم الجـانب العسكري على حسـاب الطرق التنظيميـة الأخرى الشيء الذي لا يسمح بتمكين الشعب من السيطرة على مصيره .

ج - خلافا لما يزعمونـه لم يتحرر مؤسسو جبهـة التحرير تمـامـا من مـاضيهم السياسي ، بل إنهم لم يتمكنوا من تجاوز الصراعـات التي أدت الى انشقـاق حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية فاستمرار التباين القـديم في الوضعية الجديدة سـاعـد على ظهور الأعـداء القـدامى للوطنيـة الراديكاليـة ظهورا مكثفا وعلى انقسـام الطبقـات الشعبيـة كما يتبين ذلـك من التنـاحر بين جبهة التحرير والحركة الوطنية الجزائرية التي أسسها مصالي .

إن وظيفة الخطاب التاريخي ، ذي الطابع الأيديولوجي الـذي تبنتـه جبهـة التحرير ، ليست اقرار الحقيقـة ، مهما كانت نسبيتهـا ، بـل صهر القـوى التي تجمعت داخلهـا وترسيخ هيمنـة المجموعـة المؤسسـة والقضـاء ، بجميـع الطرق ، على كل من يتطلع لقيادة المجتمع خلافها هي . وهذا الخطـاب ، كما يبين ذلـك فرانسـوا فـوري (Furet) في دراسـتـه عن الثـورة الفرنسيـة ، «مـلازم لطبيعـة السلطـة الثـوريـة التي تتكـون وتستمـد شرعيتهـا من الرأي العـام دون وجـود قنوات يعبر عبرها هذا الرأي العام عن نفسه» .

أسطورة الشعب المتلاحم

إن أسطورة الشعب المتلاحم ظهرت بداية من الأربعينات وكان المدافعون عنها هم أولائك الذين يضعون حاجزا سميكا بين الصراعات الاجتماعية والنضال السياسي . ثم ، بعد أن تم تقديس الشعب وتحويله الى كتلة ، نسب هذا التمييز الى الاتجاهات المعتدلة الساعية الى تحقيق اصلاحات داخل النظام الاستعماري ، فتأثير الفكرة القائلة بتلاحم الشعب في الأوساط الوطنية الراديكالية يظهر بوضوح من خلال النقاشات حول مسألة الوحدة التي دارت داخل حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية .

وقد تم التوصل الى أجوبة ثلاثة :

أ - من سنة 1937 الى سنة 1954 اتبعت الحركة المصالية سياسة تحالفية مستوحاة من اللينينية . فانطلاقا من كونها الحركة الوحيدة المطالبة بالاستقلال اعتبرت كل المعادين للاستعمار بما فيهم الشيوعيين حلفاء ضمنيين لابد من السعي الى دفعهم نحو مواقف أكثر وضوحا ، والتشهير في نفس الوقت بميولهم الاصلاحية وبحثهم عن التسوية أمام الشعب . فهذا التطلع نحو السيطرة على تنظيمات سياسية محكوم عليها بالاندثار ، نظرا لمحدودية أهدافها ، ناتج عن اعتقاد حزب الشعب الجزائري بأنه يجسد وحده الجزائر . فهو يعتبر نفسه الأداة التي بواسطتها يسيّر الشعب شؤونه . ونفس التفكير جعله يبرر حقوقه على الآخرين باسم سيادة الشعب الذي لا يمثله أحد غيره ، وقد حققت هذه السياسة نجاحا نسبيا سنة 1944 حين تم بعث «جمعية أخباء البيان والحرية» ثم فقد فاعليتها بعد ذلك .

ب - في الخمسينيات وجد حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية نفسه مضطرا الى البحث عن صيغة تحالف مع الشيوعيين ، وذلك بعد أن تبين استحالة الوصول الى التفاهم مع العلماء ومع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري . فقد تم لقاء بين حسين الأحول والحاج الشرشالي ممثلي الحزب المصالي من جهة وبول كاباليرو والبشير الحاج علي عن الحزب الشيوعي من

جهـة أخرى . لكن اللقـاء لم يسفر عن نتيجـة تـذكر وذلـك لرفض الحـزب الشيوعي مطلب الاستقلال مقترحا ابداله بكلمـة أكثر غموضـا ، «التحرر» . وفي سنة 1952 ، عارض شق من اللجنة المركزيـة سيـاسـة التحـالفـات التي يـدعو إليهـا مصـالي ولكن المحـاولـة فشلت . فـأعـاد الكرة سنـة 1953 رغم معـارضـة مصالي وكان ذلك أحد أسبـاب أزمـة حركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة . فالمركزيون لم يعرضوا بالدور القيادي للحزب ولا ببرنامجه . وما طالبوا بـه هو بعث مؤتمر وطني جزائري (CNA) ، مكـون من منظمات وشخصيـات مستقلـة ويكون هدفه تحديد السبل والوسائل الكفيلة بتحرير الجزائر . وكان مشروعهم يدرج في اعتباراته تعدد الحاجات والمصالح .

ج – أما دعاة حمل السـلاح الذين ظهروا أول مرة سنة 1946 فكانوا ضد كل تحـالف حول برنـامج أدنى . لأن الشعب في نظرهم متـلاحم والاصـلاحيـون هم المسؤولون عن الانشقاق داخل صفوفه .

وقـد عبّر آيت أحمـد عن وجهـة نظرهم في الاجتماع الـذي خصصتـه اللجنـة المركزيـة لحزب الشعب الجـزائري (ديسمبر/كانـون الأول 1948) لبحث مسـألـة الانتفاضة قائلا : «إن المطالب الوطنية والايمـان بـالأمـة الجزائريـة والاستقلال والثورة والديمقراطية هذا ما يفكر فيه الشعب» .

«فالانشقاق الحاصل داخل الحركة الوطنية بعد مجازر سطيف وقـالمـة لم يؤثر على الشعور الوطني ، ان كل الأحزاب متفقـة حول الهـدف ، تحرير الـوطني ، لكنهـا تختلف حول الوسـائل المؤديـة الى ذلـك . فـأنصـار الثنـائي عبـاس – الابراهيمي الأكثر تحمسا يعلنون انتماءهم الى الحركة الوطنيـة ، ويصرحون «تحت برانسهم» أنهم مع الاستقـلال . فهم يتبـاهـون بـأنهم سيحصلـون على الاستقـلال بتفنن (...) في الواقع يدافع الاصلاحيون عن سياسـة المراحل وعن خـط قوامـه التسوية والتغيير التدريجي للهياكل الاستعماريـة . ولـذا فهم يتهموننـا بـاتبـاع سياسة سلبية «سياسة كل شيء أو لا شيء» مرة أخرى ان حزبنا ينادي باتبـاع طريقـة راديكاليـة هـدفهـا الاستقلال التـام بـدون أي تنـازل . وهـو يحـارب

«الفيـديراليـة» وكل أشكال الاستقـلال المنقـوص . لـذا فنحن نتهم الاصـلاحيين بـأنهم حلفـاء لـلاستعمار يطعنـون في الاستقـلال كهـدف بتخـاذلهم وانهـزاميتهم وخـداعهم (...) لقـد نجحـوا فترة قصيرة في مغـالطـة قسم من الشعب المتـأثر بـأحـداث مـاي/أيـار 1945 (...) لكن بعـد تزييف إنتخـابـات أفريل/نيسـان المـاضي ، ومـوجـات القمـع التي سبقتهـا وتبعتهـا ، اكتشف الشعب الجـزائري سخافة الاصلاحية المعتمدة على الشرعية الاستعمارية (...)» .

«إن مواصلة النضال على الأرضيـة وبـالأسـاليب التي اختـارهـا الاستعمار وفي حدود الزمن الذي ضبطه يعني العـدول عن كل استراتيجيـة مستقلـة والتعرض الى مناورته (...) فالحزب سينفصل عن الجماهير اذا هو لم يستجب لحماسهـا ولما تنتظره منه . فالاستفاقة ستكون رهيبة اذا اتضح أنه حزب كبقية الأحزاب ، أضر به الزمن وغدا يبحث عن المناصب والامتيازات»[5] .

قبل تحليل هذا النص يجدر بنا تنبيه القارىء الى النقاط التاليـة : إن تقرير آيت أحمـد هـذا والـذي يحمل في طيـاتـه الكثير من التنبـؤات ، كتب في فترة كانت الحركة الوطنية فيها في مأزق تعاني من حـدة الصراعـات داخلهـا ، فترة كان فيها الجناح الاصلاحي لحزب الشعب الجزائري يستظل من سنة 1946 الى 1950 بظل مصـالي الحـاج الـذي كان آنـذاك ضـد الـذين يطـالبون بمقـاطعـة الانتخـابـات . وكان هـدف الاصلاحيين زرع أكثر مـا يمكن من الحواجـز لمنـع الاعداد للانتفاضة .

من الغلـط اذا حصر فكر آيت أحمـد في هـذا النص واستنتـاج التطـورات التاريخية المقبلة منه بطريقة ميكانيكية . نجد في هذا التقرير نظرة «عضويـة» للمجتمـع ونفي للصراعـات الهيكليـة بـاسم وحـدة الشعب ورفض المـزاحمين السياسيين من المجموعة الوطنية واعتبار المشاركة في الانتخابات معاداة للكفـاح المسلح . ومن هـذا المنطلق يبـدو الكفـاح المسلح لا فقـط الـوسيلـة الـوحيـدة للتحرر من الهيمنـة الاستعماريـة ، بـل كـذلـك الطريقـة الـوحيـدة لتجـاوز الصراعات الداخلية وحل التنـاقضـات من أجل تحقيق الأمـة . فـالأمور تبـدو

وكأن المجتمع المنقسم حول استراتيجيات مختلفة ورغم كونها خيالية فإن لهذه الايديولوجيا تأثيرا حقيقيا ، لأن كل شيء في الواقع الاستعماري ينفر من التعددية .

*ف «الديمقراطية» كانت انتقائية تعتمد المحظوظية كمبدأ يتجسم في وجود مجلسين ، مجلس خاص بالأوربيين يحظى بالأغلبية ، وآخر جزائري نصيبه الأقلية الشيء الذي يجعله صوريا[6] . وهكذا فكل معارضة ايجابية وفعالة غير قادرة على التعبير عن نفسها ولا حظ لها في الظهور .

*أما تزييف الانتخابات فلا يحترم قانون اللعبة السياسية ويؤدي دوما الى ترجيح كفة الأعيان وعملاء الادارة .

*إن الأحزاب تتباين ببرامجها . لكن قادتها ، في أغلبيتهم الساحقة ، ينتمون الى نفس الوسط الاجتماعي . فصالح المجموعات والأفراد التي غالبا ما كانت مرتبطة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالاستعمار هي التي أعاقت البحث عن طريقة راديكالية للوصول الى الاستقلال .

فاذا كان الواقع الاستعماري يعطي عن الديمقراطية فكرة كاريكاتورية فإن النظرة العضوية للمجتمع ترمي بجذورها في تقاليد الشعب الجزائري . فأسلوب التفكير القبلي والدين يقدمان الجماعة أو «الأمة» على الفرد ، وتصطدم الأفكار الحرة في مجتمع كهذا بالعقلية السائدة التي تخلط بين الأخلاق والسياسة ، وتنفي الصراع باسم التناسق الاجتماعي الأزلي والأسطوري . فاثارة مسألة الحرية الفردية بطريقة مناسبة وجدية غير ممكنة ولم توجد ، علاوة عن ذلك ، أية قوة اجتماعية قادرة على تبني هذه المسألة وادراجها في مشروع متماسك .

أما الليبيرالية التي يمثلها المعمرون والبورجوازية الأوربية في الجزائر فكانت ممسوخة ومزيفة ، تنكرت لطبيعتها ولبست ثياب الاستبداد المستنير . وكانت سلطة الأعيان ترتكز على هياكل «أبوية» وعائلية تعبر عن ميل الجزائريين الى السلطوية .

وكانت التجمعات البورجوازية ، الضعيفة والتابعة ، تسعى الى تحقيق مصالحها على حساب المجتمع . وللوصول الى أهدافها المتمثلة في مشاركة الأجنبي امتيازاته كانت مستعدة للحد من حرية الشعب ومنحها تدريجيا حسب الكفاءة والاستحقاق . لذا اعتبرت الفردية المنافية لروح الدين الاسلامي بمثابة خطر يهدد ظهور الشعور القومي وتثبيته .

أما المشروع الشيوعي لتغيير العالم ، فلئن كان يأخذ بعين الاعتبار الفرد ، فإن تبنيه النظرية التنظيمية اللينينية – كما طبقت بداية من سنة 1921 والتي تجعل من الحزب الحقيقة مجسمة – قد أدخل بعدا من أبعاد المجتمع العضوي وصار لا يقبل بوجود تناقضات داخل الجماعة .

مهما كانت حوافزها (دينية أو قومية أو الدفاع عن امتيازاتها ... الخ) ، كانت النخبة بكل فصائلها تسعى الى احتكار الحياة السياسية . فهل من باب الصدفة أن شروط تحقيق الديمقراطية في الجزائر لم يتم تدارسها بصفة جدية ؟ وهل من باب الصدفة كذلك أن مُنع المناضلون في الأحزاب التي تؤطر الشعب الجزائري من المشاركة في تسييرها ؟

فعداء العناصر الراديكالية للانتخابات لم يكن خال من الشبهات ، فهو من ناحية يعبر عن عزمهم على تحرير البلاد بقوة السلاح ، ومن ناحية أخرى يعكس خوفهم من تصارع الأفكار والمصالح . فـ «الكتلوية» ليست ضرورة عابرة واستثنائية ، ولا هي نتيجة مواقف القادة وميولهم ، بل أفرزها المجتمع وتقاليده السلطوية .

الثورة عن طريق الفلاحين

إن انتفاضة 1954 طرحت في ظروف جديدة ، اشكالية ديناميكية الثورة .

فمشاركة الفلاحين المكثفة في الكفاح المسلح ساعدت النزعة الرامية الى تكريسهم كطبقة ثورية مثالية .

إن الثناء على حيوية القرويين وعلى شجاعتهم وعلى مؤهلاتهم الحربية كانت

مواضيع مألوفة في الثقافة الشعبية . ونجد آثارها عند ابن خلدون الذي نظر لها . فقد حاول تفسير أمراض المجتمع وأثرها السيء على النظم السياسية واستقرارها بفساد الحضر وميلهم الى «الرذائل» أما القبائل (البدو) التي خرجت منها السلالات المالكة الكبيرة فهي بالنسبة له محط «الفضائل»[7] .

ومع دخول الاستعمار أخذت هذه الأحكام صيغة جديدة . فالمدينة أصبحت مركز الانبعاث الثقافي ، واعتبر الاحتكاك بالأوربيين من النجاسة وأصبحت الأرياف ملجأ «الطهارة» الموروثة عن الأجداد وروح البلاد النقية .

وكان التساكن مع الأروبيين يقابل بالحث على الهجرة وعلى مقاطعتهم . يقول أحد أفراد الطريقة التيجانية ، سيدي طاهر بن الطيب ، في هذا الصدد : «أيها الصادقون النزهاء قاطعوا الطغاة والخونة . إن من طغى كافر . لا تعاشروهم وإلا فستلتهمكم النار ، لا تكلموهم ولا تقولوا لهم «السلام عليكم» . اتبعوا الطريق الذي رسمه القرآن . قاطعوا أباءكم وأمهاتكم ان هم كفروا»[8] .

هناك عوامل أخرى ساعدت على بلورة أسطورة الفلاحين منها أهوال التحضير وما يتبعها من مآسي وردود فعل والصراع بين المجموعات التي تستثرى في ظل السلطة الاستعمارية وكذلك وجود بروليتاريا رثة ومهمشة تمثل أغلبية سكان المدن . ويمكن أن نضيف الى ذلك الصراعات داخل حزب الشعب الجزائري – حركة انتصار الحريات الديمقراطية – فليست المسألة الفلاحية هي التي دفعت بأنصار العمل المباشر للتحالف مع سكان الأرياف ، بل الانتفاضة ومتطلباتها . منذ سنة 1949 ، كان كوادر القبائل يتهجمون على الجزائر العاصمة ، التي تمثل في نظرهم معقل الشرعية ، ويقدسون الفلاحين الذين يرون فيهم جنودا ضمنيين .

فكما نلاحظ ، كل هذه التصورات موجهة نحو العمل المباشر وتنظر للفلاحين نظرة عملية عسكرية في جوهرها .

فالوطنيون بمحافظتهم على ذاكرة مقاومة القبائل للاستعمار يريدون استنهاض الهمم والتأثير على النفوس . لكن الصورة التي يقدمها منظرو الحركة

الوطنية عن الفلاحين تتجاهل المشاكل التي يطرحها بناء اقتصاد معاصر ودور الفلاحين في تكون الفئات الحضرية المختلفة وتأثير أسلوب حياتهم وتقاليدهم وعاداتهم على ديناميكية المجتمع وعلى ظهور هياكل سياسية جديدة .

ومهما يكن من أمر فإن المعطيات اللازمة لظهور حركة فلاحية «مهدوية» كانت متغلغلة في العقول قبل نوفمبر 1954 وستبرز للوجود بصفة جلية بين سنة 1957 وسنة 1959 . فأول برنامج لجبهة التحرير ، ميثاق الصمام (أوت/أغسطس 1956) لا يزال يكرس تفوق سكان المدن في جهاز قيادة الثورة .

بين سنتي 1957 و 1959 ظهرت عوامل جديدة غيرت الوضع ، منها تقلص حضور جبهة التحرير في المدن ، الأعياء الذي بدأ يصيب الولايات المقاتلة وحيرة القادة ، وفي نفس الوقت نلاحظ تعزيز صفوف جيش التحرير الوطني على الحدود وظهوره كجيش يرتكز على الفلاحين لكن اطاراته من سكان القرى والمدن . وهكذا أصبح الجو ملائما لبروز اعتبارات ايديولوجية جديدة . ويرجع الفضل في بلورتها والتنظير اليها الى مثقف مرتينيكي ، فرانز فانون ، كان يناضل في صفوف جبهة التحرير الوطني ، فقد كان خلافا للمنظرين الآخرين ، متحررا من العوامل السلبية ، المسيطرة على المجتمع الجزائري .

فقد بلور فرانز فانون «الوطنية الفلاحية» في مفاهيم حديثة وشاملة ، منطلقا من مبدأ قدرة كل الطبقات الاجتماعية على تبني المشروع الثوري والقيام بالثورة . لقي خطابه هذا صدى كبيرا في صفوف جيش التحرير المرابط على الحدود الجزائرية ، فاطاراته كانت تحلم بمجتمع يتم تصميمه وبناءه من فوق ، وتلعب فيه الدولة دورا رئيسيا . لكن الفانونية بدأت في أول الأمر طوباوية . فالمقاومة الفلاحية قضى عليها القمع ولم تعد هي القوة المحركة للثورة . فوضع الفلاحين الحقيقي في المجتمع واعادة «تربية» أبنائهم في صفوف جيش التحرير ومواقف قيادة الجبهة منهم وقيمهم التقليدية لم تكن لتساعدهم على الأوهام حول دورهم التاريخي .

ـ ان تطـورات الأوضـاع في الجزائر بعـد الاستقـلال هي التي أبرزت ثغرات ونـواقص «الفـانـونيـة» فنظريـة فـانـون كانت ظرفيـة ولا ترتكـز على المسـار التاريخي العام . وقد أثبتت بطريقة استقرائية أن أسطورة «الصفحة البيضـاء» وبـدايـة كل شيء مـع جبهـة التحرير ، ليست احتمالا منهجيـا صـالحـا لتقيم الواقع . فالنضـال المسلح قلب الظروف الطبيعيـة ورمى بـالأفراد في دوامـة ، وأبرز مـا كان يختمر في أعمـاق المجتمـع فهـو لم يخلـق من عـدم أسـاليب حيـاتيـة جـديـدة . ومـا يجب أن نـلاحظـه هـو أن الثـورة بـواسطـة الفـلاحين تعطي الأولوية لتحليل العلاقات السياسية وتهمل الظواهر الاقتصاديـة والاجتماعيـة ، فهي غير قـادرة على التعبير عن تنـاقضـات الحركـة الـوطنيـة الجـزائريـة . فالتعارض المطلق بين السلوك السياسي للطبقات الحضرية والطبقـات الريفيـة كما تقدمه هذه النظرة يصطدم بمعطيات يصعب تجاهلها . «فـالمـدينـة كما يقول جان شينو ، ليست نقيض الريف ولا محل الاشكال الاجتماعية الجـديـدة ، انها نقطـة مكثفـة لأمراض المجتمـع»[9] . فهـذا الـوضـع أثر تـأثيرا بـالغـا على الحيـاة السياسية . فـالحركـة الوطنيـة تجـذرت من بـدايتهـا في الأريـاف . إن الهجرة الجزائرية في فرنسـا والتحركات السكانيـة والنزوح داخل الجزائر سـاعـدت على تطورها[10] . ومع أن النضال لم يستمر في المدن بين سنـة 1954 وسنـة 1962 ، بسبب أغـلاط تكتيكيـة ، فـان سكان المـدن سـاهمـوا بقسـط وافر في حرب التحرير .

ديناميكيـة الثـورة

ان ديناميكيـة الثورة الجزائريـة تتجلى لنـا أكثر عبر النتـائج التي حققتهـا . فبعـد التحرر الوطني الأكثر جـذريـة في المغرب العربي الكبير ، أفرزت الثورة نظاما بيروقراطيا تسلطيا مقتبسا أساليب حكمه من التجربة السوفياتيـة لكنـه منـدمج اقتصـاديـا في النظـام الرأسمالي العـالمي . فعلى رأس هـذا النظـام نجـد بيروقراطية مدنية وعسكرية تسير قطاعا دولويا واسعـا وتسعى لبعث اقتصـاد عصري ولفسح المجـال أمـام التكنولوجيـا الحـديثـة وتقوم في ذات الوقت بـدور

المشرف إزاء الطبقات المالكة . أما العمال والفلاحون فقد وجدوا أنفسهم ملزمين بالطاعة من جديد وبقي انعتاقهم مهمة مطروحة عليهم . فمثل هذا الوضع يمنعنا من اعتبار المسار الداخلي للثورة مسارا ديمقراطيا بورجوازيا ومن اعتباره كذلك مسارا ثوريا اشتراكيا .

إن اللجوء الى النماذج الأوربية لا يجدي هنا نفعا، ومن شأنه أن يطمس ما هو جديد في بروتيس الثورة . فالتركيبة الاجتماعية للجزائر لا تشبه ما هي عليه في الدول المتقدمة والوضع الدولي مخالف للوضع الذي كان سائدا قبل سنة 1917 .

غياب طبقة سائدة

من البديهي القول بأن الطبقات موجودة في الجزائر ، غير أن البورجوازية والبروليتاريا كانتا في طورهما الجنيني . ولأسباب موضوعية وسياسية لم تستطع أي منهما أن تصبح طبقة سائدة .

فانقسامها الى مجموعات متنافرة جعلها تتصارع حول المشاكل الرئيسية للبلاد كالمسألة الوطنية والمضمون الاجتماعي للتغييرات المزمع احداثها .. الخ . وفي حين كانت التناقضات تنخر جسم المجتمع موفرة امكانية القضاء على النظام الاستعماري ثوريا وبصفة جذرية ، كانت البورجوازية تحلم بالسير تدريجيا نحو مجتمع عصري وبطرق لا تمس من مكاسبها . أما البروليتاريا فقد كانت منقسمة ومترددة حيال السياسة الستالينية التي تسعى للوصول الى صيغة تفاهم وتسوية مع الأمبريالية .

في هذه الظروف كان وجود شرائح شعبية مهمشة ولا جذور لها - في المدن قبل نوفمبر 1954 وفي القرى والأرياف بعد هذا التاريخ - عاملا حاسما في المسار الثوري . فلا غرابة اذن أن نجد داخل الحركات الراديكالية كحزب الشعب الجزائري وجبهة التحرير الوطنية نزعات سلفية ذلك أن سندهم القوي هو تلك الفئات الشعبية الحالمة «بعصر الإسلام الذهبي» الذي كان فيه «العسل واللبن يجريان أنهارا» فالدين كان هو القاسم المشترك ونقطة اللقاء الوحيدة بين

الثائرين على الوضع الاستعماري . ومن ناحية أخرى كان التعامل مع الصراعات بين الجزائريين يخضع لقوانين مجتمع تقليدي في جوهره ومتدين .

لنلخص : ان العلاقات السياسية تكونت في غياب طبقة سائدة على المستوى القومي . فالبورجوازية بكل مكوناتها وفصائلها كانت مفقودة وأعوزت الحركة الوطنية بعدا من أبعادها . فحيثما عبرت عن نفسها ، سواء داخل جامعة المنتخبين أو في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري أو في صفوف العلماء ، لم تختر البورجوازية الجزائرية معسكرها قبل سنة 1956 . فتدخلها في شؤون البلاد بدأ مع بداية هذا القرن عبر رواد من أبنائها كانت وضعيتهم ، كما رأينا سابقا ، تبدو مأسوية فوسطهم الطبيعي لم يكن ليتعرف عن نفسه في حداثتهم ، أما الفلاحون فكانوا يميلون نحو القوى المحافظة في حين كانت عقدة العلاقات الاجتماعية تكمن في تعارض مصالحهم مع مصالح الطبقة المالكة . فهؤلاء الرواد كانوا يتذمرون من خمول الجماهير وكانوا في نفس الوقت لا يرغبون في مساهمتها في الحياة السياسية خوفا من عنفها الذي يعتبرونه حاجزا أمام سيطرتهم على المجتمع . فبالنسبة لهم كان تدخل الطبقات الشعبية قضية من مشمولات الأمن العام ولا تهم الوضع الاجتماعي . عندما أصبحت الحركة الوطنية في الأربعينات تحت قيادة زعماء خارجين من صفوف الشعب ، وتحولت من حركة تآمرية الى حركة جماهيرية ، حاول القادة البورجوازيون استغلال الوضع الجديد ، لكن كلما أوشك التحرك الجماهيري على جلبهم نحو الاتجاه الثوري – كما حصل ذلك في ماي 1945 أو في ماي 1952 عندما ردت الجماهير بالاضراب العام على قرار نفي مصالي الحاج الى فرنسا – لم يترددوا في تصديع وحدة الصفوف والتراجع حتى يبرهنوا للسلط الاستعمارية عن حسن سيرتهم . فميزان القوى لم يكن في صالحهم وقوتهم الوحيدة تنحصر في سند البورجوازية الضعيف ومؤازرة مثقفي المدن الذين كانوا يحلمون بمشاركة الفرنسيين امتيازاتهم ومصالحهم ، وتزعجهم فكرة القطيعة الكاملة مع الاستعمار أيما ازعاج . فتحقيق الأمة يمر حتما بتحرير الفلاح الذي كان يرزح تحت نير

الاستغلال الاستعماري والوطني ، وهـذا مـا لا تريـده البورجوازيـة الجزائريـة وكيف تريده والأرض هي ميدان استثمارها الأول .

فمن مطلب الانـدماج في النظـام الاستعماري الى المطـالبـة بـدولـة مرتبطـة عضويا بفرنسا تبقى حصيلة البورجوازية جد هزيلـة . فـالتـأثيرات الفرنسيـة كانت مسيطرة بين صفوفهـا . لكن العـلاقـة الغريبـة التي تربـط الجـزائريين بماضيهم الاستعماري سـاعـدت على طمس هـذه الحقيقـة البـديهيـة وعلى اسـدال حجـاب التعفف على الحنين والتحسر القـابعين في الأعمـاق[11] . فمن الأوهـام السـائـدة الاعتقـاد بـأن النظـام الاستعماري لم يكن سوى رعب وآلام بـالنسبـة للجميع . فهناك مجموعات كاملة من الجزائريين وجـدوا حظهم في التحـالف مع الاستعمار أو في تبني نمط الحياة الذي يروج له .

خلافا للبورجوازية لم تعوز الطبقـة العـاملـة في أغلبيتهـا السـاحقـة الحركـة الوطنية . ولكن هذا لا يعني أنها تمكنت من تصـدر الثورة وقيـادتهـا وهـذا لا يرجع الى وضعها الذاتي بقدر ما هو راجع الى وضع الحركـة العماليـة الخـاص . فاذا لم نحصر هذه الحركة في فصيلتها الشيوعية وفقـا لتعريفهـا الايـديولوجي ، وأدخلنا فيها التيار الإسلامي - الشعبوي (الاتجـاه المصـالي) ، يمكننـا أن نقول أن دورهـا في المسـار الثوري كاد يكون حـاسما . فلئن اعتبرنـا المطلب الـوطني وحده ، تكون الطبقة العاملة المهاجرة بمساعدة الأممية الثالثة والحزب الشيوعي الفرنسي هي التي أعطت الحـافـز الأول . لكن سرعـان مـا تظـافرت الأسبـاب السيـاسيـة (شوفينيـة الحزب الشيوعي الفرنسي ، السياسة الستالينية السـاعيـة الى المصـالحـة مع البورجوازيـات الغربيـة على حسـاب المستعمرات : تعلـق العمال الفرنسيين في الجـزائر بـالقيم الاستعماريـة) والأسبـاب الـوضعيـة (وضـع العمال المهاجرين المتردي ، الصراعات الثقافية) لتدفع هذه الطبقـة العـاملـة نحو ردود الفعل الـدفـاعيـة (التعلق بـالقيم مـا قبل الرأسماليـة ، أسطورة عصـور الإسـلام الذهبية) واقصائها من الاشتراكية الماركسية . فـالفرضيـة القـائلـة بـأن مصـالح الاتحاد السوفياتي وبروليتاريا الـدول الأمبريـاليـة وعمـال وفلاحي المستعمرات هي مصـالح مشتركـة بـالضرورة لم يعـد لهـا نصيب من الصحـة ولا أسـاس في

الـواقـع السيـاسي . وسيكـون لهـذه الـوضعيـة وزنهـا المـؤثر في أشكال ومضمـون النضال . فالتيار الستاليني لم يتبن بوضوح وجدية المسألة الوطنية . أمـا التيـار المصالي فقد كان في عزلة ، غير قـادر على تقـديم اطـار للطموحـات الاجتماعيـة للطبقـات الشعبيـة في المـدن ولا على التوفيـق بين الحركـة الـوطنيـة والمسـألـة الفلاحية ، لكن هذا التيار بوضعه - دون التواء - مسألة الوطنية الجزائرية ، يبقى لـه السبـق في ادخـال الطبقـات الشعبيـة من المـدن والقرى على مسرح الأحـداث . فـالحركـة المصاليـة منعت السـتـالينيين من استعمال نضـال الشعب الجزائري كمجرد ورقة مساومة مع الامبريالية . لكنها بدفعهـا هـذا النضـال في الاتجاه الشعبوي قضت على التحالف الشعبي بالعقم الآجل وبـالتردي في مـأزق مؤكد .

أفراح وأتراح الحركة الشعبية

خلافا لكل آمـالهـا في تحقيق تحـالف مع الطبقـة العـاملـة الفرنسيـة وجـدت الطليعة الجزائريـة نفسهـا مرغمـة على ترك الايـديولوجيـة الاشتراكيـة جـانبـا وتركيز على قواها على قضية التحرر الوطني . فمنذ سنة 1939 انضم العديد من الشباب الى هذه الطليعة وكانت أغلبيتهم من الموظفين والطلبة وأبنـاء الأعيـان الذين قطعوا الروابط مع وسطهم المتردد والمتواطىء وبدأ هؤلاء الشبان يحتلون شيئـا فشيئـا المراكز التي يؤهلهـا لهم وسطهم الاجتماعي . فـالحـاجز الـذي كان موجودا بين النخبة المحظوظة والجماهير الشعبيـة العريضـة امحى بعمليـة لا تخلو من الشبهة . وبدخول «المثقفين» في الحركة الوطنيـة بـدأت الفصيلـة «العماليـة» التي تمثل قوة الحركة تفقد شيئا فشيئا سيطرتها على الحزب الشعبي ، لكن هـذه العملية لم تتم دون صدامات وأزمات حادة . فالشرائح الشعبية المؤمنة بـاللجوء الى الوسائل الراديكالية كانت رافضة لهذا الاكتساح وكانت تخشى سيطرة أبنـاء أعدائها - البورجوازية والطبقات الوسطى - على حركتها .

إن الكوادر الشعبية كان تكن الكره للمثقفين ذوي الأنيـاب الطويلـة الـذين يتهمونهم باستعمال الحزب كجهاز لاسداء الوظائف والخـدمـات . لكن مـأسـاتهم

السياسية تكمن في كونهم غير قادرين لا على استيعاب هؤلاء المثقفين ولا على الاستغناء عنهم . وكان سعيهم يهدف الى تحييدهم والى منعهم من ادخال نظام فوقي يمكنهم من مراقبة الجماهير سياسيا . فمن وجهة النظر هذه يعتبر انتصار مصالي الحاج على «المركزيين» إبان انقسام «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» مظهرا من مظاهر مقاومة الطبقات الشعبية لتفشي المواقف الاصلاحية داخل الحركة الوطنية . لكن النقد الذي كان يقوم به هذا التيار كان خاليا من التفكير الايجابي حول الشروط الضرورية للقضاء الجذري على النظام الاستعماري .

وهكذا أفسح التيار المصالي المجال أمام جبهة التحرير الوطنية الخارجة من صلبه . فكان أن ربطت الجبهة الصلة مع الوسائل الراديكالية لكن عن طريق الثورة الفوقية . وساعد انقسام الشق الشعبي على عودة النخبة الاصلاحية الى مسرح الأحداث وبرفضها ، منذ نوفمبر 1954 ، كل تحالف مع الحركة المصالية ، وتحالفها فيما بعد مع «المركزيين» ومع «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري» و«العلماء» قضت جبهة التحرير على كل امكانية لتعميق الثورة وتجذيرها .

وبانضمام الطبقات الوسطى والتحول البيروقراطي للعديد من عناصرها (1956 – 1962) ، تغير مسار الثورة تغيرا لم تظهر نتائجه الا بعد انحسار الحركة الشعبية مرة أولى سنة 1962 (القضاء على المقاومة الداخلية من طرف جيش الحدود) ثم سنة 1965 (انقلاب بومدين ضد بن بلة) . وهكذا ، تحت قناع الحزب الواحد ، أصبح الجيش هو الصيغة التي اهتدت اليها أخيرا المجموعات المحظوظة التي تكونت في ظل الاستعمار للسيطرة على الطبقات الشعبية .

فالحركة الشعبية ، لأنها مؤهلة أكثر للتحطيم منها للبناء ، لم تكن سوى مطية مؤقتة استعملتها هذه المجموعات في طريقها نحو السلطة . وتمت هذه الهزيمة الشعبية مقابل ارتقاء الكثير من الكوادر في السلم الاجتماعي . إن

حضور العناصر الشعبية المكثف في سيرورة الثورة يفسر طول مدتها وأبعادها الدينية – الحركة الوطنية وكأنها المهدي المنتظر والثورة بمثابة يوم الحساب – وكذلك ضعف حداثتها .

خلافا للتجربتين التونسية والمغربية ، لم توجد في الجزائر أي قوة اجتماعية قادرة على المحافظة طويلا على المصالح المكتسبة في ظل الاستعمار ، اقتصادية كانت أم ثقافية . فكان لابد من القضاء على كل سيات وعلامات السيطرة الفرنسية بأسرع ما يمكن ، خاصة وأن الشرائح الشعبية كانت تعتقد – عن حق – أن أنانية المثقفين ليست غريبة عن الذل والهوان المسلط عليها . فعزمها الراسخ على تحقيق مجتمع المساواة والقضاء على التباين الطبقي كان رهين اعتقادها في امكانية بناء اقتصاد أساسه توزيع الخيرات المنتجة تحت رعاية واشراف دولة إسلامية عادلة .

هوامش

(1) في سنة 1947 لم تكن المنظمة الخاصة ، الا احدى المنظمات المختصة لحزب الشعب الجزائري .

(2) أول عملية قام بها المصاليون تمت في ديسمبر 1954 وتمثلت في اغتيال أحد عناصر البوليس ، الشنوفي ، من طرف محمد الفلاوي وحمادي كرومة .

(3) تحصل المؤلف على هذه الشهادة من الشيخ الحسين بن الميلي في سبتمبر 1983 .

(4) وخاصة مصالي الحاج .

(5) أنظر : Aït Ahmed - rapport au comité central du PPA – dans Mohammed Harbi, Archives de la révolution algérienne, p. 25 et suiv.

(6) ان الاقتراع العام لم يتحقق في الجزائر الا تدريجيا ولم يصبح حقا لجميع السكان الا بعد التصويت على القانون الذي تقدم به الأمين فيي (7 ماي 1946) .

(7) أنظر : Yves Lacoste: Ibn Khaldoun - Naissance de l'histoire. Presse du Tiers-Monde, 2e édition Maspero, 1981, p. 159 et suiv.

(8) أورده : O. Depont et X. Coppolani, in les Confréries religieuses. Jourdan, 1879.

(9) أنظر : Jean Chesneaux ; L'Asie orientale aux XIXe et XXe siècle - PUF, 1973 - Coll. Nouvelle Clio.

(10) مع العلم أن حرية التنقل بدون رخصة لم تعط للجزائريين الا بعد سنة 1928 .

(11) هذا ينطبق على «العلماء» الذين بولغ في وصف معارضتهم لحركة التغريب .

تـــراجـــم

جيـل الاستفاقـة

الأمير خالد (1875 – 1936)

ينتمي الأمير خالد أكثر من أية شخصية أخرى الى الميثولوجيا التاريخية للجزائر المعاصرة . فكل التيارات من أكثرها اعتدالا الى أكثرها تطرفا ، تتذرع به وتؤكد انتماءها اليه . فهذه الخطوة التي يتمتع بها لم تأته من وضوح رؤيته (عُثر أخيرا على وثيقة يطلب فيها من الرئيس الأمريكي ولسن حق الجزائر في تقرير مصيرها) ، بل من عراقة نسبه وكرم محتده وكذلك من رفضه التنكر لماضي الجزائر . فهو لم يكن من الذين يركنون الى الهزيمة ويقبلون بها . فكثيرا ما كان يردد في وجه المستعمرين : «أنا عربي وأريد أن أبقى عربيا» ، إن استماتة حفيد عبد القادر في الدفاع عن هذا الانتماء وعن قناعاته هو سبب شعبيته رغم تنازلاته ومراوغاته .

ومما يجب ملاحظته هو أنه كان يتمتع بكل الامتيازات التي أعطاها الاستعمار لسلالة عبد القادر . فقد درس في معهد لويس لوجران الشهير ثم في الكلية العسكرية بسان سير وكان يتقاضي منحة حكومية .

بدأت مشاكل الأمير خالد مع الادارة سنة 1913 حين قرر الدخول في الحياة السياسية ومساندة برنامج «الجزائر الفتاة» (الشبان الجزائريون) . فالاحترام الذي كان يتمتع به بين الناس وهيأته الأرستقراطية جلبت انتباه الادارة والفرنسيين المتعودين بخنوع الأعيان وعبوديتهم . وبعد انتخابه مستشارا بلديا

ثم مستشاراً عاماً وتسميته مندوباً مـاليـاً ، اعتزل الحيـاة السيـاسيـة سنـة 1923 بـاتفـاق بينـه وبين السلطـة . وبعـد هجرة قصيرة الى الشرق عـاد الى الجـزائر واستعاد نشاطه السياسي سنة 1924 وقد تحـالف مع الشيوعيين وفكر في الهجرة الى الاتحاد السوفياتي . وانتهى دوره سنة 1926 عند ظهور نجم شمال افريقيا .

عبد القادر الحاج علي (1883 – 1957)

كان عبد القادر الحاج علي شخصيـة طريفـة في الحركـة العماليـة . فهو أصيل منطقة أفليزان وقد تجنس بالجنسيـة الفرنسيـة سنـة 1911 . نـاضل في صفوف الفرع الفرنسي لـلأممـيـة العماليـة (SFIO) ثم انضم الى الحـزب الشيـوعي الفرنسي بعـد مؤتمر تور . وكان ينتمي منـذ 1920 الى اتحـاد المستعمرات مع هوشي منـه وقد ساهم في تحرير جريدته «Le Paria» (المنبوذ) الى سنة 1924 . وقـد رشحـه الحزب الشيوعي تلك السنة في الانتخابـات التشريعيـة . وقـد تهجم على الأمير خالد ثم سانده بعد أن تغير خط حزبه السياسي . وكان هو الذي أدخل مصالي الحـاج الى الحـزب الشيـوعي وسـاهم في بعث نجم شمال افريقيـا (1926) . وكان يدافع داخل هذه المنظمة عن خط الحزب الشيوعي الفرنسي الى أن بـدأ يفقـد اشعاعه في أوساط الهجرة الجزائرية . واعتزل السياسـة بعـد أن طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1931 . آخر مساهامته السياسيـة تنحصر في مسـانـدتـه لفرحات عباس سنة 1948 .

الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889 – 1940)

ولد في قسنطينة في عائلة بربرية مستعربة وعريقـة ترجع شهرتهـا الى القرن الثاني عشر . درس على الشيخ حمدان الونيسي الذي كان مع الشيخ عبد القـادر المجاوي أحد المدافعين عن التقاليد القومية في أواخر القرن التـاسع عشر . انتقل ابن باديس الى جامع الزيتونة بتونس . وبعد انهاء تعلمه اشتغل بالتـدريس في الجامع الأخضر بقسنطينـة (1911 – 1914) ثم سـافر الى الشرق وعنـد عودتـه استقر بتونس من سنة 1914 الى 1918 .

وعنـد رجوعـه الى الجزائر اشتغل بـالتـدريس من جـديـد وكون الاطـارات

الـدينيـة للجـزائر ، تلـك الاطـارات التي ستشغـل المنـاصب الرسميـة بعـد الاستقلال .

فـولاء عـائلتـه لفرنسـا لم تمنعـه من الانضمام مبكرا الى صف المنـاهضين للاستعمار . وقد أسس سنة 1925 جريدة «المنتقـد» للترويج لفكرة الوطن بين الجـزائريين . لكن قراءه كانـوا ينتمـون الى النخبـة . وقـد منعت السلـط هـذه الجريـدة في جـويليـة 1925 بسبب مسـانـدتهـا لحركـة الأمير عبـد الكريم في «الريف» المغربي ، فكان أن أصدر ابن باديس «الشهاب» (1925 – 1939) .

لقـد أثرت أعمـال ابن بـاديس على الفكر الاجتماعي الجـزائري . ورغم عـدم معرفته بالنظريات الاجتماعية الحديثة فقد كانت لـه رؤيـة واضحـة للفرق بين المجتمـع الجـزائري التقليـدي وبين المجتمـع الـذي خلقـه الاستعمار بطريقـة «اصطناعية» لكن بحكم تكوينه غابت عنه كل التنـاقضـات التي تعتمل في المجتمع الجزائري .

مصالي الحاج (1898 – 1974)

ولد الحاج أحمد مصالي في عـائلـة من فقراء الفلاحين ، حتى نهـايـة الخـدمـة العسكرية التي قام بها في فرنسـا خلال الحرب العـالميـة الأولى ، عـاش مصـالي «كالفلينة فوق الماء» هاجر الى فرنسـا سنـة 1923 ومـارس عـدة حرف . خطـا خطواتـه السيـاسيـة الأولى في اطـار نجم شمال افريقيـا التي سـاهم في تـأسيسهـا والحزب الشيوعي الفرنسي . بدأ صدامه مع هذا الحزب منذ سنة 1928 لكنه ، لن يغـادره ، بـدون رجعـة ، الا عـام 1933 . خلال مؤتمر بروكسيل المعـادي للأمبريالية (1927) وفي اجتماع المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة (1936) يطرح مصالي نظريته حول الوطنية الجزائرية . القمع يلحقه ويلحق حركتـه ابتـداء من سنة 1929 . يعيش 16 سنة من حياته سجينا أو منفيا . لكن صموده يؤتي أكله ، أبو الوطنية الجزائرية يصبح منذ 1945 أبرز شخصية للحركة السياسيـة في الجزائر . ويبقي معبود الجماهير حتى نوفمبر 1954 . ابتداء من هذا التـاريخ يسدل تلاميذه عليه الحجاب ، ويشبعونه شتما وافتراءات . لكنه لا يغيب .

بعد انشاء حزب الشعب (1937) ، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية (1946) مصالي ينشيء الحركة الوطنية الجزائرية . لكن جبهة التحرير الوطني التي رسخت أقدامها في الأرياف وعقدت تحالفات دون منازع في العالم العربي ، استطاعت العودة الى المدن وقطع مصالي عن القوى الاجتماعية التي صنعت يوما قوته . يقبل تحكيم السلاح ، وبعد معارك دامية خلفت وراءها الأحقاد والضغائن ودفعت بعض أنصاره الى اليأس والارتماء في أحضان العدو . في مايو 1961 مصالي يرفض الدخول في اللعبة الفرنسية برفضه المشاركة في مفاوضات ايفيان ضد جبهة التحرير . بعد الاستقلال يؤسس مصالي حزب الشعب الجزائري ، ويدعو الى التعددية الحزبية ، وينصرف كمعارض متبصر حتى موته . كانت عزة النفس رغم الشدائد ، وبعده عن مستعمري الأمس ، وعزمه على عدم الخلط بين الشعوب وأسيادها تميز موقفه عن مواقف بعض خصومه الذين لا يخفون حنينهم نحو زمن ولّى بدون رجعة .

الشيخ البشير الإبراهيمي (1889 – 1965)

من مواليد منطقة سطيف وينتمي الى بني ابراهيم . يدين بفضل تعلمه الى عائلته ، مثله مثل الكثير من أبناء جيله . لكنه مدين بثقافته وعلمه الغزير للشرق العربي حيث تعلم وعاش من سنة 1912 الى سنة 1922 . أصبح مدرسا في المدرسة الأميرية ثم في جامع الأمويين في دمشق . يشارك الشيخ الابراهيمي ابتداء من سنة 1925 في جماعة الشهاب ، ويصبح عام 1931 نائب رئيس جمعية العلماء ، ولكنه كان أوسع أفقا وأكثر حداثة من ابن باديس . يساهم بنجاح في نشر مثل الجمعية وأفكارها في تلمسان ومنطقة وهران . عام 1940 حكم عليه بالاقامة الجبرية في آفلو ، جنوب وهران ، ويصبح في نفس السنة خلفا لابن باديس رغم معارضة الادارة الاستعمارية . عام 1943 ، يتحالف الشيخ الابراهيمي مع فرحات عباس ، ويتعرض للسجن عام 1945 . بعد اطلاق سراحه يعلن تأييده لحزب عباس ضد حزب الشعب الجزائري .

عام 1951 ، يهاجر الشيخ الإبراهيمي الى المشرق الذي ينشد فيه انبعاث

الإسلام عـام 1954 ، بن بلـة يطلب منـه دعوة الشعب الجزائري الى الجهـاد ، لكنه يرفض ويفضل التحالف مع مصالي حتى عام 1955 . بعد فشل سياستـه جبهة التحرير تحكم عليه بالنفي الى الباكستان ، بينما يحبس جمـاعـة مصـالي ، مازرنة والشاذلي المكي في القاهرة .

يشـاهـد عـام 1962 انتصـار «الحزب الواحـد» ولا يتمكن من اعـادة تشكيـل جهاز للعلماء مستقل عن السلطة كما كان يتمناه ، فيعـارض علنـا وبـاسم الـدين التوجه الذي أعطاه بن بلة للجزائر .

د . محمد بن جلول (ولد عام 1896)

في الثـلاثينـات كان د . بن جلـول أكثر شهرة من بن بـاديس وعبـاس ومصـالي . من أصل بورجوازي ولـه الأسلوب السيـاسي الـذي لـلأعيـان وقلـة الذمة التي لحديث النعمة . وكداع من دعاة الانـدمـاج توصل الى التغلب على أقـدم حلفـاء فرنسـا في ولايـة قسنطينـة ، كمـائلتي بن بـاديس وبن الشيـخ لفكّون ، مستشـار عـام سنـة 1931 . رئيس فـديراليـة المنتخبين عـام 1933 . بقي زعيم الحركـة المطلبيـة بـدون منـازع حتى عـام 1936 . بتكـوين المؤتمر الإسلامي بـدأ نجمـه يـأفل . بعـد عـام 1945 كان عضـوا في الجمعيـة الـوطنيـة (البرلمان) وينتمي الى طائفة «المنتخبين المفبركين» . بعد انتفاضـة 20 غشت/آب 1955 كان من بين أبرز أعضاء مجموعة الـ 61 ، التي أعتبرت «سيـاسـة الادمـاج المزعـومـة (...) قـد تجـاوزهـا الـزمن» . لكن يتراجـع بعـد قليـل ، يغيب من السـاحة السياسية ، ويقضي بقية حياته في فرنسـا .

فرحات عباس (ولد عام 1899)

كان ابن قـائـد صعـد نجمـه مـع الاستعمار الفرنسي . ولـد في تـاهرت عـام 1899 ، في منطقـة عرفت بعنف فلاحيهـا ، وبمنـاهضتهـا لكل السلـط . منـذ شبابه كان مولعا بالشؤون السياسية ونشر أول كتابـاتـه قبل أن يتم دراسـتـه في الصيدلة . «غير أن ضميره كمسلم جزائري يطرح عليه مشـاكل لم يعرف لا كيف يطرحهـا ولا كيف يحلهـا بـوضـوح (...) فلم يختر معسكره» (كما يقـول غي

برفيلي) . كان نصيرا متحمسا للمساواة المدنية ، لكن صاحب «الجزائري الشباب» (1931) بقي سجينا لوسطه الاجتماعي ولتكوينه . فهو لا يستبق الأحداث ، ولكن يحسن التكيف معها ، دون أن يتنكر لذاته .

بدأ فرحات عباس حياته السياسية منذ العشرينات ، كرديف للدكتور بن جلول في فديرالية المنتخبين ، ثم يبتعد عنه سنة 1937 . يبدو له أن الأعيان لا يشكلون قوة قادرة على التغيير ، فيتجه نحو تشكيل «حزب جماهيري» ويؤسس «الاتحاد الشعبي الجزائري» عام 1938 . لكن برنامجه لا يتماشى مع طموحاته ، ولا يصبح زعيما له اتجاهه الا سنة 1943 عندما يتحالف مع العلماء ومع حزب الشعب الجزائري للمطالبة ببرلمان جزائري لدولة مستقلة مرتبطة بفرنسا . ويحافظ على هذا الموقف حتى عام 1954 ، بعد أن قطع علاقاته بحزب الشعب . في ماي 1946 ، يؤسس حزبه الخاص به : «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري» لكن المأزق السياسي ، وتصرفاته النخبوية تلعب ضده . وعندما تجاوزته الأحداث ، انضم الى جبهة التحرير عام 1955 ، وأصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية (1956) ، وفي لجنة التنسيق والتنفيذ ، ثم رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (1958 – 1961) . بعد أن أبعده بن خدة ، يتحالف عباس مع بن بلة سنة 1962 ، ويصبح أول رئيس للجمعية الوطنية (1962) . لكنه يستقيل من منصبه عام 1963 للاحتجاج على الطريقة التي تمت بها الموافقة على الدستور . يحكم عليه بالاقامة الجبرية مرتين : عام 1963 في عهد بن بلة ، وعام 1976 في عهد بومدين .

من مسيرته الطويلة ، يتذكر معاصروه على الخصوص نفيه لوجود وطن جزائري عام 1936 ، لكن من الخطأ حصر مسيرة غنية ومعقدة في هذه الواقعة .

الشيخ إبراهيم بيوض (1899 – 1981)

ولد الشيخ بيوض في قرارة (منطقة مزاب) ، وكان رجل التصالح بين السنة

والاباضية . كان نائب أمين مال جمعية العلماء وعضوا في هيئتها المديرة منذ 1931 ، ومتحدثا باسم سكان مزاب . أصبح عضوا في المجلس الجزائري (1951) ، ثم مندوبا للشؤون الثقافية (بين مارس وسبتمبر 1962) . ألف كتبا تتعلق بتفسير القرآن .

وبخلاف مواطنيه أبو اليقظان ومفدي زكريا وابراهيم غرفة الذين كانوا من رواد الحركة الوطنية ودائما في الطليعة ، فان الشيخ بيوض بقي محافظا مثل أهل بلده .

عمار أوزكّان (1910 – 1980)

ولد في عائلة تنتمي الى منطقة العزازقة (القبائل الكبرى) بمدينة الجزائر . بدأ يمارس نشاطه السياسي منذ العشرينات وهو موظف بالبريد ، وشغل عدة مناصب نقابية . التحق بالحزب الشيوعي الجزائري ، وأصبح بهذه الصفة كاتبا للمؤتمر الجزائري . انتخب سكرتيرا للحزب الشيوعي عام 1943 ، ولكن طرد من الحزب سنة 1948 . كان أوزكّان من دعاة مجتمع متعدد الأجناس ومن رواد تحرير المرأة . غير أنه تقرب من جمعية العلماء وساهم في تحرير جريدة «الشباب المسلم» التي كان يسيرها أحمد طالب الابراهيمي . التحق عام 1955 بجبهة التحرير ، وكان المحرر الأساسي لبرنامج الجبهة المعروف بأرضية الصمام . اعتقل في يناير 1958 وأصبح وزيرا للزراعة عام 1962 – 1963 ، ثم وزيرا للسياحة ومديرا لمجلة «الثورة الافريقية» (1964 – 1965) ؛ ثم بعد معارضة وجيزة للعقيد بومدين ، ينسحب أوزكّان من الساحة السياسية .

لقد ترك انتماؤه للحزب الشيوعي تأثيرا كبيرا على الجماهير ، وأعمق من تأثير سلفه بن علي بوخرط وخلفه العربي البوهالي . كان خطيبا فصيحا ، وصاحب سجال ، وتحمل كل أخطاء حزبه ، وعلى الخصوص موقفه من أحداث 1945 . ومع ذلك فقد كان بعيدا كل البعد عن الأمتثالية ، وكان بحكم جذوره الشعبية واغرامه بالتاريخ والثقافة العربية الإسلامية من أفضل الرجال القادرين على غرس الشيوعية .

القـادة المصاليـون والمركزيـون

المصاليـون

مـولاي مربـاح

وليـد شلالـة ، وكان وكيلا عـدليـا . التحـق بحـزب الشعب بعـد 1945 . ثم ترشح للجمعية الجزائرية عام 1948 . عضو اللجنة المركزية والقيادة حتى عـام 1953 . أبعد بعد المؤتمر الثاني (أبريل 1953) ، وأصبح المتحـدث بـاسم مصـالي داخل اللجنـة المركزيـة . اعتقل بعـد غرة نوفمبر 1954 . بعـد إطـلاق سراحـه صحبة المركزيين يلتحق بالحركة الوطنية الجزائريـة (حزب مصـالي الجـديـد). وهو الآن محام في مدية .

عبد اللّه الفيلالي

ولد في دوار (عشيرة) بنواحي كولو . عاش في قسنطينة وكان صباغا . نـاضل في صفوف نجم شمال افريقيـا ، ثم كان من مؤسسي حزب الشعب . اعتقـل عـام 1937 وحكم عليـه بخمس سنوات سجن عـام 1941 . أطلق سراحـه قبل الأوان وعـاد الى النضـال تحت اسم مستعـار : منصـور . عضـو لجنـة التنظيم ، كان مسـؤول العمـل السياسي في منطقة وهران ، وهو الذي أبلغ فديرالية وهران بقرار حمل السلاح بعد أحـداث 8 مـايو 1945 . حكم عليـه بـالاعـدام . عضو اللجنـة المركزيـة في حزب الشعب السري وقائد فديرالية فرنسـا لحركـة انتصـار الحريـات الـديمقراطيـة عـام 1949 . ثم وقع ابعاده شيئا فشيئا وأقصى من قيادة حزب الشعب السري .

وكلت إليه الأعمال الخارجـة عن الشرعيـة تحت اسم الخفيف ، وكان من أبرز أنصار مصالي خلال الأزمة . بعد 1956 ، واصل النضال داخل الاتحاد النقـابي للعمال الجزائريين ، كان مسؤولا عن فرق الحركة الوطنية الجزائريـة المسلحـة . مات عام 1957 ضحية لأحدى عمليات جبهة التحرير . أعيـد دفنـه في الجزائر بموافقة العقيد بومدين .

أحمـد مازرنـة

كان منـاضـلا في صفـوف الحـزب الـوطني الثـوري الـذي كان يقـوده أحمـد

المستول . ثم انضم مع بقية أعضاء هذا الحزب الى نجم شمال افريقيا عام 1932 . أصبح في أوت/آب 1938 سكرتيرا لفدرالية العاصمة لحزب الشعب . اعتقل وحكم عليه عدة مرات ، وكان من قادة حزب الشعب / حركة انتصار الحريات بعد 1945 . وقع اقصاؤه بعد المؤتمر الثاني ، وأصبح من أعوان مصالي . مسؤول العلاقات الخارجية داخل اللجنة المؤقتة التي تقود حركة الحريات من مارس الى يوليو 1954 . بعد مؤتمر هورنو (يوليو 1954) أصبح المسؤول الرسمي عن الشؤون الخارجية ، وبهذه الصفة يسافر الى القاهرة في أكتوبر .

عمل على تشكيل جبهة تضم جميع تيارات الحركة الوطنية ، لكن قادة جبهة التحرير يستعملونه كضمانة لايهام الرأي العام بالتحاق المصاليين بصفوفهم . يختلف مع مصالي وتعتقله السلطات المصرية يوم 11 يوليو 1955 بطلب من جبهة التحرير . مات لاجئا في فرنسا عام 1982 .

المركزيون

بن يوسف بن خدة

ولد بن خدة في البليدة عام 1922 ، والتحق بحزب الشعب خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم أصبح سكرتيره العام بعد مؤتمر أبريل 1953 ، كان مع حسين الأحول من أبرز شخصيات المركزيين . يلتحق بجبهة التحرير عام 1955 بعد أن تجاوزته الأحداث ، ويصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية (1956 – 1962) ، وعضوا في لجنة التنسيق والتنفيذ (1956 – 1957) ، ثم وزيرا للشؤون الاجتماعية في سبتمبر 1958 ، وأخيرا رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية . أقصي من الساحة السياسية ابتداء من سنة 1962 ، ولا يعود إليها الا عام 1976 عندما وقع على البيان الذي يشجب نظام العقيد بومدين .

محمد يزيد

كان عضوا في حزب الشعب عندما ذهب الى فرنسا عام 1945 ، مسؤول عن

الفرع الجامعي في باريس حتى عام 1947 . كان كاتبا عاما لجمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين (1946 – 1947) . عام 1948 ، عضو اللجنة المركزية لحزب الشعب . اعتقل في مارس 1948 ، وحكمت عليه محكمة الجزائر العاصمة في جوان/حزيران بسنتين سجنا وعشر سنوات نفيا ، «لمسه بوحدة فرنسا الترابية» . من 1950 الى 1953 ، كان ممثلا لقيادة حركة الحريات في فرنسا تحت اسم زبير . وقع ابعاده من منصبه بطلب من مصالي ، الذي أخذ عليه موقفه التوفيقي من الحزب الشيوعي والسلبي من اليسار المتطرف (التروتسكي) ، وأصبح أبرز شخصيات جناح اللجنة المركزية . فاجأته غرة نوفمبر في العاصمة المصرية ، فتكيف مع الوضع الجديد الذي خلقته جبهة التحرير ، وأصبح ممثلا لها في نيويورك .

أصبح وزيرا للاعلام في الحكومة المؤقتة (1958 – 1962) ، عضوا في المجلس الوطني (1962 – 1965) . سفيرا في بيروت (1975) وعضوا في اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير (1979 – 1984) .

عبد الرحمن كيوان

كان محاميا وعضوا في حزب الشعب ، وكبقية المثقفين فانه سرعان ما ارتقى الى المناصب القيادية . عضو في سكرتارية حركة انتصار الحريات عام 1954 ، وأصبح اسمه رمزا للاصلاحية . كان النائب الثاني لرئيس بلدية العاصمة (جاك شوفالييه) . اعتقل في نوفمبر 1954 وأطلق سراحه في مارس 1955 . رفض موافقة بن خدة على الانضمام الى جبهة التحرير بدون شرط . ونادى بالاستقلال الذاتي عوض المطالبة بالاستقلال التام . شهرت به جبهة التحرير في احدى منشوراتها . فكان آخر من انضم ، وشارك في المفاوضات مع مبعوثي غي موللي ، عام 1956 ، باسمه الخاص . عين سفيرا للحكومة المؤقتة في بكين عام 1961 ، ولم يلعب أي دور بعد الحرب ، أصبح مديرا للوظيفة العمومية عام 1974 .

وجوه التيار الشعبوي الثوري

عبّان رمضان

ولد عام 1920 في عائلة متواضعة من العجورة في القبائل الكبرى . يترك عبان الوظيفة العمومية عام 1945 ليتفرغ للنضال من أجل الاستقلال . اعتقل عام 1950 ، كمناضل في حزب الشعب ، والتحق بمجرد اطلاق سراحه سنة 1955 بجبهة التحرير التي أصبح أبرز مفكريها . فهو الذي تفاوض مع الأحزاب القديمة للالتحاق بجبهة التحرير وهو الذي أعطى جبهة التحرير مؤسساتها وبرنامجها . اكسبته سياسته عداء بن بلة وبوضياف أولا ، ثم عداء أول من حماه ، كريم بلقاسم ، وبوصوف . استدرج عبان الى كمين نصب له بالمغرب ، حيث وقع خنقه في ديسمبر 1957 بأمر من بوصوف من قبل زبانية جهاز الأمن .

حسين آيت أحمد

ولد آيت أحمد في عائلة كبيرة لها صلة بالطرق الصوفية في منطقة القبائل ، عام 1926 . انضم عام 1942 الى حزب الشعب ، ونادى منذ عام 1946 باللجوء الى الكفاح المسلح . عضو المكتب السياسي (عام 1947 – 1949) ، ساهم في تشكيل المنظمة الخاصة ، وأعد برنامج للانتفاضة قدمه للجنة المركزية (ديسمبر 1948) ، ونظم الهجوم على مكتب البريد بوهران (أبريل 1949) . أبعد من الهيئات القيادية بتهمة «الميل للبربرية» ، ويحل أحمد بن بلة محله على رأس المنظمة الخاصة . بعد الحكم عليه غيابيا ، يلتجيء الى القاهرة عام 1951 حيث يمثل حزب الشعب / حركة انتصار الحريات الى جانب محمد خيضر . بعد انشقاق الحزب ، يدافع آيت أحمد عن فكرة الكفاح المسلح ويصبح أول ممثل لجبهة التحرير في نيويورك وعضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية . في يوم 22 أكتوبر 1956 ، يخطف الفرنسيون آيت أحمد ورفاقه ، ويبقى في السجن حتى نهاية الحرب عام 1962 . في صيف 1962 ، آيت أحمد يعارض بن بلة وقيادة جيش التحرير . ينتخب عضوا في المجلس التأسيسي ، ولكن حرمانه من حرية التعبير يدفع به الى تأسيس «جبهة القوة الاشتراكية» وتنظيم

انتفاضة لم تتجاوز منطقة القبائل . بعد اعتقاله يحكم عليه بالاعدام ، ولكنه يتصالح مع بن بلة عشية انقلاب جوان 1965 العسكري . نظام بومدين يتركه رهين السجن ، ولكن آيت أحمد يتمكن من الهرب من سجن الحراش عام 1966 ، ويعيش منذ ذلك التاريخ في المنفى .

أحمد بن بلة

من الشائع أن بن بلة ولد يوم 25 ديسمبر 1918 في مغنية ، وسط عائلة من صغار الفلاحين . انضم الى حزب الشعب بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح عام 1949 مسؤولا عن التنظيم وعن المنظمة الخاصة . اعتقل عام 1950 في قضية بريد وهران . وحكم عليه بالسجن المؤبد ، لكنه يتمكن من الفرار من سجن البليدة (16 مارس 1952) رغم معارضة الحزب لذلك . التجأ الى القاهرة وأصبح منذ نوفمبر 1954 أحد زعماء جبهة التحرير . تعرض بن بلة لعدة محاولات اغتيال ، ثم اعتقل بعد اختطاف طائرته يوم 22 أكتوبر 1956 . من السجن يعارض بن بلة قادة الجبهة حول مسألة التحالفات وقضايا القيادة . كان عضوا في المجلس الوطني للثورة (1956 – 1962) ، ونائبا لرئيس الحكومة المؤقتة (1960) . عام 1962/1961 يقف الى جانب قيادة الجيش ضد الحكومة المؤقتة ويصبح أول رئيس للجمهورية الجزائرية . عام 1965 انقلاب العقيد بومدين يطيح به ، ويودعه السجن حيث يقضي 14 سنة ، في عزلة شبه كاملة . الرئيس الشاذلي يطلق سراحه ، لكنه يعود الى نشاطه السياسي ويختار المنفى منذ عام 1982 .

محمد بوضياف

ولد محمد بوضياف يوم 23 جوان 1919 في المسيلة في عائلة كبرى . بعد الحرب ، يترك الوظيفة العمومية ويضع نفسه في خدمة الحركة الوطنية . يناضل في صفوف حزب الشعب ويصبح مسؤولا عن المنظمة الخاصة في قسنطينة . كان عام 1953 – 1954 ، العمود الفقري لتجمع أنصار الكفاح المسلح ، اختطف مع بن بلة يوم 22 أكتوبر 1956 ، وبقي عضوا في المجلس الوطني للثورة (1956 – 1962) .

يعين وزيرا للدولة (1958) ثم نائبا لرئيس الحكومة المؤقتة (1961) . يعارض بشدة هيمنة الجيش وزعامة بن بلة ويؤسس حزب الثورة الاشتراكية في سبتمبر 1962 . يعتقل بوضياف يوم 21 جوان 1963 ثم يطلق سراحه ، فيؤيد محاولة انقلاب العقيد الشعباني عام 1964 . وهو ، مع آيت أحمد ، من أوائل مؤسسي جبهة التحرير الذين تخلوا عن فكرة الحزب الواحد وطالبوا بتعدد الأحزاب ، وهو يعيش الآن لاجئا بالمغرب الأقصى .

مصطفى بن بولعيد

ولد يوم 5 فيفري 1917 في أريس بمنطقة الأوراس ، في عائلة تنتمي الى الأعيان . يناضل في حزب الشعب في تنظيماته المسلحة بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم ينتخب في الجمعية الجزائرية بكل نجاح ، لكن السلطات الاستعمارية تلغي انتخابه . يصبح عضوا في اللجنة المركزية (1953) ، ويعترف به الجميع زعيما لأنصار الكفاح المسلح ، لكنه يترك القيادة لبوضياف ، ويكتفي بالقيادة السياسية والعسكرية لمنطقة الأوراس .

يعتقل في فيفري 1955 ، لكنه يتمكن من الفرار صحبة طاهر الزبيري (الذي سيصبح فيا بعد قائدا للأركان) في نوفمبر 1955 . يوم 27 مارس 1956 ، يستشهد بن بولعيد اثر انفجار جهاز ارسال ألغمه رجال المخابرات الفرنسية .

العربي بن مهيدي

ولد عام 1923 في عين مليلة (بناحية قسنطينة) في عائلة فلاحية متوسطة ، ناضل في صفوف حزب الشعب وأصبح من كوادر تنظيمه المسلح ، سابقا جميع رفاقه على الساحة السياسية . اعتقل بعد مايو 1945 ، واتهم في قضية المنظمة الخاصة (1950) ، وحكم عليه بعشر سنوات سجنا غيابيا . عضو مؤسس للجنة الثورية للوحدة والعمل ، وقائد منطقة وهران . يتخلى عن هذه القيادة لفائدة بوصوف بعد مؤتمر 20 غشت 1956 ، الذي يعينه عضوا في القيادة العليا لجبهة التحرير . لجنة التنسيق والتنفيذ . في نزاع بن بلة مع القيادة

الـداخليـة يقف بن مهيـدي الى جـانب عبـان رمضـان وكريم بلقـاسم . خلال معركة الجزائر العاصمـة ، يشرف بن مهيـدي على نشـاط المجموعـات المسلحـة . قوات الكولونيل بيجـار تعتقلـه يـوم 23 فيفري 1957 ، يستشهـد بن مهيـدي تحت التعذيب دون أن يدلي بأي اعتراف وينال اعجاب العدو بذلك .

رابـح بيطـاط

ولد عام 1925 في عين الكرمة ، بمنطقة قسنطينـة ، وانضم الى حزب الشعب خلال الحرب العالمية الثـانيـة . عضو في المنظمـة السريـة ، سلطـات الاحتلال تلاحقه ابتداء من عام 1954 ، الذي يشارك فيه في تـأسيس جبهـة التحرير . ويصبح قائـدا للمنطقـة الرابعـة . يعتقل يوم 23 مـارس 1955 . عضو المجلس الوطني للثورة الجزائريـة (1956) . ثم يشـارك في الحكومـة المؤقتـة (1958) . بيطاط يسـاند بن بلـة عـام 1962 ، ويصبح عضوا في المكتب السيـاسي لجبهـة التحرير ، لكنه يستقيل عـام 1964 . يؤيـد انقلاب العقيـد بومـدين ويصبح وزيرا للـدولـة (1965) ، ثم وزيرا للنقـل (1972) وأخيرا رئيسـا للجمعيـة الوطنية (1976) .

كريـم بلقاسـم

ولد عام 1922 في عائلة من أعيان الريف في منطقـة ذراع الميزان ، وانخرط في صفوف حزب الشعب بعد 1945 ، حيث قاد تمردا مسلحا في جبال القبـائل حتى عـام 1947 ، وحكم عليـه بـالاعـدام مرتين . ابتـداء من فيفري/شبـاط 1954 ، يبرز كريم بلقـاسم بين المنـادين بـالكفـاح المسلح . ينفصـل في أوت 1954 دون علم أنصاره . كان أحد مؤسسي جبهـة التحرير وعضوا في قيـاداتهـا العليا حتى عام 1962 ، عين نائبا لرئيس الـدولـة ووزيرا للقوات المسلحـة (في سبتمبر 1958) ثم وزيرا للشؤون الخارجية ووزيرا للداخليـة (1961) . كان من بين أبرز الموقعين على اتفاق ايفيان ، أبعد عن السـاحة السيـاسيـة بعـد 1962 ، ولكنه عاد إليها 1965 . فاتهم بتدبير مؤامرة لاغتيـال العقيـد بومـدين . وحكم عليه بالاعدام بعد خيان بعض أقاربه له ، بايعاز من مخابرات نظام بومـدين . لقي مصرعه مقتولا في أحد فنادق فرانكفورت عام 1970 .

أحمد محساس

ولد عام 1923 في بودواو ، وينضم الى حزب الشعب في بلكور يصبح عضو اللجنة المركزية عام 1946 – 1947 ، ويعين في قيادة التنظيم المسلح يعتقل عام 1950 ، ويتمكن من الفرار الى فرنسا عام 1952 . يشارك في هيئة تحرير الجزائر الحرة ويدعو المناضلين الى الابتعاد عن مصالي وعن اللجنة المركزية ويشهر باللجنة الثورية للوحدة والعمل كستار لنشاط اللجنة المركزية هذا الموقف يجلب عليه عداوة بوضياف الذي يمنعه من المشاركة في اجتماع (Berne) الذي حضره كل من بوضياف وبن بلة وبن مهيدي وبن بولعيد وديدوش . يتعاون مع المصاليين لكنه يتخلى عنهم غداة الثورة عمل عضوا في فدرالية فرنسا لجبهة التحرير . يلتحق بالقاهرة عام 1955 ويصبح مسؤولاً سياسياً عسكريا بالمنطقة الشرقية (تونس وليبيا) ، فيعارض نتائج الصمام . بعد اعتقال بن بلة (1956) يحاول تجميع أنصاره من الأوراس والنامشة والصوافة . أوعمران ، ممثل لجنة يأمر باعتقاله في تونس ، لكنه يتمكن من الفرار الى ألمانيا حيث يعيش حتى عام 1962 يصبح مديرا لصندوق الملكية العقارية الزراعي (1962) ثم مديراً للديوان الوطني للاصلاح الزراعي فوزيرا للفلاحة والاصلاح الزراعي (1963 – 1966) . يؤيد انقلاب العقيد بومدين ومجلس الثورة . ينفصل عن بومدين ويلجأ الى فرنسا عام 1966 . ينضم الى المنظمة السرية للثورة الجزائرية التي أسسها محمد البجاوي ، ولكنه ما فتىء أن غادرها ، وبقي يعيش بالمنفى في فرنسا حتى موت بومدين .

ديدوش مراد

ولد في بلكور (الجزائر العاصمة) عام 1922 ، وهو سليل عائلة مترفهة انضم الى حزب الشعب بعد 1945 وأصبح كادرا من كوادر المنظمة الخاصة ، ملاحقا منذ 1950 . بعد حل المنظمة الخاصة يعود الى التنظيم السياسي ، كنائب لبوضياف في تنظيم فدرالية فرنسا . وقف ضد مصالي (مارس 1954) وعاد الى الجزائر بموافقة بوضياف الذي كان أوفى صديق له كان عضوا في جماعة الـ 22 (يوليو 1954) ، ثم قائداً لمنطقة قسنطينة (أكتوبر 1954) كان يعطي أولوية

مطلقة للعمل السياسي ، وكان جد متأثر بالأفكار المنادية بالمساواة . استشهد في جانفي 1955 في «كوندي سمندو» وهو يحاول حماية انسحاب المجموعة التي كان يقودها . كان ديدوش من ألمع وجوه الحركة الوطنية .

محمد بن يوسف خيضر

ولد يوم 13 مارس 1912 في عاصمة الجزائر ، في عائلة فقيرة من بسكرة ، واشتغل قابضا في حافلات النقل الحضري ، انخرط في صفوف نجم شمال افريقيا ثم في حزب الشعب ، حيث انتخب نائبا عن الجزائر العاصمة عام 1946 . وقع توريطه ، دون علمه ، في حادثة السطو على بريد وهران ، اذ استعملت سيارته لنقل النقود من وهران الى مدينة الجزائر . التجأ الى القاهرة منذ عام 1951 ، بعد أن ثار ضد قرار الحزب الذي طلب منه تسليم نفسه للسلطات الاستعمارية . حاول بصفته من أنصار الكفاح المسلح ، مصالحة المصاليين والمركزيين حتى يتولى الجميع مجابهة المهام الجديدة ، ولكن بدون جدوى اعتقل مع بن بلة ورفاقه يوم 20 أكتوبر 1956 ، ولم يطلق سراحه الا بعد الحرب . كان عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، ووقف في صف بن بلة (1962) ، فأصبح كاتبا عاما لجبهة التحرير ، بعد خلاف حول مهام الدولة والحزب وخاصة حول مسألة دور الجيش ، يقدم خيضر استقالته ولكنه حافظ دون ارادة منه على أموال الحزب في الخارج . بعد اغتياله وبمساعدة عائلته تستعيد الدولة الجزائرية ما يسمى «ذخيرة جبهة التحرير» .

عمار أو عمران

ولد في القبائل عام 1919 . وانضم الى حزب الشعب ، حيث تمكن من استمالة مجموعة من المجندين الجزائريين في شرشال ، استعدادا للانتفاضة المسلحة التي كان يعدها حزب الشعب (مايو 1945) حكم عليه بالاعدام (1945) ثم أعفي (1946) بدأ البوليس يلاحقه فلجأ الى الجبل سنة 1947 ، وبقي متمردا حتى انشقاق حركة انتصار الحريات الديمقراطية . حكم عليه بالاعدام غيابيا ، وقف في صف مصالي ضد المركزيين (فيفري 1954) ، أصبح نائبا لكريم بلقاسم في قيادة منطقة القبائل (نوفمبر 1954) ، ثم قائدا للولاية الرابعة (أوت

1956) ، كان عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية من 1956 الى 1962 . بعد 1956 ، كلفته لجنة التنسيق والتنفيذ باخضاع أنصار بن بلة لأوامر القيادة . وقع ابعاده تدريجيا بعد أن كان مسؤولا للتسليح والتموين ، فعين ممثلا لجهة التحرير في تركيا (1960) . في مؤتمر طرابلس (1962) ينفصل عن كريم ويؤيد بن بلة ؛ ينتخب عضوا في الجمعية الوطنية (1962) ثم ينسحب من الساحة السياسية ليصبح رجل أعمال .

يوسف زيغود

كان حدادا في كوندي سمندو (منطقة قسنطينة) انضم الى حزب الشعب بعد الحرب العالمية الثانية . اختير عام 1948 ، للمشاركة في التنظيم المسلح بينما كان عضوا في المجلس البلدي . اعتقل عام 1950 ، لكنه تمكن من الفرار من سجن عنابة (1952) . كان عضوا في لجنة الـ 22 . وخلف ديدوش على رأس المنطقة الثانية في يناير 1955 ، استشهد في سبتمبر 1956 قرب سيدي مزغيش ، خلافا للكثيرين من محيطه ، كان زيغود رجلا لا يعرف الحسابات .

مــلاحــق

اللجنة المركزية لحزب الشعب / حركة انتصار الحريات عشية الانشقاق :

أعضاء اللجنة المركزية

ح : من أنصار الكفاح المسلح
ل : من أنصار اللجنة المركزية
م : من أنصار مصالي .

- عيسات ايدير	ل
- بلعيد عبد السلام	ل
- بن بولعيد مصطفى	ح
- بن شيخ الحسين عبد الحكيم	ل
- بن يوسف بن خدة	ل
- بن مهل محمد	ل
- بودة أحمد	ل
- بولحروف الطيب	ل
- بوكروة موسى	ل
- سعد دحلب	ل
- بشير الدخلي	ل

- الجيلالي مبارك	ل
- فروخي مصطفى	ل
- حمود الهاشمي	ل
- عبد الرحمن كيوان	ل
- لعجوزي طاهر	ل
- لوانشي صالح	ل
- معيزة صالح	ل
- عبد الحميد مهير	ل
- مولاي مرباح	م
- مصالي الحاج	م
- المنجي زين العابدين	ل
- مازرنة أحمد	م
- راجف بلقاسم	ل
- سيد علي عبد الحميد	ل
- هواري السويح	ل
- تمام عبد المالك	ل
- محمد يزيد	ل

حزب الكفاح المسلح الفوري

لجنة الـ 22 :

منطقة قسنطينة

لباجي مختار (سوق أهراس)	لمودي عبد القادر (بسكرة)
بن عبد المالك رمضان (قسنطينة)	مشاطي محمد (قسنطينة)
بن عودة بن مصطفى عمار (المنابة)	ملاح رشيد (قسنطينة)
بن بولعيد مصطفى (أريس)	سويداني بوجمعة (قالمة)

بن مهيدي العربي (ميلة)
بن طوبال لخضر (ميلة)
رابح بيطاط (قسنطينة)
بوعلي سعيد (قسنطينة)
بوضياف محمد (مسيلة)
بوصوف عبد الحفيظ (ميلة)
حبشي عبد السلام (قسنطينة)
زيغود يوسف (كوندي سمندو)

منطقة الجزائر

بولويزداد عثمان
بوعجاج زبير
ديدوش مراد
مرزوقي محمد

منطقة وهران

بوشعيب أحمد بلحاج

المجموعة القبائلية

ببوش سعيد
قمراوي أحمد
كريم بلقاسم
ملاح علي (الكولونيل شي)
قمران عمار
يزوران محمد (الكولونيل سي سعيد ، أوبرّوش)
زمّوم علي
زموم محمد (الكولونيل سي صالح)

مندوبية حزب الشعب في القاهرة

حسين آيت أحمد
أحمد بن بلة
محمد خيضر

لجنة الستة

بن بولعيد
بن مهيدي
بيطاط
بوضياف
ديدوش
كريم

لجنـة التسـعـة

أيت أحمد
بن بلة
بوضياف
بن مهيدي
بيطاط
بن بولعيد
ديدوش
خيضر
كريم

قائمة بالأسماء الجديدة للبلديات التي كان لها اسم فرنسي :

أومال : سور الغزلان
بوسكي : حجاج
كامب الماريشال : تادمايت
كاساني : سيدي علي
كلوزال : عين حساينية
كول الزيتون : عين بوزيان
كوندي سمندو : زيغود يوسف
كريشيا : ضرايصية
ويليسس : عبد الملك رمضان
أوليانفيل : شلف
بول كازال : عين أوسيرة
بيتي : بوسهرة أحمد
فيليبفيل : سكيكدة
ريبقال : رغلية
ريبال : شلالة
ريليزان : ايفيل أيزان
ديوصلادو : المالح
سانت أرنو : العلمة
شان شارل : جمال رمضان
سان لوسيان : زهانة
أوزاس لي دوك : ولد الأبطال

تـواريـخ

من الاحتلال الى المقاومة

يوليو 1830 : احتـلال الجـزائر العـاصمـة ، الطرق الصـوفيـة في الداخل تدعو الى الجهاد .

(3 مايو) 1837 : فرنسا تهادن المقـاومـة وتسلم بمقتضى اتفـاقيـة تـافنـا ثلثي الجزائر الى الأمير عبد القادر وتحتفـظ بمـدينتي الجزائر ووهران وما إليهما .

(13 أكتوبر) : سقوط قسنطينة ، الباي أحـمد يواصل المقـاومـة في جبال الأوراس .

(4 آب) 1843 : هزيمة عبد القادر في واد ايسلي .

1845 : انتفـاضـة الظهرة وشيلف والـورسنيس تحت قيـادة بوصخرة .

1847 : بداية احتلال الجنوب ، سقوط الزعاتشة .

1848 : استسلام باي قسنطينة

1849 – 1854 : مـواصلـة احتـلال الجنـوب ، سقـوط الأغـواط وتوغورت .

1857 : احتلال القبائل .

1858 – 1860 : تمرد غير معلن في القبائل .

1859 : تمرد في الأوراس .

1860 : تمرد في منطقة هدنة

1864 – 1865 : تمرد زاويـة أولاد سيـدي الشيـخ في تيتري جنـوب وهران .

1871 : تمرد في القبـائل الزاويـة الرحمـانيـة والشيخ الحـداد يجندان 80 ألف مقاتل لدعم الباشا المقراني .

1876 : تمرد العمري

1879 : شغب في الأوراس .

1881 – 1883 : تمرد جنوب وهران تحت قيادة بوعمامة .

1901 : تمرد في قرية مدغريت .

1911 : هجرة التلمسانيين للاحتجاج على التجنيد الاجباري

1916 : ثـورة بني شقران في منطقـــة معكسر ، تمرد في الأوراس ضد التجنيد الاجباري .

تدمير الجزائر العتيقة وتشكيل النظام الاستعماري

(22 يوليو) 1834 : إعلان الجزائر «ملكية فرنسية»

1844 – 1846 : دمـج أراضي الـدولـة الجـزائريـة والأحبـاس ضمن أملاك الـدولـة . ادخـال نظـام نزع الملكيـة بسبب عدم الزراعة .

1848 : تقسيم شمال الجزائر الى «ثلاث محافظات فرنسية» . المعمرون يحصلون على تمثيلهم في البرلمان .

1851 : توطين القبائل ، وادخال نظـام جمـاركي يقضي على الصناعة التقليدية .

1852 : الأمبراطورية الثانية تلغي تمثيل المعمرين ؛ انتصار رجال الجيش ، سياسة «المملكة العربية»

1863 و 1873 : قـانـون (سينـاتـوس كـونسـولت) وقـانـون فـارني يفرنسان الملكية ويشتتان القبائل والعشائر .

1867 : احتكار العلم .

1870 : تجنيس يهود الجزائر بواسطة قانون كريبو .

1881 : الحاق الشؤون الجزائرية بالوزارات المختصة .

1898 : أزمة معادية للسامية . المعمرون يحصلون على انشاء جمعية مالية .

1900 : المعمرون يحصلون على الاستقلال المالي .

الحركة الوطنيـة

1912 (جوان) : بيان الجزائر الفتاة .

1922 : انقسام حركة الجزائر الفتاة الى أنصار ومناهضي التجنيس (بن تامي والأمير خالد) .

1926 (مارس) : نشأة نجم شمال افريقيا في فرنسا .

1927 (11 سبتمبر) : تأسيس فديرالية المنتخبين برئاسة الدكتور بن تامي .

1929 : أول منع لنجم شمال افريقيا .

1930 (20 جوان) : تأسيس فديرالية مستقلة لمنتخبي قسنطينة برئاسة السيد سيسبان

1931 (5 مارس) : تأسيس جمعية العلماء .

فهـرس

الحدث 5
الأصول المباشرة لغرة نوفمبر 51
أصول الصراع الفرنسي – الجزائري 75
نهضة الجزائر 99
إنتصار دعاة الإستقلال 135
غرة نوفمبر كتصور 153
تراجم 175
ملاحق 193
تواريخ 197

الايداع القانوني السداسي الأول 1994

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية ، الجزائر
1994
Printed in Algeria.

محمد حربي

الثورة الجزائرية

هنوات المخاض

إن تاريخ الثورة الجزائرية ما يزال ميدانا بورا، وإن تفسيرات الفاعلين والمؤثرين فيها ما تزال عبءا ثقيلا على جهود المؤرخين الرامين إلى إقرار الحقيقة، واستجلاء غوامضها. وما من شك - لذلك - في أن التاريخ، بما يطرحه من تساؤلات، وما يطرح عليه من استفسارات يبيّن لنا أن طبيعته ذاتها تقتضي بأن يراجع ما كتب فيه على الدوام لمزيد من التمحيص والتدقيق.

83 11 06 01/94